

محمد الطيب العلوي

مظاهر المقاومة الحزبية

مزعك 1830 حق ثوية نو نمب 1954

الطبعة الأولى

1406 هـ - 1985 م

نشر



رئاسة الجمهورية

رئاسة الجمهورية شهادة الميلاد

بمصر العربية

رئاسة الجمهورية

2001 - 2001

رقم الابداع القانوني

39530

1405

و. ت. س. ط. ب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى السُّمَّاءِ والخَالِدِينَ الْفَذِينَ
لَمْ يَرْضَ عَنْهُمْ إِلَّا عَمِيَّاءُ ١

المقدمة

الصفحات التي بين يديك أيها القاريء الكريم ، ليست في الأصل إلا أحاديث أذيعت بالإذاعة الوطنية الجزائرية طوال شهر أكتوبر 1984 ، وقد نظم هذه الأحاديث معي الأخ عبد القادر نور مدير الإذاعة الجزائرية ، وذلك بمناسبة الذكرى الثلاثين للثورة الجزائرية المجيدة .. وهي ذكرى رائعة احتفل بها الشعب الجزائري احتفالا رائعا ، كان في مستوى الثورة الخالدة .. وقد لاقت هذه الأحاديث - على إيجازها - صدًى طيبا ، وصادفت إعجابا من المستمعين والمستعدات ، فألحوا علي جمعها ونشرها في كتاب ، حتى لاتضيع في خضمّ الأحاديث المهملة .. وقد تمكنت بفضل التشجيع والاهتمام من تسجيلها ، وصوغها صياغة مناسبة للنشر وللقراءة بعد إدخال تعديلات طفيفة على الأصل .. أرجو أن يسدّ هذا الكتاب بعض الفراغ ، وأن يلبي حاجة الشبيبة الجزائرية المتشوقة لمعرفة تاريخ بلادها بصفة عامة ، وتاريخ المقاومة بصفة خاصة ، وقد لاحظت هذا التعطش في مختلف المناسبات التي أتيت لي لإلقاء المحاضرات في بعض المعاهد الجزائرية .. وأمل في الأخير أن تسهم هذه الصفحات في إثراء المكتبة التاريخية الجزائرية التي تحتاج إلى مساهمة كل جزائري وجزائرية بما يتوفر لديه ولديها من معلومات ..

لقد قصرنا كثيرا في كتابة تاريخنا ، وهو تاريخ ناصع حافل .. فتولاه الأجانب ، وحلّوه من جهات نظرهم ، وشوّهوا الكثير من

الحقائق أحيانا عن « عمد وسبق إصرار » ، وأحيانا عن جهل وبدون قصد .. حتى أن بعض المتعصبين من الأجانب ، أنكروا تماما وجود شعب جزائري !. ووجود وطن جزائري !. بل هناك بعض السياسيين التقدميين تجرأوا على التصريح فوق الأرض الجزائرية ، بأن الشعب الجزائري غير موجود ، وإنما هو شعب في طريق التكوين !. وتجراً آخرون على الادعاء بأن فرنسا وجدت القطر الجزائري أرضا مهملة ، « فعمّرتها » وأطلقت عليها اسم « الجزائر » !. فالجزائر إذن في نظر هؤلاء وأولئك ، إنما هي « صنع فرنسي » ، ولا وجود لها قبل الوجود الفرنسي !. ومعنى ذلك أنه لا ماضي لهذه البلاد .. ومن لا ماضي له ، لا حاضر ولا مستقبل له .. وانطلاقا من هذا الفهم الخاطيء ، والتفكير المنحرف ، راحوا يستهينون بالفرد الجزائري ، فاعتبروه طوال القرن والرّبع من الاستعمار « أهليا » « متخلفا » « غير قابل للتطور » « لا استعداد له للاندماج في العالم المتحضر » « ليست له مقومات ولا تقاليد » « عاجز عن القيام بأي عمل رائع » وإذا صدر عنه عمل رائع ، فإنه لم يصدر إلا بإيعاز وإيحاء .. ومن هذه الحقائق الزائفة التي رستحوها في أذهانهم ، وأذهان غيرهم ، عارضوا كل المطالب والمواقف الجزائرية ، على أنها مطالب أو مواقف أوحّت بها عناصر أجنبية .. وهذا ما جعلهم أيضا لا يعترفون بثورة نوفمبر 1954 كثورة جزائرية بحتة ، فجرتّها الطاقة الوطنية الجزائرية ، واحتضنها الشعب الجزائري ، وضحى في سبيلها بالنفس والنفيس .. ودفعهم التعصب الأعمى إلى اتهام جهات أجنبية ، ودول أجنبية .. أحيانا شرقية ، وأحيانا غربية .. لولا أن الثورة فرضت نفسها ، وأثبتت وجودها وقوّتها ، واستطاعت أن تفسد كل المخططات ، وأن تقضي على كل المناورات ..

فهل من حقنا أن نحتج على ما كتبه الأجانب عن تاريخنا وثورتنا ؟ أعتقد أنه بدل الاحتجاج ، والرد على ما كتبوه ، يتعين علينا أن نتوجه مباشرة إلى تسجيل تاريخنا بأنفسنا ، فالمثل يقول : « ما حك جلدك ، مثل ظفرك » .. لأن كل مؤرخ أجنبي عندما يحلل الأحداث التاريخية ، يحللها بمنظاره الذي أعده مسبقا لتحقيق غرض ما ، معتمدا في تحليلاته وبحوثه على الوثائق المتوفرة لديه ، وهي وثائق معروفة المصدر .. لا توجد بينها الوثائق الوطنية ، لأن هذه اختفت وأحرقت منذ الساعات الأولى من الاحتلال ، واستمر الحرق لآخر ساعة منه .

لهذا ركزتُ في أحاديثي على بعض الجوانب من المقاومة الطويلة الواسعة ، للتأكيد على عراققة وأصالة الشعب الجزائري .. إذ لولا الجذور التاريخية لهذا الشعب ، ولولا ماضيه الحافل العريق ، لَمَا تَمدى في مقاومته للاحتلال قرنا وربعا .. وَلَما ضحّى بالملايين من خيرة أبنائه .. وهنا لا يفوتني أن أذكر بأننا تعوّدنا - منذ الاستقلال - أن نُردّد : « بأن الجزائر أرض مليون ونصف مليون شهيد » - بينما هي أرض الملايين من الشهداء !. أرضُ المقاومة التي لم تتوقف أبدا !. وتاريخ المقاومة تاريخ مشرف للجزائر .. وكل مرحلة منها تحتاج في الحقيقة إلى وقفة خاصة ، وإلى حديث خاص ، لا تتحمله مثل هذه الأحاديث العابرة ..

ومن تأمل الأحاديث التي ركزتُ عليها يُدرك المرء سبب صلابة الجزائريين وتشدّدهم في مواقفهم ضد سياسات : المراحل . الإدماج . التجنيس . الاتحاد الفرنسي . الإصلاحات . تصنيف السكان .. ويدرك

تشدد الجزائريين في المفاوضات الجزائرية - الفرنسية أثناء حرب التحرير ، لأنهم علّقوا مصير الثورة بثلاثة أهداف :

- الاستقلال التام .

- السيادة الوطنية الكاملة .

- الوحدة الترابية الوطنية غير المنقوصة .

لكن الأحداث مرتبطة دائماً بالأفراد ، والجمعيات ، والأحزاب ، لأنهم الذين حدّدوا الأهداف ، وأشرفوا على التنفيذ .. وهنا يجب علينا أن نتحدث عن تاريخنا بدون عقدة ، فتاريخنا كتاريخ أي شعب ، فيه صفحات مشرقة ، وصفحات مظلمة ، ولكنها جميعاً حلقة من حلقات التاريخ الوطني .. والعقدة تباعد بيننا وبين الموضوعية ، وتجبرنا إلى كتابة تاريخ « حسب المقاس » ، نقدر من نقدر ، ونذم من نذم بدون موضوعية .. وقد حاولت - ما أمكن - أن أتجنب تشخيص التاريخ أي حصره في أشخاص ، وإن أوردت بعض الأسماء لأشخاص ينتهون لتنظيمات وطنية ، أو يتزعمون تنظيمات وطنية ، وفي نظري أن هؤلاء الأشخاص ليسوا إلا بشراً .. اجتهدوا أحياناً وأصابوا .. واجتهدوا أحياناً وأخطأوا .. ويشفع لهم إخلاصهم وحبهم لأمتهم ووطنهم ، سواء أصابوا أو أخطأوا ..

نعم لقد اندسّت في صفوف الأحزاب والهيئات الوطنية عناصر انتهازية ، تسلّقت إلى كراسي المسؤولية بطرق ملتوية ، وحاولت أن تجرّ تنظيماتها إلى انحراف خطير .. غير أن الروح الوطنية المتكئة في النفوس كانت يقظة !. ولم يسعني في خلال أحاديثي هذه إلا أن أشيد بهذه الروح الوطنية التي كانت تستمد قوتها من الإسلام والعربية

والجزائر ، وهي المباديء التي اعتنقها الشعب وآمن بها ، وتقبل التضحيات في سبيلها ، وأرغم بعض الأحزاب والزعامات على اعتناقها ، وخاض المعارك السياسية والمسلحة على هذه الأسس .. وبذلك تعتبر المقاومة الجزائرية مقاومة شعبية .. قد تبديء ببعض الأفراد ، أو بحزب ، إلا أنه لا يكتب لها البقاء ، إلا إذا التفّ حولها الشعب .. وقد كان الإقبال الشعبي على ثورة نوفمبر أهم رصيد تمتلكه الثورة ، خاصة وأن رواد الثورة اختاروا عنوانا يوحد ولا يفرّق ، وهو « جبهة التحرير الوطني » ، ووجهوا نداءهم الأول إلى الشعب بصفة عامة ، وإلى المناضلين بصفة خاصة .. وهؤلاء هم الذين كانوا بجانب الأمير عبد القادر ، وأحمد باي .. وكانوا في كل الظروف مستعدين لمواصلة مسيرة المقاومة الطويلة .. حتى النصر النهائي .. وقد مكّن الله الشعب الجزائري من النصر المبين بعد أن دفع الثمن غاليا .. فهو بالاستقلال جدير ، وبالحياة قمين .. وللحديث عن الثورة المظفرة مناسبة أخرى - إن شاء الله -

أوت 1985



The figure consists of two side-by-side line graphs. Both graphs have 'Rate of reaction' on the y-axis and 'Temperature' on the x-axis. The left graph shows a curve that starts at a low rate at low temperatures and rises very steeply as temperature increases, indicating a high activation energy. The right graph shows a similar curve, but it rises more gradually with temperature, indicating a lower activation energy.

المقاومة

المقاومة

1. Introduction
 2. Background
 3. Methodology
 4. Results
 5. Conclusion
 6. References
 7. Appendix
 8. Index
 9. Table of Contents
 10. Summary
 11. Abstract
 12. Keywords
 13. Subject
 14. Topic
 15. Field
 16. Area
 17. Discipline
 18. Branch
 19. Department
 20. Faculty
 21. School
 22. College
 23. University
 24. Institution
 25. Organization
 26. Company
 27. Enterprise
 28. Business
 29. Industry
 30. Market
 31. Sector
 32. Field
 33. Area
 34. Discipline
 35. Branch
 36. Department
 37. Faculty
 38. School
 39. College
 40. University
 41. Institution
 42. Organization
 43. Company
 44. Enterprise
 45. Business
 46. Industry
 47. Market
 48. Sector
 49. Field
 50. Area
 51. Discipline
 52. Branch
 53. Department
 54. Faculty
 55. School
 56. College
 57. University
 58. Institution
 59. Organization
 60. Company
 61. Enterprise
 62. Business
 63. Industry
 64. Market
 65. Sector
 66. Field
 67. Area
 68. Discipline
 69. Branch
 70. Department
 71. Faculty
 72. School
 73. College
 74. University
 75. Institution
 76. Organization
 77. Company
 78. Enterprise
 79. Business
 80. Industry
 81. Market
 82. Sector
 83. Field
 84. Area
 85. Discipline
 86. Branch
 87. Department
 88. Faculty
 89. School
 90. College
 91. University
 92. Institution
 93. Organization
 94. Company
 95. Enterprise
 96. Business
 97. Industry
 98. Market
 99. Sector
 100. Field
 101. Area
 102. Discipline
 103. Branch
 104. Department
 105. Faculty
 106. School
 107. College
 108. University
 109. Institution
 110. Organization
 111. Company
 112. Enterprise
 113. Business
 114. Industry
 115. Market
 116. Sector
 117. Field
 118. Area
 119. Discipline
 120. Branch
 121. Department
 122. Faculty
 123. School
 124. College
 125. University
 126. Institution
 127. Organization
 128. Company
 129. Enterprise
 130. Business
 131. Industry
 132. Market
 133. Sector
 134. Field
 135. Area
 136. Discipline
 137. Branch
 138. Department
 139. Faculty
 140. School
 141. College
 142. University
 143. Institution
 144. Organization
 145. Company
 146. Enterprise
 147. Business
 148. Industry
 149. Market
 150. Sector
 151. Field
 152. Area
 153. Discipline
 154. Branch
 155. Department
 156. Faculty
 157. School
 158. College
 159. University
 160. Institution
 161. Organization
 162. Company
 163. Enterprise
 164. Business
 165. Industry
 166. Market
 167. Sector
 168. Field
 169. Area
 170. Discipline
 171. Branch
 172. Department
 173. Faculty
 174. School
 175. College
 176. University
 177. Institution
 178. Organization
 179. Company
 180. Enterprise
 181. Business
 182. Industry
 183. Market
 184. Sector
 185. Field
 186. Area
 187. Discipline
 188. Branch
 189. Department
 190. Faculty
 191. School
 192. College
 193. University
 194. Institution
 195. Organization
 196. Company
 197. Enterprise
 198. Business
 199. Industry
 200. Market
 201. Sector
 202. Field
 203. Area
 204. Discipline
 205. Branch
 206. Department
 207. Faculty
 208. School
 209. College
 210. University
 211. Institution
 212. Organization
 213. Company
 214. Enterprise
 215. Business
 216. Industry
 217. Market
 218. Sector
 219. Field
 220. Area
 221. Discipline
 222. Branch
 223. Department
 224. Faculty
 225. School
 226. College
 227. University
 228. Institution
 229. Organization
 230. Company
 231. Enterprise
 232. Business
 233. Industry
 234. Market
 235. Sector
 236. Field
 237. Area
 238. Discipline
 239. Branch
 240. Department
 241. Faculty
 242. School
 243. College
 244. University
 245. Institution
 246. Organization
 247. Company
 248. Enterprise
 249. Business
 250. Industry
 251. Market
 252. Sector
 253. Field
 254. Area
 255. Discipline
 256. Branch
 257. Department
 258. Faculty
 259. School
 260. College
 261. University
 262.

المقاومة وأشكالها

المقاومة هي رد الفعل ، ومواجهة العناصر الدخيلة ، ورفض تقبلها ، والتصدي للاعتدآت التي تقع من طرف أي أجنبي . وما دام الجزائريون لم يتقبلوا الأمر الواقع ، فهم من عام 1830 حتى عام 1962 في مقاومة .. عرفت بنبلتها وإصرارها وروحها الوطنية طوال القرن والثلث من الوجود الفرنسي ، اتّسمت بالرفض المطلق للوجود الاستعماري ، ولحاولات فرضه بشق المناورات ، والأساليب ، والإغراءات .. واتخذ هذا الرفض في بعض الأحيان مظهر التحدي المتصلّب لكلّ انقرارات والاجراءات الاستعمارية ، سواء كانت قانونية أو إدارية أو عسكرية ، بل حتى لو كانت حضارية ثقافية .

من المعلوم أن الجزائري قاومت كل دخيل ، ولم يستطع أيّ من الدخلاء أن يثبت أقدامه ، ويفرض وجوده بقوته العسكرية ، إلا أن مقاومتها للاحتلال الفرنسي كانت أشدّ وأشرس ، وأطول وأعنف ، وذلك لأنّ الفرنسيين لم يتوقفوا في احتلالهم عند حد معين ، ولم يقتصروا في أطماعهم على جانب واحد ، واستعملوا في تحقيق مطامعهم ومطامعهم الاستعمارية الاستيطانية وسائل وحشية ، كانت لها انعكاساتها على نفسيات الجزائريين ، ممّا أضفى على المقاومة أحيانا حدة تساوي وتضاهي حدة قادة الاحتلال ، واستمرت متسلسلة تسلسل مشاريع الاستيطان .. إذ كلما قررت الإدارة الفرنسية مشروعاً ، إلا وتصدّى له الجزائريون بمشروع مضاد ، وكلما قامت بعمل ما ، تحدّتها بموقف معاكس ، واستعملوا في ذلك نوعين من المقاومة :

1 - المقاومة الإيجابية : فحاضوا المعارك المسلحة منذ 1830 حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم اتجهوا إلى استعمال السلاح السياسي ، وخاضوا به المعارك السياسية ، والدينية ، والثقافية .

2 - المقاومة السلبية : إذ قاطعوا المشاريع التي اشتبوا منها أنها وُضعت بهدف القضاء على الكيان الجزائري ومقوماته ، أو بهدف تشويهه وتحريفه ، حتى أنهم رفضوا التحضر والحضارة ، لأنها في نظرهم مرحلة من مراحل الابتلاع والاندماج ، وقاطعوا اللغة الفرنسية ، لأنها لغة ، ولكن لأن المحتل ينوي من وراء استخدامها ونشرها القضاء على الثقافة الأصلية ، واللغة الوطنية ، وكونوا لأنفسهم مساجدهم ، وأنشأوا مدارسهم وفرّقهم الرياضية والفنية محافظة على شخصيتهم الجزائرية ، وشنعوا بالعادات والتقاليد ، وأنواع السلوك التي حاول الفرنسيون غرسها في الأوساط .

لهذا ، لم تخل فترة من فترات التاريخ الجزائري المعاصر من مقاومة مسلحة ، أو انتفاضة في منطقة من مناطق البلاد ، أو من نضال سياسي ، وديني ، وثقافي ، مما أخرج الإدارة الاستعمارية ، وأربك مخططاتها ، وقامت نتيجة ذلك الإحراج - مع قلة التبصر - ، بأعمال قمع فظيعة ، أدت إلى إبادة قبائل بأكملها ، وإلى حرق مداشر بما فيها ومن فيها ، وإلى الاستحواذ على الأراضي والممتلكات وتوزيعها على المعمّرين القادمين من مختلف أنحاء أوروبا ، وأدت أيضا إلى وضع قوانين خاصة بالسكان تُشرّع الاعتداء ، والاضطهاد ، والاعتصاب ، وتزوير الانتخابات ، والحيلولة دون تمثيل السكان على جميع المستويات ، وفي كل المجالس ، والهدف من ذلك كُله إضعاف الروح الوطنية لدى السكان ، وتشجيع الجنود الفرنسيين والعناصر الغازية على الاستيطان .. وإلى جانب هذا ، قامت الإدارة الفرنسية باستخدام وسائل الإغراء ، ببذل الأموال على من تلمّست فيهم استعداداً للخيانة والتعاون ، وبعرض

المناصب والمراكز العالية عليهم ، وبمنحهم ألقاباً فخمة ، ونياشين متنوعة .. إلا أن النتيجة لم تكن كما كانت السياسة الفرنسية تتوقعها ، إذ تراجعت بعض هذه العناصر ، واستيقظت .. وتخلّت عن معسكر التواطؤ مع جيش الاحتلال وإدارته ، إلى معسكر المقاومة في كثير من الأوقات ، لأن الذين استمروا في التواطؤ لم يلقوا أيّ ترحيب أو ارتياح من طرف المواطنين الذين اعتبروهم دائماً خونة ، جديرين بالاحتقار والمقت .

وبمراجعة سجل الكفاح الذي خاضه الشعب الجزائري ، نلاحظ أنّ هذا الكفاح مرّ بمراحل :

أولاً : مرحلة المقاومة (Résistance) ، وهي المرحلة الأولى التي تصدّى فيها الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي منذ الساعة الأولى التي تواجدت فيها وحدات الجيش الفرنسي على شاطيء سيدي فرج عام 1830 ، وأبرز الذين حملوا لواء المقاومة الأمير عبد القادر بغرب البلاد منذ عام 1833 حتّى عام 1847 ، والباي أحمد باي بشرق البلاد منذ عام 1830 إلى عام 1848 .

ثانياً : مرحلة الانتفاضات : (Soulèvement) ، وقد امتدّت من عام 1848 حتى عام 1916 بقيام الحرب العالمية الأولى ، وشملت كل أنحاء البلاد ، وقادها العديد من رؤساء القبائل ، ومشائخ الزوايا ، ولم يكتب لها النجاح لافتقارها إلى التنظيم ، والتعبئة العامة ، وإلى تحديد الهدف من القيام بها .

ثالثاً : النضال السياسي : (La lutte politique) وغطّت فترة ما بين عامي 1919 - 1954 افتتحها الأمير خالد بنخوضه معارك الانتخابات ، وعقده لاجتماعات ، وتقديمه لعرائض ولوائح ومطالب انتهت بنفيه من البلاد . تلاه ظهور الأحزاب السياسية ، والهيئات

الدينية ، والجمعيات الثقافية والرياضية ، وعلى رأس الأحزاب وهيئات الشهيرة : نجم شمال إفريقيا الذي تحول إلى حزب الشعب الجزائري ثم إلى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية . وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، والحزب الشيوعي الجزائري ، وحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري .

وفي هذه الفترة ظهرت الصحافة الجزائرية ، واشترك الجزائريون في الانتخابات للمجالس ، وتأسست النوادي والمدارس الحرة ، وعُقدت المؤتمرات ، ووقفت بعض الأحداث التي كانت لها انعكاساتها على الحياة الجزائرية ، وعلى تطورات الأوضاع السياسية خاصة منها ما تعلّق بالإعداد والتعبئة لثورة نوفمبر عام 1954 .. وخلال هذه الفترة أيضا عرفت الجزائر قوانين الأنديجينا ، ومحاولات التجنيس ، ومساعي التبشير المسيحي ، والاحتمالات بمرور القرن على الاحتلال ، وعاشت قمع العناصر الوطنية الجزائرية بالنفي والسجن والإعدام ، وتزييف الانتخابات .

كما برزت خلالها شعارات : المطالب الجزائرية . الإصلاحات . الاندماج . المساواة . الأمة الجزائرية . الاستقلال . البرلمان الجزائري . السيادة الوطنية .

رابعاً : الثورة : (La révolution) وتمتاز بوضوح أهدافها ، والتفاف الجماهير حولها ، وتعميها في كامل القطر ، وصمودها في سبيل تحقيق الأهداف المسطرة من البداية : الاستقلال . السيادة . وحدة التراب .. ولهذا تعتبر ثورة نوفمبر 1954 تنويجا للمقاومة الشعبية الطويلة .

الاحتلال

الاحتلال

هل كان في نية فرنسا احتلال الجزائر أم لا ؟

إن الذي يراجع كتب المؤرخين الفرنسيين ، ويراجع المذكرات التي كتبها الضباط الفرنسيون الذين اشتركوا في عمليات الاحتلال الأولى ، يلاحظ تناقضات بين تصريحات رجال الحكومة الفرنسية من ناحية ، وتصريحات الضباط العسكريين من ناحية أخرى ، وبين التصريحات وواقع عدوان الجيش الفرنسي ، وهذا العدوان يؤكد بأن نية العدوان قائمة من زمن ، وبأن الرغبة في احتلال الجزائر ليست رغبة طارئة .. وليست قضية « المروحة » أو موضوع « القرصنة » إلا تعلة وسببا .

فما هي الدوافع والأسباب إذن ؟

أولا : لقد كانت فرنسا مهتمة بالقطر الجزائري اهتماماً خاصاً ، يبدو ذلك في كتابات وأحاديث بعض الأوساط الفرنسية في مجامعهم الخاصة .. ويبدو في المساومات التي قامت بها فرنسا قبل الاحتلال مع بعض الدايات والبايات ، عساها تتحصل على امتيازات خاصة بها على الشريط الساحلي للقالا وعنابة حتى سكيكدة ، بل قامت بعمليات تسليل بعض العناصر إلى الشواطئ البحرية لهاته المدن الساحلية بغرض التجسس ، والتعرف على المنطقة .

ثانيا : لقد كانت المنطقة كلها ، بما في ذلك المغرب وتونس محل أطماع الدول الأوروبية التي تفتحت شهيتها في ذلك العهد للتوسع

وتكوين الامبراطوريات ، لاسيما بعد أن بدأ الضعف يتسرّب إلى الخلافة العثمانية ، وتقلّصت رُقعتها ، ولم تعد ذات وزن أو نفوذ في العالمين الشرقي والغربي .

ثالثا : موقف الجزائر وأسطولها البحري في الدفاع وحماية المسلمين .. فقد ساهم في السابق في إنقاذ المسلمين المضطهدين بأسبانيا ، وها هو يُساهم في إنقاذ الخلافة العثمانية بعد أن تألّبت ضدها الدول الأوروبية .. فاستغلّت فرنسا تواجد الأسطول الجزائري في حالة الدفاع عن تركيا بعيدا عن شواطئه ، وسواحل الجزائر ، وقد أكّد المؤرخ هانري تشاو هذه الحقيقة بقوله : « إن الحكومة الفرنسية أرادت أن تنتهز فرصة انشغال أحسن الوحدات من الأسطول الجزائري في الشرق ، وأن تخلّق مُبرّرا لتدخلها العسكري ، فأرسلت تعليمات خاصة إلى قنصلها في الجزائر ، وأمرته أن يفتنم فرصة قد تسنح لإساءة العلاقات مع حكومة الداى » .

رابعا : ظهور التنافس الاستعماري الاقتصادي بين فرنسا وإنجلترا إذ كانت كل منهما تُحاول التوسّع وتَمديد رقعة سيطرتها وتجارتها ، باحتلالها لمناطق وأخرى تَمكّنها من الاستيلاء على ثروات الأقطار المحتلة ، وعلى تحسين أوضاعها الاقتصادية على حساب الشعوب المستعمرة ، كما عبّر عن ذلك الجنرال جيرارفورد بمناسبة نزول الجيوش الفرنسية بالساحل الجزائري إذ قال : « إن هذا الاحتلال يَسْتند إلى ضرورات هامة جدا ، ويرمي إلى فتح منفذٍ واسع لتصريف بضائعنا » (أحمد الخطيب . الثورة الجزائرية . ص 39) .

خامسا : أقرضت الجزائر فرنسا عام 1797 ديونا بدون فوائد ، تراكمت عليها بسبب تزويد الجزائر لها بالحبوب من قُح وشعير لمواجهة المجاعة التي عانت منها فرنسا مرارا ، إلا أن هذه تماطلت في تسديد

الديون ، وراوَعَتْ متنصّلة من مسؤوليتها بتحميلها للتاجرين اليهوديين الوسيطين ، وكانتُ تتقدم في كل مرة بأعذارٍ واهية ، أدّت في النهاية إلى استياء الداي حسين باشا من المماطلة المستمرة ، ومن اللامبالاة واستخفاف ممثل فرنسا بالجزائر .

سادسا : تدهور الوضع الداخلي بفرنسا تدهورا أثار نقمة الشعب الفرنسي ضد الملك شارل العاشر ، ولم يجد هذا منفذا لتصريف النقمة الشعبية أحسن من صرف الاهتمام إلى خارج البلاد ، وإلهاء الشعب بمشروع احتلال الجزائر الإقليم الغني ، لفائدة فرنسا ، وتحسين اقتصادها ، وأيضا لصالح المسيحية الناقمة على القوة البحرية الإسلامية المتبقية في البحر الأبيض المتوسط .

سابعا : أن فرنسا في ذلك العهد لم تتقبّل أبدا أن تسبقها دولة أخرى في أوروبا ، في التخلص من هيمنة القوات البحرية الجزائرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، خاصة وأن الدول الأوروبية كانت تُجري مشاورات فيما بينها ، بلَغَتْ في بعض الأوقات إلى عقد اتفاقات للحدّ من « قرصنة البحرية الجزائرية » : « في هذه الأثناء كانت الدول الأوروبية مجتمعة في مؤتمر فيينا ، فاستغل ممثل بريطانيا هذا الهجوم لإثارة الدول الأوروبية ضد الجزائر ، وقرّر مؤتمر فيينا بالفعل وضع حدّ نهائي لتصرفات القراصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولاسترقاق المسيحيين » (مبارك بن محمد الهلالي الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج 3 . ص 262) .

ذلك لأنّ البحرية الجزائرية استطاعتُ أن تردّ بجزم على القرصنة الأوروبية ، جعل الدول الأوروبية ترهبُ جانبها ، كما استطاعتُ أن تساعد دول البحر الأبيض المتوسط الإسلامية في أوقات المحن .. أيضا قامتُ بعملية حضارية إنسانية نبيلة حين تولّت إنقاذ المسلمين

المضطهدين من طرف الإسبانيين ومن محاكم التفتيش التي نصبوها .. كل هذا جعل الفرنسيين يستعملون في تصريحاتهم ذريعة « الدين » لتصفية حساباتهم مع الجزائر ، وتحقيق رغبتهم في احتلالها ، وتأديب الداي ، وتحطيم البحرية الجزائرية .

ظهرت نوايا فرنسا منذ الشروع في الاستعداد لغزو الجزائر عام 1827 ، ولو أن التفكير في ذلك ظهر من فترة طويلة ، « والملاحظ أن القنصل الفرنسي كيريسي ، بدأ يفكر في ضبط مشروع لاحتلال الجزائر منذ عام 1782 ، وظل يفكر في ذلك طيلة تسع سنوات ، إلى أن قدم مذكرته هذه إلى الخارجية الفرنسية في عام 1791 ، وقد حدد في هذا المشروع حق النقطة التي يتسرب منها الفرنسيون إلى برّ الجزائر » (مبارك الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج 3 . ص 276) .

كتب وزير الخارجية تاليران إلى القنصل الفرنسي طارحاً عليه بعض الأسئلة ويرجوه الجواب عنها ، وهي :

« أولاً : ما هي تعزيزات الجزائر من ناحية البحر ؟
ثانياً : لو كنّا في حرب مع الجزائريين ، فما هي التدابير التي يجب اتخاذها لعدم إلحاق الضرر بنا ؟

ثالثاً : ما هي الوحدات البحرية التي يجب إعدادها ؟
رابعاً : ما هي التدابير اللازمة لإلحاق أكبر نسبة ممكنة من الضرر بهم بواسطة الوسائل البحرية وحدها ؟

خامساً : في حالة ما إذا قرّرنا عند نشوب الحرب مع الجزائر استعمال جيش بري ضدّ هذه النياية ، فكيف يكون تشكيله ، وما هي القوة التي ينبغي أن يكون عليها ؟

- سادسا : كيف تنزل هذه القوة إلى البر ، وفي أيّ مكان ؟
- سابعا : ما هي الخطة الواجب اتباعها للاستيلاء على الجزائر ؟
- ثامنا : ما هي قوة جيش الداى ؟ وما هو تركيبها ؟
- تاسعا : من هم سكان النيابة ؟ ومن هم سكان مدينة الجزائر ؟
- عاشرا : فيما إذا حوصرت مدينة الجزائر وقاومتْ فإنّ أين يُمكن للجيش أن يجلبَ الماء والقمح واللحوم والخشب ؟ ما هي القرى التي يُمكن أن تُموّن الجيش ، وما هو عددها ؟
- حادي عشر : هل هناك رَحَوَات تسيّرُ بالماء في ضواحي الجزائر ، وأخرى يُسيّرُها الريح ؟
- ثاني عشر : هل يوجدُ الخشبُ والأعشاب للطبخ وللمهام الأخرى ؟
- ثالث عشر : وصف محلي للمنطقة على امتداد ثمانية عشر ميلاً في كل الاتجاهات ؟
- رابع عشر : فيما إذا كُنّا نريدُ عِوض مهاجرة مدينة الجزائر إلحاق أكبر نسبةٍ مُمكنةٍ من الضرر بالداى ، وفيما إذا أردنا تخريبَ بعض ولاياته أو بعض مدّنه في نفس الوقت الذي تنظم فيه - بحرا - حربٌ لا هوادة فيها ضده ، فما هي العمليّات الثانوية التي يُمكن تنظيمها ؟
- خامس عشر : ما هي عقلية الداى الحالي ؟
- سادس عشر : ما هو تفكير رجال الدين الذين يحيطون به ويؤثرون عليه ؟
- سابع عشر : أية صورة يحملها عن قوة فرنسا ؟
- ثامن عشر : إلى أيّ حدّ يُمكن أن يؤثّر فيه التهديد بإعلان الحرب من طرفنا ؟ » (مبارك الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج 3 . ص 279) .

وهي أسئلة - كما تبدو - مضبوطة ، واضحة النوايا ، والأهداف .

ومما يؤكدُ بأن نيةَ العدوان كانتُ مبيّنةً ، هو أن فرنسا بعثت بالضابط بوتان (Boutin) من سلاح المهندسين عام 1808 ، حيثُ تمكّن هذا من التسلّل إلى الجزائر متنكراً في زيٍّ مدنيٍّ ، استطاع أن يتجول في عدّة جهات من القطر ، قام خلالها بدراسة المواقع الاستراتيجية الجزائرية ، وتعرّف على وسائل الدفاع الجزائرية ، والأماكن الحصينة بالبلاد ، وهو « الذي حدّد ثغر سيدي فرج كأفضل موقع لإنزال الوحدات الفرنسية التي تقوم بالاحتلال ، واعتمد في تقريره بعد ذلك باثنين وعشرين عاماً » . (كلود مارتان Claude Martin) . تاريخ الجزائر الفرنسية . ج 1 . ص 67) .

من هنا ندرك بأن قصة المروحة أُنخذت ذريعةً ومبرراً من طرف فرنسا ، خاصّةً وأنها لا تجهلُ تورطَ قنصلها دوفال (Le Cansul Déval) في قضايا مالية ، ورشاوي متنوعة : « هذا الدبلوماسي لا يتمتع بسعة حسنة » (كلود مارتان Claude Martin) . تاريخ الجزائر الفرنسية . ج 1 . ص 66) .

لقد كانت فرنسا قبل عام 1830 من انشط البلدان الأوروبية سعياً لتشويه سمعة الجزائر ، باعتبار القوة البحرية الجزائرية قرصنةً يجب التصديّ لها وتحطيمها .. حتى أنها لجأت عدة مرات إلى تهديد الدّاي ، ومحاصرة البلاد بحرياً .. ولم تقصّر في تأليب الرأي العام الأوروبي والمسيحي ضد الجزائر ، وعملت على تحريض بايات تونس ، وحثّ محمد علي باشا مصر على احتلال الجزائر .

إذن ، فالتفكير والتخطيط للغزو قديم « منذ بداية القرن الثامن عشر ، ومشروع الاحتلال أعيدَ حسب خطط متدرّجة ، ولم تسمح الظروف بتنفيذها إلا عام 1830 ، غير أن المسؤولين الفرنسيين لم يعلنوا في تصريحاتهم عن النوايا الحقيقية لاحتلال البلاد أو التوغل فيها ، مخافة

أن يؤلبوا ضدهم الدول الأوروبية الأخرى المنافسة لها ، أو التي لها مصالح في المنطقة ، وتخوفاً من عواقب التوغل في أرض مجهولة لديهم من ناحية ، ومعروفة من ناحية أخرى بمقاومتها منذ العصور القديمة ، بحكم تعرضها لهجمات وحملات كثيرة من دول أجنبية ، وقد يتم احتلال بعض المدن الساحلية ، إلا أن الاحتلال الكامل لا يتم ، والمقاومة الداخلية تُفسد دائماً مخططات الغزاة .

لهذا كان التردد والغموض واضطراب الرأي السمة المميّزة للسياسة الفرنسية منذ نزول قواتها في سيدي فرج حتى 22 يوليو 1834 . فخلال عام 1833 كلّفت لجنة فرنسية « بالإجابة عن الأسئلة التالية » :

- (1) هل يجب الاحتفاظ بالأراضي المحتلة ؟
 - (2) إذا كان الاحتلال مفيداً ، فما هو النظام الذي ينبغي اعتماده ؟
 - (3) هل يجب الاقتصاد على إخضاع الأهالي ؟
 - (4) هل يجب تدعيم الاحتلال بالاستعمار ؟
 - (5) ما هو أكثر النظم الإدارية ملاءمة ؟
 - (6) ما هي الحالة العامة في هذه البلاد من جميع النواحي ؟ «
- (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 79)

وبالتأمل في التقرير الذي أعدته اللجنة العليا التي أنشئت بمرسوم ملكي في 12 ديسمبر 1833 يبدو أن اللجنة استعملت كلمة « مؤقتاً » في قضية الاحتلال العسكري بإيرادها الفقرة التالية : « 2 - لكي تحتفظ فرنسا بحقها في السيادة على جميع الأراضي الجزائرية ، من الملائم أن تقتصر مؤقتاً على الاحتلال العسكري لمدينتي الجزائر وعنابة اللتين تقام تحصينات للدفاع عنها ، وكذلك مدينة بجاية ، ومدينة وهران « (المرجع السابق ص 80) .

إذ أنه بالرغم مما يبدو من تردد ، فإن كلمة « مؤقتا » تدلُّ على أن نية « مؤبداً » واردة في الذهن الفرنسي .

نعم ، هناك ترددٌ كان الفرنسيون يتخبطون فيه ، سواء على مستوى الحكومة ، أو مستوى البرلمان ، وخاصة بعد التحقيقات التي قامت بها اللجان الموفدة ، فقد كتبت إحدى اللجان في تقريرها : « كنا نعتقد أننا جئنا إلى هؤلاء البرُبر بحاسن المدنية ، والحال أنه ظهر على أيدينا ما يُشين » « إن مبادئ الاحتلال الفرنسي بالجزائر كانت مرتكزة على ما يخالف العقل ، ويُناقض القانون ، ويُهاجم حقوق الانسانية » .

(من تقرير اللجنة التي زارت الجزائر يوم 7 جوليت 1833) كما ندّد وشهر بعض النواب الفرنسيين في برلمانهم بالوحشية التي ارتكبتها الجيش الفرنسي ، ومنهم النائب دوصاد الذي قال : « هدمنا بعاصمة الجزائر تسعمائة دار من غير غناية أهلها وإعلامهم ، ومن غير دفع تعويض لهم على ذلك ، واستحوذنا على ستين مسجدا جامعاً ، استعملناها كلها لحركة جيش الاحتلال الفرنسي ، وهدمنا منها عشرة ، يعني في تلك السنة ، أما بعد ذلك فلا تسأل !. وانتهكنا حرمة المقابر بنبشها ، وبغزتها » كما صرّح فايطان دولار وشفوكولد في نفس البرلمان : « كانت مدينة وهران متماسكة العمارة ، بها بنايات وقصور عظيمة ، فلما احتلها الفرنسيون أصبحت خراباً بلقعا بسبب أعمالهم الوحشية التي فاقت خراب الزلزال الهائل الذي أعقبه جلاء الإسبان عنها » « إن الفرنسيين أحرقوا بوهران من شجر الزيتون عددا وافرا بلغ مآت الآلاف من الأشجار عدا غيرها » .



المرحلة الأولى

الأمير
عبد القادر

الأمير عبد القادر

بعد سقوط الجزائر ، عاصمة البلاد في أيدي الجيش الفرنسي خيّل للدولة الفرنسية أن بقية المدن الجزائرية ستسقط كأوراق الخريف بمجرد أن تهبّ عليها رياح الموسم ، إلا أن المقاومة التي أبدتها سكان متيجة جعلتها تراجع حساباتها ، فلجأت إلى المراوغة والتظاهر بأنها لا تريد من وراء غزوها العسكريّ التآديبي احتلال البلاد أو التمرّكز فيها ، ودعّمت تظاهرها هذا بعرض الإقليمين القسنطيني والوهراني على باي تونس ، وأجرت اتصالات به ، لم تسفر عن نتيجة ، لتردّد هذا من ناحية ، ولاعتراض بعض المسؤولين الفرنسيين على الفكرة .. وهذه المناورات والمراوغات نبّهت سكان كل من قسنطينة وهران ، ولذلك أخذوا احتياطاتهم حتّى لا يؤخذوا على غرة ، أو حتى لا يحدث لهم ما حدث لسكان العاصمة ، فاستعدّوا للمقاومة بما يمتلكونه من روح وطنية عالية ، لم يحسب لها الفرنسيون حسابا ، حين راحوا يهاجمون مدينة قسنطينة على أمل أنّهم يقومون بنزهة ، وراحوا يغزون وهران على أساس أنها منطقة منهكة من جراء تصديها للغارات الإسبانية ، ولم يدركوا بأن الروح الوطنية طاقة لا تعرف العياء ولا الملل ، وإنما تحتاج من حين لحين إلى التعبئة والتنظيم ، وهران في مثل هذه الظروف في حاجة إلى زعيم يقودها ، ويُنظم مقاومتها ، وجدت رغبته في شخص محي الدين الذي اشتهر بسمعه الحسنة في قريته القيطنة القريبة من مدينة معسكر ، وفي كل إقليم وهران ، وتولّى في مناسبات عدّة فضّ النزاعات بين القبائل ، وتوسّط لدى باي وهران في قضايا تهم الرعية ،

وإن كان هو نفسه عانى من تعسفِ الباي التركي حسن .. أيضا لم يتوان منذ حلول الفرنسيين بمدينة وهران في تنظيم هجمات من وقتٍ لآخر ، وفي محاصرة المدينة ، وكاد في فترةٍ ما أن يؤتي حصاره ثماره ، لولا خذلان الخونة له !.

وبما أنه الشخص الجدير بالثقة والتقدير ، فقد اتجهت نحوه الانظار ، وتعلقت به الآمال ، واتفقت حول صلاحه ومقدرته - على تحمل مسؤولية الجهاد - كلمة العلماء والأعيان ، ولذلك بادر هؤلاء بالتوجه إليه يعرضون عليه الإمارة التي لا يستطيع رفضها في مثل الظروف التي تجتازها البلاد ، غير أن سنة لا تسمح له بذلك رغم نشاطه ، وهمة ، ورغبته في مواصلة الجهاد ، فأشار على مجموعة العلماء والأعيان بابنه عبد القادر الذي يتحلّى بصفات القائد ، من أهلية وكفاءة وأخلاق .. وحظي اقتراحه بالرضا من طرف الحاضرين . وقد وصف هذه الحادثة محمود بن حوّا المجاهري : « لما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط استولى العدو على مدينة الجزائر ومدينة وهران ، وطمحت نفسه العاتية إلى الاستيلاء على السهول والجبال ، والنفادف والتلال ، وصار الناس في هرج ومرج ، وحيص بيص ، قام من وفقهم الله الهداية من رؤساء القبائل وكبرائها ، وصناديدها وزعمائها ، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة ، فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر ، والكمال الباهر ، ابن مولانا السيد محيي الدين ، فبايعوه على كتاب الله العظيم ، وسنة نبيه الكريم » .

وقد تمت بيعه عبد القادر أميراً ، وحامل لواء الجهاد ، من طرف القبائل على هذه الصيغة : « ... بايعناه على السمع والطاعة ، وامتنال الأوامر ، ولو في الواحد منا أو في نفسه ، وقدّمنا نفسه على أنفسنا ، وحقه على حقوقنا » .

ما إن انتصب عبد القادر أميرا ، حتى بادر بتنظيم أمور الدولة ، فأسس مجلسا للوزراء ، ومجلسا للشورى ، وشرع في تكوين جيش وطني ، وفي إنشاء المؤسسات ، وفي وضع قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية ، وسك عملة باسمه ، وقسم البلاد إلى ولايات ، ونصب على رأس كل ولاية خليفة ، كما حدد الأهداف من المقاومة ، ومن تأسيس الدولة ، وحصرها في :

- (1) نشر الأمن ، وتأديب الخونة العصاة .
- (2) توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد .
- (3) مقاومة الفرنسيين بكل الوسائل .
- (4) دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة ، وبعبد القادر أميرا للبلاد .

وفي رسالته التي وجهها إلى القبائل يدعوها إلى مبايعته ، ويحدد الخطوط الرئيسية التي يعتزم الالتزام بها ، جاء فيها بعد أن استعرض القبائل التي بايعته ! « قد وافقوا (أي القبائل) بالإجماع على تعييني ، وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا ، وقد تعهدوا أن يطيعوني في السراء والضراء ، وفي الرضا والشدة ، وأن يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة .

» ومن أجل ذلك ، إذن تولينا هذه المسؤولية الهامة (على مضض شديد) آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ، ومنع الفرقة بينهم ، وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد ، ووقف كل الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين ، وصد وطرده العدو الذي اعتدى على بلادنا يريد أن يغل أعناقنا بقيوده .

ولقبول هذه المسؤولية ، اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا ، أن عليهم دائما واجب الخضوع في كل أعمالهم إلى

نصوص وتعاليم كتاب الله ، وإلى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم ، طبقاً لسنة النبي ، وأن يعاملوا القوي والضعيف ، النبيل والمحترم ، باخلاص ودون محاباة ، وقد قبلوا هذا الشرط .. إن هدي في الأساسي هو الإصلاح وفعل الخير ما دمت حياً ، إن ثقني في الله ، ومنه أرجو الجزاء والنجاح » (شارل هنري تشوشل . حياة الأمير عبد القادر . ترجمة د . أبو القاسم سعد الله . ص 60) .

وقد تمكّن فعلاً من نشر الأمن في ربوع البلاد بمعاينة المجرمين والعصاة ، وتكوين محاكم قضائية ، وقام بتأديب الخونة الذين تعاونوا مع الجيش الفرنسي ، واستطاع توحيد القبائل المشتتة ، واعتنى بصفة خاصة بالخروج من دائرة التطوع الفوضوي ، إلى دائرة التجنيد المنظم ، وهي عملية ليست باليسيرة في ذلك العهد ، كما تحدّث عنها شارل هنري تشرشل حين قال : « وكانت قوات عبد القادر غير النظامية ، خلال الفترة الأولى من عمله ، قد بلغت حوالي 60000 جندي ، وكان هذا العدد يشمل جميع الوحدات التي كانت القبائل تُمدّه في حالة الطوارئ ، ولكن من النادر أن اجتمع ثلث ذلك العدد في وقت واحد بغرض القيام بحملة عسكرية ، أما الفرسان غير النظاميين الأكثر تفوقاً ، فلم يتوفّروا لديه .

ولكن عبد القادر سرعان ما اكتشف عدم كفاءة هؤلاء المحاربين ، أمام جيش منضبط لدولة عسكرية كبرى ، كان عليه أن يواجهها ، وتجنيد جيش نظامي من بين شعب لم يعرف التجنيد الإجباري حتى أيام الحكم التركي ، شعب تشور طبيعته حتى من مجرد فكرة التجنيد الإجباري ، هو تجربة خطيرة تحتاج إلى حنكة ، وحذر كبير ، وإن خطة من هذا النوع لا يُمكن إعلانها في شكل أمر صريح ، ولكن فقط في شكل اقتراح وتليح » (شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر . ترجمة د . أبو القاسم سعد الله ص 140) .

وبذلك يعتبر الأمير عبد القادر أول من كوّن جيشاً وطنياً منظماً وموحّداً ، بناه من العدم ، وهيباً له الوسائل ، وأنشأ له مصانع تنتج الأسلحة الملائمة ، مستعيناً بخبرة الإسبانيين والفرنسيين وغيرهم ، واختار لهذه المصانع المواقع الاستراتيجية الحصينة ، كاختياره للميانة التي بنى بإحدى ضواحيها مصنعاً هاماً لصنع الأسلحة والذخيرة الحربية نظراً لما تتمتع به هذه المدينة وضواحيها من موقع حصين ، ومن توفر المناجم المعدنية بها ، بالإضافة إلى صلابة سكّانها ، وبلائهم في الجهاد ، والدفاع عن الوطن .. وإلى جانب هذا اهتمّ بتعليم الصغار ، وتوجيه الكبار عن طريق دروس الوعظ والإرشاد ، بإنشاء المدارس المتنقلة ، والمكتبات ، والمساجد ، والمستشفيات .

وقد امتاز الأمير بكونه الشخص الدؤوب الذي لا يضيع فرصة أو مناسبة . كان يستغل الاتفاقيات التي يّعقدها مع الفرنسيين في دعم الاستعداد العسكري ، والتنظيم الإداري ، وبناء الدولة ، على أسس وطنية ، تختلف عن الإدارة العثمانية ، كما وصف ذلك شارل هنري تشرشل في كتابه السابق ص 23 بقوله : « ولعل النظام الإداري التصاعدي الذي سنّه ضارباً صفحاً عن النظام الإداري العثماني الذي كان قبله ، يكشف عن تفهمه لحاجة قومه لنظام يكفل لهم الارتقاء من عهد الإقطاع والقبيلة ، إلى عهد التعايش الاجتماعي ، والالتزام نحو بعضهم ونحو الدولة » .

وقمتاز مقاومة الأمير عبد القادر بمفهومها الواسع ، وأبعادها المستقبلية ، لأنها لم تقتصر على تعبئة المواطنين لردّ العدوان ، أو للقيام بمناوشات هنا وهناك ضد العدو ، بل وسّع مجالات المقاومة ، واعتبر كل مجال جزءاً من المقاومة ، وحلقة أساسية فيها ، ومن هذه المجالات : الإدارة . الثقافة . التكوين العقائدي والعسكري ، الصحة . الاقتصاد .

الخ .. وبذلك عرفت الجزائر في شخصه مقاوما عنيدا ، ومحاربا شها ،
ودبلوماسيا محنكا ، ومثقفا غزير المعارف ، ومنظما بارعا .

ومن الصعب التطرق إلى كل جوانب العظمة لدى الأمير . وإنما
نكتفي هنا بالجانب الذي اشتهر به ، وبرز فيه ، وهو جانب الجهاد
الذي أبلى فيه البلاء الحسن ، لأن الجزائريين لم يبايعوه لانتسابه إلى
أسرة معروفة ، أو لثقافته الواسعة ، أو من أجل أن يكون دولة ،
وينظم إدارة ، وينشيء جيشا ، بقدر ما اختاروه وبايعوه من أجل
الجهاد .. ومقدرته في ميدان الجهاد .. المقاومة هي التي تدعم مركزه
لدى الجماهير ، وعجزه في القيام بها يضعف جانبه ، وقد شعر الأمير
بهذا ، فلم يتأخر - وهو يبني الدولة ، وينظم الإدارة - في القيام
بالمهجات ضد الفرنسيين ، ومواجهتهم بين الحين والآخر ، وإن كان غير
واثق من جيشه الذي يتكون من فلاحين متطوعين ، يستجيبون لنداء
الجهاد في وقت الخطر ، وينصرفون لأشغالهم بانتهاء المعركة .

ومن أهم الميزات الخاصة بالأمير عبد القادر ، أنه المقاوم الوحيد منذ
الاحتلال حتى عام 1954 الذي ربط الجهاد ، وتحرير الأرض بمبدأين
ضحى في سبيلهما حتى النهاية وهما :

- وحدة التراب الوطني

- السيادة الوطنية الجزائرية .

في حين لم يتجاوز غيره من رجال المقاومة حدود القبيلة ،
والمنطقة ، ولهذا الغرض استخدم كل الوسائل ، واستعان بكل الإمكانيات
التي أتاحت له في تلك الظروف ، فتفاوض مع العدو ، ووقع المعاهدات
التي مكنته من استعادة الأنفاس ، وتنظيم الجيش ، وترسيخ المقاومة ،
ولأحق الخونة ، واستفتى العلماء ، ونبه الرأي العام العالمي ، وهكذا
أيضا استفاد من المعاهدة التي وقعها مع ديميشال وملك فرنسا ، والتي

اعتبرت اعترافا رسمياً به جرّ إلى اعتراف السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام به أيضا ، إلا أن هذه المعاهدة كانت محلّ نقاش لدى عدة أطراف في الأوساط الحاكمة الفرنسية ، وخاصة لدى البرلمان ، وضباط الجيش ، حيث كان البعض منهم لا ينظر إلى المعاهدة بعين الارتياح ، ويناور في الكواليس ، والمحافل ، في نطاق التحول الجديد في الرأي العام الفرنسي الذي بدأت رغبته تنزع نحو التوسع ، وهذا يقتضي التشدد مع الأمير ، والتعابث بفحوى البنود الواردة في المعاهدة ، والتشكك في رسمية التوقيعات .. ومن الذين نشطوا ضد المعاهدة ، وأبدوا معارضتهم لها الجنرال تريزل الذي كان يتحين الفرص ، ويتتبع تحركات الأمير .. وحين تصدى الأمير لموسى بن الحسين (أبي حمار) الذي هاجم مدينة المدية ، واستولى عليها ، مدعيا بأنه « المهدي » ، وبأن رصاص أي محارب ضده لا يؤثر فيه ، ولا في أتباعه ، هاجمه الأمير ، وحرّر مدينة المدية من شروره ، ثارت ثائرة تريزل ، واعتبر ذلك خرقا للمعاهدة ، وحاول دفع الوالي العام إلى اتّخاذ موقف عسكري يعلن فيه الحرب على الأمير ، ولما لم يجد تجاوبا من الوالي انقلب ضده يتحداه في الكثير من المناسبات ، ويُقرّر بنفسه ما ارتآه ، معتمدا في ذلك على توصية لجنة التحقيق التي تدعو إلى الاحتلال الدائم .

في مثل هذه الظروف ، وفي هذا الجوّ من التوتر الذي ساهم تريزل كثيرا في إيجاده ، قرّر هذا مهاجمة الأمير ، معتقدا بأن عبد القادر قد أنهكه التصدي لخianات بعض العشائر والزعماء .. اختار تريزل منطقة سيق كمكان لمواجهة الأمير ، وهي منطقة يعرفها الأمير وجنّده معرفة جيدة ، وهذا ما دفعه إلى ترك تريزل يتنقل بجيوشه حيث شاء ، مكتفيا بمراقبة التحركات ، وفي الوقت نفسه كان يُعدّ تكتيكا لاصطياد تريزل وتطويقه ، وفعلا ، ذلك ما حصل ، حين وصلت جيوش

تريزل إلى الحيان ، ومُسْتَنْقَعَاتِ المِقطَع ، والتي سماها الفرنسيون فيما بعد « مأساة المِقطَع » لِمَا لَحِقَ جيش تريزل من هزيمة ثقيلة ، قضت على رُبع الجيش ، وعلى سُمعة تريزل ، وزادت من سمعة وشهرة الأمير .

كانت نتائج هذه المعركة باهرة ، لأنها :

1 - لَقَّنتَ الجنرال تريزل درسا لا ينساه ، عبَّر عنه في رسالته إلى الوالي العام ، جاء فيها : « لقد أضعُتُ هذه المعركة المُهلِكة ، وأضعُتُ آمالا كانت تبدو لي معقولة ، ولكنَّه كان من الضروري الحصول على النُصر لي تتحقَّق ، ليس من شَكٍّ في أنَّي بالغتُ في تقدير قوَّتي ، كما بالغتُ في عدم تقدير قوَّة العرب ، ومهما يَكُن من شيء ، فَإِنِّي أَرْجَحُ تحتَ ثِقَلِ المسؤولية التي أقدمتُ على تحمُّلها ، وأنا على استعداد لأنْ أقبَلَ اللوم دون أنْ أنبس ببنت شفة ، وكذلك كل إجراء صارم ترى حكومة الملك أن من الضروري اتخاذه في حقِّي » .

(اسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 99) .

أما في رسالته الثانية إلى وزير الحرية ، فإنه يرغب في إعفائه من مسؤولية القيادة حين كتب : « إن هذا الفشل يَجْعَلُنِي أرغبُ في عدم الاحتفاظ بالقيادة التي أُسِنِدْتُ إِلَيَّ ، وإنه لَمِنْ واجبي أنْ أتحمَّلَ كلَّ المسؤولية وخِدي في العملية التي قُتُّ بها ، بدون أمر من الوالي العام ، ولكنَّ الحملة التي قُتُّ بها ، فرضتها علي الظروف ، والآمال التي عقدتها عليها لا تزال تبدو لي معقولة ، وسواء كان الأمر راجعا إلى غلطة في التقدير ، أو إلى الحظ العاثر ، فَإِنَّ العملية قد انتهت بالفشل » (اسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر .

ص 99) .

2 - أن المعركة حدثت بعد استفزازات متكررة ، وتحديات متعدّدة ، من طرف الجنرال تريزل ، إلى درجة خرقه معاهدة ديمشال ، بحمايته لقبيلتي الدوائر والزماله ، رغم معارضة الوالي العام وتحذيره بضرورة تجنب « كلما يمكن أن يُعكّر صفو السلام » ورغم أن الأمير حذرهُ أيضاً من مغبة ذلك ، وأكد له بأنّه لا يرغب إلا في السلام ، غير أن عنجهية تريزل جعلته يعتقد بأن الأمير في موقف ضعف ، فراح يُملّي شروطه كجنرال على الأمير بأن يعترف هذا بالسيادة الفرنسية ، وأن يدفع ضريبة سنوية .. وأدى الغرور بالجنرال إلى محاولة القضاء على الأمير وجيشه ، وكان ذلك سببا في حدوث معركة المقطع عام 1835 .

3 - معركة المقطع أفسدت أيضاً على الوالي العام خطته التي أعدها ، فقد كان يستعدّ لفتح مفاوضات مع الأمير عبد القادر من موقف قوة ، لأنه وجّه رسالة للجنرال تريزل جاء فيها : « كم يؤلمني أن أعرف أنك قمتَ بمركبة هجومية ، بعد أن أوصيتك مرارا وتكرارا ، بأن تتجنب كل ما من شأنه أن يعكّر صفو السلام ، وأنا لا أفهم كيف تسرّعت بهذا الشكل ، واغتنت أول فرصة للتدخل بالسلاح ، وأمّا عروض مصطفى والكلوغليين فقد تكون ذات فائدة في حالة ما إذا واجهنا ضرورة قصوى لقطع العلاقات مع عبد القادر ، ولكنني سأنتظر نتيجة المفاوضات التي سيُجرّيها الكوماندان لاموريسيار بالنيابة عني مع الأمير ، وسيحاول هذا الضابط الحصول على تنازله على القبائل التي تُقيم في ضواحي وهران ، ولكنه إذا وقع ما لا أنتظره ، وأصبحت كل محاولة للصالح مستحيلة ، فإني أفضل أن تقوم بهجوم خاطف على العدو ، وتضطره إلى الدخول في ترتيبات معنا ، بدلا من أن تعسّكر في مكان بعيد عن وهران ، حيث يُمكن أن تتعرض مواصلاتك للانقطاع » (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 96) .

4 - انهيار معنويات الجيش الفرنسي التي عبر عنها **لامورييار** بقوله : « عاينتُ حالة الجيش عن كثب ، إنها حالة مؤلة للغاية ، فإن الروح المعنوية قد هبطتُ إلى أقصى درجة ممكنة ، وأما حالة الذعر الذي استولى عليه ، فهي أشدُّ من الحالة التي عرفها الجيش عقب انسحابه من المدية ، وكذلك كانت الخسائر أفدح » .

كما وصف كاميل روس نهاية المعركة بقوله : « لم يبق منه شيء يشبه جيشاً منظماً ، فإن الجنود والضباط يتصرفون وكأنهم أصيبوا بجُنون ، فهم يتبادلون جُملاً متقطعةً غير مفهومة ، هي أقربُ إلى الهذيان منها إلى الكلام ، وقد كان بعضهم يغنون ويرقصون في حالة غري كما ولدتهم أمهاتهم ، بعدما رموا بأكياس زادهم ، وتخلّوا عن ثيابهم ، ولما وصلوا إلى مدخل المضيق ، ولم يَلحُ لهم المقطع ولا البحر الذي كانت تحجبه عن أعينهم التلال الرملية ، توهموا أنهم قد دخلوا في مضيق لا مخرج منه ، فاستولى عليهم الرعب ، وهكذا راحوا يلقون بأنفسهم في المستنقعات مخاطرين بأنفسهم بالغرق ، وأما الجنرال تريزل ورئيس أركان حربهِ ، فقد أعيأهم المجهود المضاعف لتسكين أنفس الجنود ، وحملهم على البقاء في قارعة الطريق » .

لذا ، تعتبر معركة المقطع ذات أهمية تاريخية ووطنية ، زادت من سمعة الأمير ، وقوّت نفوذه ، وأضعفتُ من سمعة الجيش الفرنسي الذي تأثرتُ فرنسا كُلُّها بهزيمته .. وهو ما دفعها لإعادة تعيين المارشال كلوزال واليا عاما على الجزائر فيما بعد ، لِمَا لهذا المارشال من حماس للاحتلال الكامل ، والاستيلاء الشامل ، خاصة وأنه اتّصل بالجزائر في السابق كقائد جيش ، واستولّى على حَوْش بالحراش حوَّله إلى مزرعة نموذجية تُغري القادمين من فرنسا على الاستيطان والتعمير .

بعد تعيين المارشال كلوزال ، اختار الأمير وسيلتين من وسائل المقاومة : وسيلة الحصار الاقتصادي الذي ضربه حول مدينة وهران ،

ومنطقة الجزائر . ووسيلة فتح علاقات عالمية ، بمحاولاته التأثير في أنجلترا ، ودفعها إلى التحرك ، ومنافسة فرنسا في المنطقة ، أو إلى تزويده على الأقل بما يحتاجه من ذخيرة وعتاد ، وفي الوقت نفسه كان يقوم بتحسين مدينة معسكر عاصمة المقاومة ، اعتقاداً منه أن الفرنسيين لا ينسؤون هزيمة المقطع ، ومن الممكن جداً أن يقوموا بهجمة على عاصمة المقاومة ، وفعلاً ، بدأت تحركات الجيش الفرنسي المريبة التي تصدى لها الأمير مجدة في بعض الأحيان ، وأبدى من حضور البديهة ، ومن الشجاعة ، ما جعل الدوق دور ليان يعترف ويصف إحدى المناوشات : « كَانَ أثر هذه المرحلة هائلاً ، خصوصاً حول الأمير الذي سقط أمامه كاتبه وحامل علمه ، أمّا هو ، فقد كان يزهو فخوراً بأن يرى نفسه هدفاً لجميع القذائف ، وكذلك كان يروح ويغدو على فرسه الأسود الذي كان يسير بخطى وئيدة غير معجلة ، متحدياً براعة الطوبجية الذين لم يَمْلِكُوا أنفسهم ، ولم يستطيعوا منعها من الإعجاب بشجاعته ، » (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 112) .. وهذا كلوزيل يصف فدائية المقاومين في رسالة له إلى وزير الحربية ، قال فيها : « استمرت المعركة خمس ساعات ، أبدى العربُ خلالها ضروباً من الشجاعة والإقدام ، بحيث أنهم كانوا يتقدمون إلى مدفيعتنا في تصيم وثبات ، بل واقتربوا من المدافع ، إلى حدٍّ أصبح معه من غير الممكن استعمال المدفعية ، واضطر المدفعيون إلى رمي القذائف بأيديهم » (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 113) .

غير أن هذه المناوشات التي لم تَمِلْ كفتها في غالب الأحيان لصالح الأمير جعل بعض رؤساء القبائل الضعاف نفسياً ، يتذبذبون في مواقفهم ، بل تحوّل بعضهم إلى المعسكر الفرنسي ، مثل ابن الخفي . المزاري . الغاري . مصطفى بن إسماعيل .

لم تحل هذه المناوشات ، ولا الخطط الاستراتيجية التي اختطها الأمير ، دون احتلال معسكر التي وجدها كلوزيل حين دخوله إليها « أشبه ما تكون بشيخ مدينة » لأن الأمير أمر بإجلاء السكّان عنها قبل ذلك .

وقد أثر احتلال مدينة معسكر في نفسية الأمير تأثيراً كبيراً ، كما تأثر بتخاذل بعض العناصر من ناحية ، وتهافت البعض الآخر على السلب والنهب ، إلى درجة أنّه صارح رجاله ، وطالبهم بإعفائه من القيادة ، إلا أنّهم رفضوا وألحوا عليه ، والتسوا منه العدو عن هذا الطلب ، فعاد من جديد إلى التنظيم ، وإلى مهاجمة الجيش الفرنسي ، وإلى محاصرة المدن التي يوجد فيها هذا الجيش ، وشارك في معارك وادي سكاك ، وأبدى فيها أيضاً من البسالة ما اضطر الجنرال بيجو لأن يوجه رسالة للأمير ، جاء فيها : « أستطيع أن أعرض عليك السلام بصراحة نبيلة ، لأنني أحسّ في نفسي بقوة تامة ، بتكوين جيشي ، وبنشاطي وحيويّتي الشخصية .. إذا كنت تنصتُ إلى صوت الإنسانية والحكمة فابعث إليّ برجال تثق بهم ، ليحملوا إليّ مقترحاتك ، لكيّ أحولها إلى ملك الفرنسيين » .

وعلى إثر هذه الرسالة ، وقعتْ معاهدة تافنا بين الجنرال بيجو ، والأمير عبد القادر ، وقد كان هذا في حاجة إلى فترة يستردّ فيها الأنفاس ، ويعيد التنظيم ، والتمويل ، فإذا كسب الأمير من هذه المعاهدة ؟ كتب الدكتور إسماعيل العربي في كتابه الذي أشرنا إليه مراراً : « في المكان الأول من الأهمية كسب الأمير فترة من السلام والهدوء هو في أشد الحاجة إليها لتدعيم مركزه السياسي في الداخل ، ولبناء إدارة على أسس حديثة ، ولتنظيم جيشه وتدريبه ، ولكن المعاهدة تضمن للأمير إلى جانب ذلك فوائد جمة ، ولا سيما فيما يتعلق

بتوسيع مملكته ، بحيث أصبحت تشمل إلى جانب ولاية وهران (فيما عدا مدينة وهران وأرزيو ومستغانم ومسرغان وضواحي هذه المدن) ولاية تيتري ، وولاية الجزائر نفسها (فيما عدا العاصمة وسهول متيجة التي يحدّها من الشرق وادي الخضراء ، وادي بودواو ، ومن الجنوب الأطلس الصغير مع البليدة وأراضيها حتى كوع مزفران ، ومن ثمّ ، خط مستقيم يمتد حتى البحر) وبعبارة أخرى ، فإن المعاهدة لم تترك لفرنسا سوى الساحل متيجة والبليدة (التي تنازل عنها الأمير في اللحظة الأخيرة تحت التهديد بوقف المفاوضات) .

وإذا كانت للأمير مكاسب ، فإن لفرنسا أيضا مكاسب .. ولكن هل احترم الفرنسيون معاهدة تافنا ؟.. المعروف أنه بعد فترة هدوء ، خرق الفرنسيون المعاهدة ، واجتمع مجلس حرب الأمير بعد خرق الفرنسيين للمعاهدة .. قرر هذا المجلس - بإجماع - الردّ على الاعتداء ، وأصدر بيانا : « إن الفرنسيين المعتدين على البلاد الإسلامية بعدما عاهدناهم وسانناهم ، نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن المعلوم أن التهاون في مثل هذا الأمر ، والإغضاء عنه يزيدهم طغيانا واعتداءً علينا ، فلذلك اجتمعنا في مجلس عال بحضور سيدنا المعظم ، ومولانا المفخّم ، ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين - نصره الله - لأجل المذاكرة في هذا الأمر المهمّ ، والخطب الملئمّ ، فوقفنا الحق تعالى - جل جلاله - للجواب ، وألهمنا جادة الصواب ، واتفقت كلمتنا على إعلان الجهاد ، والقيام بواجبه على أكمل استعداد ، وقد بايعنا حضرة أميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية ، وعقدنا على الصدق في ذلك النية ، حرّرنا هذا الصكّ ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه ، ومن الله نستمدّ العناية ، وهو ولي الهداية » (إسماعيل العربي . المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . ص 192) . فاستؤنفت المقاومة ، وامتدت إلى عدة جهات ، كما انتقلت بين عدة مناطق

واستعمل الأمير خلالها الحرب النظامية ، وحرب العصابات ، إلى حين وقعت المواجهة في معركة حامية بسيدي إبراهيم التي أثبتت فيها المقاومة بلاء حسنا ، والتي جرح فيها كثير من الضباط الفرنسيين ، وتعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي خاضها الأمير في آخر عهده .. إذ بعدها بدأت نهاية الأمير كقاوم صلب شجاع ، طوال 17 عاما .. وجد نفسه في الأخير في مواجهة جيش منظم ، معبأ تعبئة كاملة ، يسعى لاحتلال الوطن احتلالا كاملا .. ووجد نفسه أيضا أمام خيانات ، لم يستطع التغلب عليها في كل الأوقات ، وأمام تدهور الوضع العام الذي أدى إلى استسلام شقيقه مصطفى وسعيد ، والخليفة بن سالم ، وقتل خليفته الشجاع البوحيمدي بالمغرب مسموما .. والذي حزن في نفسه كثيرا ، وقضى على معنوياته ، هو تصرف السلطان المغربي الذي لم يقبل لجوء الأمير إلى المغرب ..

بعد أن سدّت جميع الأبواب في وجهه ، جمع مساعديه ، واستشارهم . وفي الختام قال لهم : « لا أرى إلا التسليم لقضاء الله والرضا به ، ولقد أجهدت نفسي في الذبّ عن الدين والبلاد ، وبذلتُ وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد ، وذلك من حين اهتزَّ غصنُ شبّابي ، وافترَّ عن شبة الهندنابي ، وأثمتُ على ذلك ما ينيفُ على سبع عشرة سنة أفتحم الممالك ، وأملأ بالجيوش الجراحة الفجاج والمسالك ، أستحقير العدو على كثرته ، وأستسهل استضعابه ، وأتوغل غير خائفٍ أوديته وشعبه ، وأرتب له في طريقه الرصائد ، وأنصب له فيها المكائد والمصائد ، وتارة أنقضُّ عليه انقضاض الجراح ، وأخرى أنصبُّ عليه انصباب الطير إلى المسارح ، وكثيرا ما كنتُ أبيتُه فأفنيه ، وأصحه فأبرد غليلي منه وأشفيه ، ولا زلتُ في أيامي كلّها أرى النية ولا الدنية ، وأشتر على أقوى ساعدٍ وبنان ، وأقضي حق الجهاد بالمهّد والسنان ، إلى أن فقدتُ المعاضدَ والمساعد ، وفني الطارف والتالد ، ودبتُ إليّ من بني ديني

الأفاعي ، واشتملتُ عليّ المساعي ، والآن بلغ السيل الزُبى ، والحزام
الطيبين ، فسبحان من لا يكيده كائد ، ولا يبيد ملكه ، وكل شيء
بأئد » .

هذه الصفحة الحزينة انتهت مقاومة الأمير ، واستمرت مقاومة
الشعب الجزائري !.



أحمد باي

أحمد باي

أحمد باي .. من أبطال الجزائر المهضومين . الذين ظلمهم المؤرخون الاستعماريون ، وتجنّى عليهم الحاقدون بالتشويه والتزوير والإهمال .. ومن حسن الحظ أن المؤرخين الشبان المعاصرين تنبهوا للحيث الذي لحق بهذا البطل العظيم ، فأنصفوه ، وهم لا يتأخرون في كل مناسبة عن تقديم مآثر هذا الرجل العظيم الذي عرفته البلاد قبل عام 1830 بايا إداريا عاديا ، ثم تعرّف عليه بعد هذا التاريخ مقاوما شهيا ، صلبا عنيدا ، ضحّى بالمنصب المغربي ، وبالثروة الطائلة ، وتخلّى عن حياة الترف ، مدافعا عن المبادئ التي آمن بها ، وعن الوطن الذي أحبه ، وأخلص له حتى آخر ساعة من حياته .

كتب الدكتور العربي الزبيري عن أحمد باي ما يلي : « يعتبر الحاج أحمد باي قسنطينة الأخير من أئمة وجوه المقاومة في الجزائر ، ومن أكبر قاداتنا الذين دوّخوا فرنسا ، والذين يجب أن نفتخر بهم ، لقد اعترف له كثير من الجنرالات بالدهاء العسكري ، وحاول الماريشال فالي أن يتفَقَّ معه ، اقتناعا منه بأنّ الرجل أهل للقيادة ، ولا يمكن أن يستسلم بسهولة » (محمد العربي الزبيري . مذكرات أحمد باي . ص 5) .

ومن الشهادات المعتمدة تلك التي كتبها الدوق دوروفيفو (Duc de Rovigo) إلى وزير الحرية الفرنسية بتاريخ 12 ديسمبر 1832 متحدثا عن الحاج أحمد باي : « إن هذا الباي ليس كما أوحى إلي عندما قدمتُ

إلى الجزائر ، من أنه شخص لا قيمة له ، بل هو على العكس من ذلك يُعَدُّ صاحب الولاية الأكثر نفوذا وقوة بها » (نقلا عن مجلة « تاريخ وحضارة المغرب » العدد 9 . ص 10) .

نعم يختلف أحمد باي عن غيره من بايات عهده بروحه ومشاعره الوطنية الفياضة التي جعلته لا يتردد في التضحية بمنصبه كباي ، ولا يبخل بوضع ثروته الطائلة تحت تصرف المقاومة ، ولا يفكر كغيره من البايات الذين ركزوا اهتمامهم على مناصبهم كبايات ، حتى أنهم ساوموا الفرنسيين ، بقصد أن يتركوهم في مناصبهم تحت السيادة الفرنسية ، وحين لم تتحقق رغباتهم تخلَّوا عن المقاومة ، وغادروا البلاد بعائلاتهم وثرواتهم ، وانقطعت صلاتهم تماما بالجزائر .. أما أحمد باي فقد بقي صامدا .. مقاوما .. حتى الاستشهاد .

لقد عاش أحمد باي المأساة في سيدي فرج 1830 ، وشاهد بنفسه سقوط العاصمة ، وانهيار الجيش ، واستسلام الداى - فتال - وعاهد الله والنفس على أن لا يضع السلاح ، وعاد بن بقي معه من جيشه إلى عاصمة إقليه قسنطينة .. وقبل الوصول إليها أدركه رسولٌ بعثه القائد الفرنسي ليُقدِّم له العرض الفرنسي بأن الدولة الفرنسية توافق على بقاءه بايا في إقليه القسنطيني كما كان ، مع المحافظة على حقوقه وامتيازاته السابقة مقابل الاعتراف بالسيادة الفرنسية .. وتَأبَّى شهامة أحمد باي قبول العرض المُغرّي في تلك الظروف ، وهو يعلم بأن أحد الانتهازيين قد استولى على قسنطينة ، ونصب نفسه بايا على إقليها مُستغلاَ فرصة وجود أحمد باي في ميدان الجهاد بالعاصمة .

والمؤرخ عندما يحلّل شخصية هذا الرجل العظيم إنما يحلّلها من خلال الظروف والأحداث التي تَعيشها البلاد آنذاك .. والإغراء في ذلك العهد

مقياس أكيد لمعرفة وطنية وإخلاص الأشخاص .. وقد استعمله الاستعمار بكثرة طيلة فترة وجوده ، واستطاع استيالة بعض الذين عرفوا بوطنيتهم .. واستخدامهم لمصلحه ، وترسيخ أقدامه .. ومن هذا المنطلق يجب الاعتراف بمكانة أحمد باي الذي تخلّى عن حياة الترف والبذخ بمجرد أن تولّى المقاومة التي أدهشت الضباط الفرنسيين ، والتي اعترفوا بها في مذكراتهم ، ولذلك قال أبو القاسم سعد الله بخصوص هذا الاعتراف : « قد اعترف له أعداؤه ومعاصروه بالحنكة السياسية ، والمواقف البطولية ، وغيّره الدينية ، وكرهه الشديد للأجانب ، وبنجاحه في كسب قلوب رعاياه ، ومهارته في تنظيم الجند ، ووضع الخطط العسكرية ، وهذه جميعا خصال تميّز الحاكم القدير » (أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ص 273) .

فالمقاومة هي التي أبرزت شخصية أحمد باي من جديد ، وهي التي ميزته عن بقية المسؤولين الأتراك الآخرين الذين لم يتجرأوا إلا بقدر استغلال الجزائر ، والذين تخلّوا عن الجزائر بمجرد أن انتهى الاستغلال .. ولم يكن هذا شأن أحمد باي ، فقد رفض كل العروض التي قدّمت له ، من طرف دويو رمون . كلوزيل . الدوق دورليان وقد حاول هذا التأثير في أحمد باي عن طريق حمدان خوجة الذي لم يوفق في تليين موقف أحمد باي ، فاتّهمه بالتعنّت والتصلّب ، وطلب منه أن يكون ليّنا .

إنه بعد أن اشترك في سيدي فرج بالتّصدي للفرنسيين عاد إلى قسنطينة .. وبجرّد وصوله ، استعاد منصبه ، بوقوف سكان قسنطينة جميعا بجانبه ضد الباي الانتهازي .. وقرّر أن يقود المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي بروح عالية ، فنظّم أموره الإدارية ، وألّف مجلس

شورى ، وكوّن مجلساً عسكرياً ، وخطّط استراتيجية لمحاربة جيوش الاحتلال في كل السواحل التابعة لإقليمه ، وتمكّن في ظرف وجيز من توحيد السُكّان ، والقبائل المتناحرة ، واكتسب محبة لم يكسبها يوم كان بايا منصباً من قبل الداي ، وصاحباً نفوذ سلطوي وإداري . وقد ساعده التفاف الجماهير حوله ، وأعطاه قوة على التنظيم ومهاجمة الفرنسيين في السواحل ، ومحاصرة جيوشهم حصاراً أدى في بعض الأحيان إلى نتائج باهرة ، دلّت على مقدرة أحمد باي على التنظيم ، ووضع الخطط الاستراتيجية .. ولذلك تضايقوا كثيراً من أحمد باي ، وتأكدوا في الأخير بأنه لا يمكن لهم استغلال احتلالهم للمدن الساحلية إلا بمهاجمة قسنطينة ، والقضاء على أحمد باي وجيشه ، فانتظروا إلى أن حانت الفرصة ، وتمثّلت في الصلح الذي انعقد بين الفرنسيين والأمير عبد القادر ، واعتبروه مناسبة للتوجه كلياً إلى احتلال قسنطينة .. واختير لعملية الاحتلال كلوزيل الذي كان يتحرّق لاستعادة مجده ومكانته العسكرية التي قضت عليها المقاومة المسلحة في متيجة ، والتي كانت السبب في إعفائه من مهامه .

وكما احتقر كلوزيل مقاومة متيجة ، أيضاً احتقر المقاومة بقسنطينة ، حتّى أنه صرح المحيطين به بأنّ عزّمه احتلال قسنطينة « لا يعدو أن يكون مجرد نزهة » ، وقد دعّم هذا الوهم فيه يوسف المملوك بما قدّمه له من معلومات خاطئة تُفيد بأن أحمد باي باي لا يحكم ، ولا نفوذ له .. وبأن القبائل متطاحنة غير موحّدة .. وهذه المعلومات ضاعفت من غروره ، وجعله « يستدعي إلى النزهة » (أي احتلال قسنطينة) ضيوفاً ممتازين لإضفاء مظهر خاص لدخوله إلى عاصمة الباي أحمد ، مردّداً : « أنا غير قلقٍ من النتيجة » (شارل أندري جوليان . تاريخ الجزائر المعاصر . ج 1 . ص 133) .

ومما قاله جنوده بهذه المناسبة في عناية : « أيها الجنود .. ندخل اليوم إلى قسنطينة » .. جهّز لهذه الحملة 8700 شخص .. وقد بلغ خبر التجهيزات التي قام بها الماريشال كلوزيل أحمد باي ، فأعدّ نفسه ، ونظم جيشه . ووضع خطته العسكرية لمواجهة الحملة التي لم يَسْتَحِفْ بأمرها ، واعتبرها اختبارا للمقاومة .. وبفضل الخطة التي وضعها . ألحق هزيمة شنعاء بكلوزيل أدت بأن « فضّل عددٌ من الجنود الفرنسيين الانتحار بدلا من الاستمرار ، وتضاعفت ظاهرة الانتحار بعد وصولهم إلى قسنطينة ، وأيضاً أثناء الانسحاب ، بينما كانت مؤخرة جيوش القوات الفرنسية لا تزال تتلقّى هجومات الفرسان القسنطينيين » (عبد الكريم بجاجة . جريدة النصر . 16 أبريل 1983) .

ولعلّ هذه الهزيمة الثقيلة هي التي جعلت الفرنسيين يفكّرون ويصيرون على احتلال قسنطينة مهّما كان الثمن ، مستغلين هدوء المنطقة الغربية بعد توقيع المعاهدة مع الأمير عبد القادر ، للتفرغ إلى المنطقة الشرقية ، ولذلك أعادوا الهجوم عام 1837 أي بعد مرور عام فقط .

وفي هذه المرة أعدّ الفرنسيون جيشا ضخما مكوّنا من 11000 جندي ودعّموه بضباط سامين معروفين بقدراتهم القتالية ، وبتجارهم ، وحنكتهم في الميدان العسكري أمثال : تريزل . وولبير . لامي . هولدي دي فلوري . كومب . لاموريسيار . تحت قيادة الجنرال دانريمون شخصيا .. الأمر الذي فرض على أحمد باي تجنيدا أوسع ، وإعداداً أكبر ، لمواجهة الزحف الفرنسي على قسنطينة .. لا سيما وأنّه وجد استجابة لدى القبائل : الحنانشة . الحراكتة . التلاغمة . فرجوة . زواغة . أولاد عبد النور . ريغة . مجانة . قبائل الأوراس ، سواحل سكيكدة ، جيجل ، القل ..

لقد بذل كل من الجانبين الجزائري والفرنسي جهدا كبيرا لتعبئة أكبر قدر من الإمكانيات ، باعتبار أن المعركة حاسمة بالنسبة لكل منهما .. فالفشل والهزيمة للمرة الثانية بالنسبة للفرنسيين كارثة لا تعالج ، والفشل بالنسبة للجزائريين ، تحطيم للانتصار الأول ، وسقوط عاصمة الإقليم كارثة كبرى ..

ورغم الاستعدادات الضخمة من كلا الجانبين عام 1837 فإن النصر كان في جانب الفرنسيين ، لأنهم استفادوا من الأخطاء التي وقعوا فيها في الحملة الأولى ، ولأنهم وضعوا استراتيجية جديدة تحسباً للاستراتيجية التي اعتمد عليها أحمد باي في الحملة الأولى عام 1836 ، ولأنهم أيضاً نظموا جيشهم في هذه المرة تنظيماً مُحكماً ، وقد ساعدتهم بعض المعلومات على التعرف على نقطة الضعف في مدينة قسنطينة ، أو من التعرف على الثغرة التي عن طريقها يُمكن التسلل إلى المدينة الحصينة .. أما الجانب الجزائري ، فلم يكن منظماً بالدقة الكافية ، رغم التعبئة الضخمة الواسعة ، لأن أغلب قادة المقاومة ، وأكثرية المقاومين ليسوا جنوداً محترفين ، وإنما هم رجال مقاومة شعبية ، كما أن أحمد باي ارتكب خطأ أساسياً ، باعتداده الخطة التي استعملها في صدّ الحملة الفرنسيّة الأولى ، باعتبار أنها الخطة التي حققت له الانتصار الباهر ، لكن نسي بأن الفرنسيين بعد أن تعرّفوا عليها في الماضي سيستعدون لمواجهة بخطط واحتياطات جديدة .. إلا أن التاريخ لا ينسى الشجاعة التي أبدتها المقاومون القسنطينيون ، وقد تمكّنوا من قتل قائد الحملة الجنرال دانريمون ، وإصابة الجنرال پريكو ، وقتل العديد من الضباط ، وكاد المقاومون يحققون النصر بعد الضربات القاسية التي تلقاها الجيش الفرنسي ، لولا أن الفرنسيين تمكّنوا من فتح الثغرة ، والمنفذ الوحيد

للتوغل في المدينة ، وكان ذلك سببا في استِعادَتهم للمعنويات التي كانت على وشك الانهيار ، وفي استبسال السكان الذين رفضوا الاستسلام ، ولقنوا جيش الاحتلال درسا من الثبات والإصرار لا يُنسى ، ولعلّ الرسائل التي تُبذلت بين الجانبين تدلّ على مدى صلابة المقاومة ، وعلى المعنويات العالية التي كان السّكان يتحلّون بها ، فقد ردّ هؤلاء على الجنرال دانريمون برسالة جاء فيها : « إذا كان المسيحيون ينقصهم البارود ، سنرسله لهم ، وإذا لم يبق لهم الخبز نقسم معهم ما لدينا ، ولكن طالما أن هناك حيّا منا سوف لن يدخلوا قسنطينة » ، وبهذا تحمّل كل فردٍ من سكان المدينة مسؤوليّته عن مدينته وداره وشرفه .

وهناك الرسالة التاريخية الشهيرة التي أجاب بها أحمد باي الجنرال الفرنسي الذي عرض عليه الاستِسْلام ، وهي : « من الأمة المحافظة على شرفها وبلدها ، إلى العسكر الفرنسيّ المعتديّ على حقوق غيره ، قد وصلّتنا رسالتكم ، وفهمنا ما ذكرتموه فيها ، نعم ، إن مركزنا أمسى في خطرٍ عظيم ، ولكنّ استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العرب الذين لا يهابون الموت موقوفٌ على قتلٍ آخر واحد منهم ، واعلموا أن الموت عندنا تحت أسوار بلدّتنا أحسنُ من حياتنا تحت سلطة فرنسا » .

بهذه الروح الوطنية ، والإيمان الجبار ، قَاد أحمد باي سكان قسنطينة ، فقاتلوا الجيش الفرنسيّ المنظّم المجهّز بالأسلحة العصرية في ذلك العهد ، وواجهوه بإمكانيات متواضعة ، وجرتِ المعارك داخل المدينة في الشوارع والأزقة ، وانتقلت من دار إلى دار ، والتحم المقاومون بالفرنسيين التحاما بالسلاح الأبيض ، استعمل فيه السكان البنادق ، والسكاكين ، والعصي ، والأيدي ، وشهدت المدينة ملحمة بطولية رائعة .

انتهت معركة قسنطينة بالاحتلال الفرنسي .. ولم يحقق أحد باي ما كان يأمله من انتصار .. لكن روح المقاومة فيه لم تضعف .. بل قرّر مواصلة الجهاد بأي ثمن ، ورفض كل النصائح التي تدعوه للاستسلام والتخاذل ، ولم يقبل نصيحة الذين أشاروا عليه بمغادرة البلاد والالتجاء إلى إحدى البلدان الإسلامية إنقاذاً لحياته وأمواله !. جمع من بقي من مساعديه من قادة وجنود ، وعقد مجلساً .. ولنترك له المجال ليحدثنا عما وقع بعد ذلك ، يقول :

« وفي الحين فكّرتُ في نحو الهزيمة ، لأن الله لا يُضيع كُلياً إلا الذين يَهمَلون أنفسهم ، لذلك استدعيتُ قادة القوم ، فاجتمعوا حولي ، وبعد أن استعرضتُ الموقف اقترحتُ عليهم تشكيلَ زمالة بجميع الذين خرجوا من المدينة ، ثم تقوّدوها إلى مكان أمين في الجنوب ، ونُبقيها فيها تحت حماية مُشانتنا ، أما نحنُ فترجع فوراً إلى المدينة ، ونترك في طريق عناية بحيث تقطع حركة المرور ، فنحن نعلم أن العدو خسر بالإضافة إلى كبير الجنرالات عدداً آخر من الضباط المعترين ، وأن المؤن قد تكون نفدت ، وعليه ، فإذا استطعنا أن نتركز في طريق عناية بحيث تقطع جميع الاتصالات بالمكان الذي يُمكن أن يبعث النجدة ، فإنه يكون لنا أملٌ كبير في تحقيق النصر ، وتمّت المصادقة على مشروعِي ، وكاد يدخلُ في حيز التنفيذ عندما صاح بوعزيز بن قانة قائلاً : « ماذا تريدون أن تفعلوا بتبعدون عن بلدكم ، وتتوجّهون نحو الشمال ، إذن فأنتم لا تعلمون أن فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان ، وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة ، فإنكم تُعرّضون أنفسكم للطرد من منطقتكم ، ولذلك يجب أن نُسرِع إلى الصحراء ، ندخل عائلاتنا ومن اتّبعتنا إلى المدن ، ثم نخرج متّحدين ضد العدو الذي نخشى

هجومه أكثر ، فالفرنسيون لم يتقدموا ، بينما فرحات يزحف علينا ، ومن ثمة يجب أن نبدأ بمحاربته ، وبعد ذلك نوحّد قوّانا ، ونهاجم الفرنسيين » لم أستحسن هذه النصيحة ، ولكنه لم يكن لي أهل - عدا أبنائي - أقرب من بوعزيز ، فلم أكن أعتقد أنه يستطيع أن يقترح عليّ ما من شأنه أن يضرّني ، وعليه انضمتُ إلى رأيه ، ولو أن الله هداني في ذلك الوقت لفهمتُ أنه يُريد جلبِي إلى الصحراء ليأخذ أموالِي عن آخرها ، ولكن إذا حَكَمَ القدر على شخص بالهلاك ، عمي بصره وبصيرته ، وصار يعتقد الخير فيما يؤدّي إلى الخراب ، وأكرّر ، لقد اتّبعتُ رأي بوعزيز ، وكان ذلك هو مصابي الاعظم » (مذكرات أحمد باي . ص 77) .

تلك هي مصائب أحمد باي الذي عرف بتخطيطه الحربي ، ولكن لسبب أو لآخر تعاكسه الظروف .. لقد كان له رأي في مواجهة الفرنسيين بسيدي فرج ، إلا أن صهر الداى عاكسه ، ونازل الجيش الفرنسي بسيدي فرج .. وها هو الآن أيضا له رأي في قطع الطريق بين قسنطينة وسواحلها قطعاً يؤثر على تمويل الوحدات الفرنسية الموجودة بقسنطينة .. لكن بوعزيز يتدخل ويعارض خطة أحمد باي ..

وهو الآن مع من بقي من رفاقه في الجهاد يتحول نحو الجنوب ، ويتخذ من الأوراس وبعض مناطق الصحراء ميدانا للجهاد ضد الجيوش الفرنسية الغازية .. خاض ضدها المعارك العنيفة ، حقّق في بعضها انتصارات ، وانهزم في بعضها .. وقد علق كثيرا من الآمال على مساعدة الخليفة العثماني الذي كان يبعث إليه بالوعود إثر الوعود ، ولكن دون أن يتحقّق منها وعدّ ، ولما تأكّد بأن الخليفة لم يتجاوز حدود الوعود وجّه إليه رسالة قاسية جافة ، جاء فيها :

« بادروا بإمداد أهل الإيمان بالمساعدة وبنصرة أمة الإسلام ، وعندما يعاتبكم الله يوم الحشر ، تسألون عن ضياع هذه الولاية ، فإذا سيكون جوابكم ، هل لكم غرض وأمل في الحفاظ على دين الإسلام في هذه الديار وانتظامه ، فإن كان كذلك لتكن عندكم همة وعزيمة لمساعدة المسلمين ، إذ أنه بالنص الشريف .. كلُّكم راع ، وكلُّ راع مسؤول عن رعيته ، ولا شبهة أن كل سلطان يسأل عن رعيته ..

لو لم يكن عندي من انتظار للمدِّ المتوقَّع من طرفكم ، لما لجأتُ إلى تولِّي هذا الأمر ، ولما كتبتُ بحاجةٍ لا علاجٍ فيها ، ولما كنتُ إقامتي في وظيفتي ومخاطرتي عبثاً ، فالأولى انتقالي إلى أرض الله الواسعة .

إننا من أهل الإسلام ، ولم نعاونْ بمقدار ذرَّةٍ ، فقد أصبح من المحقِّق أن ينال الكفار مُبتغاهم في هذه الولاية ، ولو سألتُم أنفسكم بخصوص هذا الأمر عندما تثيرون هذا الموضوع ، فلا شبهة من توجيه العقاب لكم إذا لم تنصروا الدين الاسلامي في تلك الحالة ، إننا نعتذر عن تلك العبارة الخسنة ، وبلا أدب ، ولكنها كلمة حق ، فرجؤو عفوكم » .

وهكذا عانى أحمد باي وقاسى خلال مقاومته الطويلة التي امتدت 18 عاما دون أن يتخلَّى عن واجبه ، حتى أنه في إحدى المعارك « اشتدَّ به المرض ، ولم يستطع أن يشارك بنفسه في المعركة ، فأخفاه أصحابه في الغابة قريبا من مكان المعركة حيث كان هناك يسمعُ بنفسه دويَّ الرصاص » (يحيى بوعزيز . ثورات الجزائر . ص 49) .

لقد قاوم أحمد باي في عدة جبهات صعبة :
- جبهة فرنسا ، إذ رفض الاحتلال منذ البداية ، ولم يتقبل الأمر الواقع .

- جبهة الطامعين في منصبه وولايته وأمواله ، وهم كثيرون وحاقدون ، استغلّوا « كولوغيته » ، واستضعفوا شأنه ، حيث لا وجود لقبيلة تحميه ، وتشدُّ أزره ، كما هو شأن زعماء المقاومة في كل وقت .

- جبهة الخونة الذين تأمروا على حياته ، وعلى الوطن إلى درجة أنهم تحالفوا وتواطأوا مع الجيش الفرنسي ، وارتكبوا من الفظائع والوحشية ما بقي وُصمةً في تاريخهم .

- جبهة باي تونس الذي كان الجزائرالات الفرنسيون يركونه عندما تحين المناسبات ، ويدفعونه للتآمر ضد أحمد باي ، ولعرقلة وصول الأسلحة والذخائر والمساعدات التي كانت تُرسل إليه .

ومن استعراض ما كتب عن أحمد باي يبدو أنه :

1 (الباي الشرعي الوحيد الذي اعترف له الشعب ، وأعاد تنصيبه بعد انهيار الإدارة التركية بالجزائر ، وكان موقف الشعب من أحمد باي عاملاً وحافزاً ومشجعاً له على المقاومة والاستمرار فيها حتى النهاية .

2 (استفاد من ثقة الشعب فيه ، ومبايعته له على الجهاد ، دون أن تدعّمه قبيلة ، ولا مركز ديني ، فتخلص من العصبية القبلية تخلصاً أعانه على توحيد كلمة الأعراش ، وجمع شتات القبائل المتنافرة ، وتنظيم المقاومة العامة .

3 (فاجأ الساسة الفرنسيين وضباطهم .. فهم لم يتوقعوا موقفاً صلباً من باي بسيط ، بعد أن استسلم الداى ، وبعد أن سقطت العاصمة ، خاصة وأن بعض الجزائريين قدّموا للفرنسيين صورة أحمد باي في شكل شخص تافه مائع ، لكنهم فوجئوا به بعد رفضه المساومات المتكررة ، وفوجئوا به لا يضع السلاح وإن تعرض عدة مرات للحصار .. ورغم أن

الناس انفضوا من حوله وقد انتابهم شعور الملل من الحرب الطويلة ..
ولولا اشتداد المرض بأحمد باي وتقدم السنّ به لَمَّا وضع السلاح .
4 (برهن على إخلاصه ووفائه لمباييء آمن بها :

- 1 - الدفاع عن الدين الإسلامي .
- 2 - تحرير البلاد من الاحتلال الفرنسي .
- 3 - الارتباط بالسلطة الشرعية الوحيدة التي كان يراها جديرة بذلك ،
وهي السلطة العثمانية .



المرحلة الثانية
الانتفاضات

الانتفاضات

لئن انتهت مقاومة البطلين الأمير عبد القادر ، وأحمد باي ، فإن شعلة الروح الوطنية بقيت ملتهبة في النفوس ، ذلك لأنّ الشعب الجزائري لم يتقبّل الأمر الواقع المفروض عليه من طرف الاحتلال الفرنسي ، وهذا الرّفض عبّرت عنه الانتفاضات المتواصلة التي عمّت كل مناطق الجزائر ، وغطّت كل المراحل الزمنية بانتقالها من منطقة لأخرى منذ عام 1848 حتى عام 1916 في الحرب العالمية الأولى ، وليست الانتفاضة إلا نوعا من المقاومة ، « وهي في ذاتها تعبير صادق عن إرادة الأمة في رفض ما هو غريب عنها ، دفاعا عن مقوماتها الحضارية المتميّزة » (عبد الحميد زوزو . ثورة بوعمامة . ص 43) .

إلا أن هذه الانتفاضات على كثرتها ، وتفاوتها في الأهمية وفي الصّدى الذي تركته ، لم يُكتب لها النجاح ، لأسباب عديدة ، منها :

أولا : ليست هناك تعبئة وطنية ، أو تنظيم وطني أو إقليمي ، فقد كانت القبيلة أو القبائل المتجاورة تشوّر بمجرد أن تلحقها إهانة من طرف وحدات الجيش الفرنسي ، أو من طرف الحاكم بالمنطقة .

ثانيا : الانتفاضات في غالب الأحيان استجابة تلقائية للدعوة التي يوجّهها رجال الدين أو زعماء القبائل إلى الجهاد ، لا تعلم الجماهير أسباب الانتفاضات ، ولا حقيقة الدعوة إلى الجهاد ، وإنما استجابت ثقة منها في علمائها وزعمائها ، ورغبة منها في الجهاد .

ثالثا : ضيق الرقعة التي تقع فيها الانتفاضة ، مما يسهّل مهمة الجيش الفرنسي في مواجهة الانتفاضة ، وتطويق المنطقة ، وقمع الروح الثورية .

رابعا : الارتجال أو التلقائية في تفجير الانتفاضة ، لا تسمح لقادة المقاومة بالاستعداد الكافي ، والتنظيم المحكم ، وتحديد الأهداف من العملية .

خامسا : انعدام التنسيق بين القبائل الثائرة أضر كثيرا بالمقاومة ، وكاد يقضي على ثورة نوفمبر 1954 في بدايتها لولا أن المسؤولين تلافوا ضعف التنسيق .

ومن تأمل خريطة الانتفاضات يلاحظ المرء التوزيع الجغرافي الذي يشمل كل منطقة في الجزائر ، ويلاحظ أيضا التسلسل الزمني ، فهناك :

1 - الظهرة . الوارسنيس . التيطري . مستغانم . الحضنة . أولاد رياح . تحت قيادة بومعزة سنة 1845 .

2 - الزعاطشة . الزيبان . الأوراس . بوسعادة . بقيادة الشيخ بوزيان عام 1848 .

3 - الاغواط . تشرت . بقيادة الشريف محمد بن عبد الله عام 1852 .

4 - بني إيراثن . بني عيسى . فليسه . ايشريدن . آيت تاويرت الحجاج . بقيادة لالا فاطمة نسومر والشريف بوبغلة عامي 1851 - 1857 .

5 - الأوراس . البلازمة . الوادي الكبير . بقيادة محمد بن عبد الله عام 1858 .

6 - جبل عمور . البيض . ميزاب . تيارت . فرندة . الشعانة .
الظهرة . ورقلة . غليزان . بقيادة مجموعة من شيوخ أولاد سيدي الشيخ
عام 1864 .

7 - برج بوعريريج . مجانة . صدوق . العلة . الاخضرية
(بالسترو) ذراع الميزان ... بقيادة المقراني وابن الحداد عام 1871 .

8 - الأوراس . أولاد داود . بني بوسليمان . بني وجانة . بقيادة محمد
أمزيان بن عبد الرحمن عام 1876 .

9 - عين الصفراء . تيارت . فرندة . سعيدة . بقيادة بوعامة عام
1881 .

10 - مليانة . ريغة . بقيادة يعقوب بن الحاج عام 1901 .

11 - تاغيت . المايدة . برج بوليناك . القطارة . ميزاب .
ورقلة . بقيادة الشيخ عبد السلام عام 1902 .

12 - باتنة . عين الفكرون . خنشلة . بريكة . مروانة . عين
توتة . مستاوة . بقيادة الشيخ بن علي بن النوي عام 1916 .

وقد قمت فرنسا كل هذه الانتفاضات بوحشية ، لا يحدثننا التاريخ
كثيرا عن مثل لها ، ويبدو أن هذه الوحشية وردود الفعل الفرنسي
الاستعماري رسخ الروح الوطنية في الجماهير ، كما أن حجز الأراضي
والممتلكات الخاصة بالمقاومين والجزائريين عموما ، جعل الجزائري يقدر
أرضه ، ويموت في سبيلها .

وإن ما حدث في انتفاضة واحة الزعاطشة ، يُقدّم دليلاً قاسيا على
وحشية الجنود الفرنسيين الذين أمعنوا في التقتيل والتثيل بجثث الشهداء
الذين سقطوا في ميدان الشرف ، بعد أن أبدوا من البطولة والصمود ما
أدهش الضباط الفرنسيين .

وانتفاضة واحة الزعاطشة تعتبر امتداداً لمقاومة الأمير عبد القادر وأحمد باي ، لأنها وقعت عام 1848 لما قرّرت الإدارة الفرنسية إلزام سُكّان واحة الزعاطشة بدفع مبالغ طائلة ، الشيء الذي رفضه شيخ الواحة الشيخ بوزيان الذي جاهد بجانب الأمير عبد القادر ، وكان من بين الذين لم يتقبلوا فكرة وضع السلاح ، اعتقاداً منه أن الجهاد فريضة حتى الاستشهاد .. واقتضى هذا الرفض إعلان الثورة ضد الأوامر الفرنسية ، والاصطدام بالوحدات العسكرية الفرنسية التي توافدت من كل ناحية ، وطوّقت المنطقة ، وشدّدت الحصار على الواحة ، بعد أن ثارت الزعاطشة ثورة برزت فيها البطولات الخارقة ، ودار الاقتتال من دار إلى دار بكيفية فاقت ما دار في مدينة قسنطينة عام 1837 .. واجه الفرنسيون هذه البطولات بأعمال قمع وتنكيل رهيب ، أساءت إلى سمعة الجيش الفرنسي ، وزادت من سمعة المقاومين حتى أن بيليسي (Pellissier de raymand) نفسه صرح : « لا أخاف إذ أقول بأن مجد المنهزمين فاق وغطّى على مجد المنتصرين » (شارل أندري جوليان . تاريخ الجزائر المعاصر . ج 1 . ص 384) وأدت الوحشية بالجيش الفرنسي إلى حزن رأس الشيخ بوزيان بعد قتله ، وحزن رأس ابنه ، وأحد مساعديه في المقاومة (شارل أندري جوليان . تاريخ الجزائر المعاصر . ج 1 . ص 384) وأدت أيضاً إلى التمثيل بجثث الشهداء . وإلى رضّ الرؤوس على الجدران للتمتّع بتطاير الدماء والأفخاخ .!

وميزة معركة الزعاطشة بالإضافة إلى شخصية المقاوم الشيخ بوزيان ، هي أن واحة الزعاطشة الصغيرة بمساحتها ، الضعيفة بعدد سكّانها ، هزت الجيش الفرنسي بأكمله ، فتسارعت الوحدات العسكرية من كل صوب .. في الوقت الذي كان الفرنسيون يعتقدون بأن المقاومة

انتهت بالقضاء على الأمير عبد القادر في الغرب ، وأحمد باي في الشرق ،
وكانوا ينتظرون من الجزائريين الاستسلام النهائي ، وتقبل الواقع
المحتوم .

استفاد الجزائريون من معركة الزعاطشة دروساً :
- بأن الجيش الفرنسي الذي ارتكب الفظائع الرهيبة ، والأعمال
الوحشية بواحة الزعاطشة جيش لا يمثل أية حضارة ، ولا أية مدينة كما
يدّعي .

- بأن المصير الذي ينتظر الجزائريين هو الإبادة ، التي حلت بواحة
الزعاطشة .. ومن الأفضل لهم أن لا يموتوا جبناء .

إن توالي الانتفاضات بعد واحة الزعاطشة يؤكد بأن الجزائريين لم
يتقبلوا في أي وقت من الأوقات أمراً واقعاً مفروضاً عليهم .. ولكن أهم
انتفاضة حدثت بعد واحة الزعاطشة هي انتفاضة المقراني ، الشيخ ابن
الحداد ، وأهمية هذه الانتفاضة التي أطلق عليها الدكتور يحيى بوعزيز
« ثورة 1871 » وعبر عن هذه الأهمية في كتابه هذا بما أورده في شأنها :

« إن ثورة عائلتي المقراني والحداد عام 1871 في نظر الفرنسيين
كانت آخر وأخطر ثورة ضد الوجود الفرنسي بالجزائر التي أصبحوا
ينعتونها « بأرض الثورات » .

« والواقع أن هذه الثورة ليست آخر ثورة ، لأنها تلتها ثورات
أخرى ، مثل ثورة واحة العمري (1876) وثورة الأوراس (1879)
وثورة الشيخ بوعمامة (1881) التي امتدت إلى نهاية القرن مع بعض
الثورات والتمردات الجهادية في مطلع القرن الحالي .

« ولكن هذه الثورة من جهة أخرى كانت « خطيرة » حقا على الوجود الفرنسي بالجزائر من جوانب عديدة » .

ويمضي الدكتور بوعزيز في تعداد جوانب الخطورة كما يراها في هذه الانتفاضة :

1 - أنها امتدّت عاما كاملا من 14 جويلية 1870 إلى 20 جانفي 1872 .

2 - شملت مناطق واسعة تكاد تمثل نصف البلاد تقريبا .

3 - خاض الثوار ثلاثمائة وأربعين معركة كبيرة ضد القوات الفرنسية التي قدّرت بحوالي ثمانمائة ألف جندي وضابط ومتعاون .

4 - تغلّغت عقلية الثورة والعصيان في أدمغة الأغلبية الساحقة من الجزائريين » .

لكن الفرنسيين تعوّدوا دائما الاستخفاف بكل ما هو جزائري ، واعتباره « أهليا » حقيرا ، حتى أن الثورات والانتفاضات لا يعطونها حقّها من الإنصاف والوصف الحيادي ، وقد علق الدكتور بوعزيز على النظرة الاستعمارية لثورة المقراني والحداد .

ونظرا لأهمية هذه الثورة ، فإننا نلاحظ بأن الفرنسيين حاولوا تجريد هذه الانتفاضة من محتواها الوطني بادعائهم :

- أنها انتفاضة شخصية ، أي قامت بدوافع شخصية لدى كل من المقراني والحداد .

- أنها انتفاضة قامت بإيحاء خارجي ، فاتّهموا الدولة العثمانية ، وأنجلترا ، ومحيي الدين بن الأمير عبد القادر . والدعاية البروسية ، وأتباع الطريقة السنوسية .

ولهذا اختلق الفرنسيون تبريرات لمواجهة الانتفاضة بكل قمع
وشراسة ، وتطبيق « الإجراءات القاسية ضد أفراد أسرتي المقراني والحداد
اتسمت بالحد والضعف ، وصارت في طريق تصفية الحساب » (يحي
بوعزيز . ثورة 1871 . ص 358) .

استغل الفرنسيون الوضع ، فصادروا أملاك الأشخاص ، وأملاك
المجموعات ، وحكموا بالإعدام على البعض ، وبالنفي خارج الوطن على
البعض الآخر ، ظنا منهم أن سياسة القمع والمصادرة هي أنجح علاج
للقضاء على الروح الوطنية ، لكن الانتفاضات التي قامت وظهرت بعد
ذلك أكدت بأن روح المقاومة أقوى من القمع ، والإرهاب ، والإبادة .
ومن محاولات التبشير ، والتجنيس ، والفرنسة .

وكل ما يقال عن الانتفاضات أنها وإن لم تحقق نجاحا عسكريا ،
فإنها حققت نجاحاً أدبيا وطنيا بترسيخ الروح الثورية في النفوس وسمود
الفكر الرافض للاحتلال ، وللوجود الفرنسي بجميع أشكاله .



المرحلة الثالثة

النضال السياسي

مرحلة النضال السياسي

هذه المرحلة بالنسبة للجزائريين تعتبر مرحلة انتقالية ، انتقلوا بواسطتها ، وبعد ممارستها من المقاومة المسلحة إلى الثورة التحريرية ، وجربوا خلال هذه المرحلة عدة أساليب سياسية ، واستخدموا وسائل غلبوا فيها جانب العقل والمعرفة ضد مستعمر عَرِفَ عنه أنه لا يعترف بكفاءة الجزائري ، ولا بقدرته الذهنية على استيعاب التطور الحضاري .

والكثير من الكتاب والمؤرخين لا يربطون هذه المرحلة بالاستعداد النفسي والعمل للثورة ، ولا يعطونها من الاهتمام ما تستحقّه ، ولا يركزون في الحديث عنها إلا على جانب الصراعات الإيديولوجية والمهاترات الحزبية ، بل ويعتبرها البعض مرحلة عرقلت العمل المسلح أو العمل الثوري ، مع أنها مرحلة ذات أثر كبير في الإعداد والتعبئة لثورة أول نوفمبر 1954 ، بما أدته وقدمته من تعريف بتاريخ الوطن ، وتمجيد لماضيه ، ومن مساع للتمسك والمحافظة على مقومات شخصية الأمة ، وما هيأته من توعية ونضج ساهما كثيرا في عمليات التعبئة والتنظيم ، والالتزام ، والاستمرارية .

لقد كان الجزائريون يعتقدون بأنهم بممارسة الوسائل السلمية الهادئة عن طريق المطالب السياسية ، سيتحصلون على حقوقهم .. لكن تأكد لهم في الأخير بأن استعمال الحجة والمنطق مع عدو متعنّ لا يجدي ، فعادوا - بعد أن خابت الآمال - إلى المقاومة المسلحة من جديد عودة تداركوا فيها الأخطاء التي أضرت بالمقاومة منذ عام 1830 .

وقبل التغلغل في الحديث عن النضال السياسي ، يتحتم توضيح نقطة ، وهي أن النضال السياسي الذي عمّ مدّن وقرى القطر الجزائري ، لم يتوغل في الأرياف لدى أوساط الفلاحين بالقدر الكافي ، وأيضاً لم يهتم به الفلاحون .. ومعنى ذلك أن الريف حافظ على أصالته الثورية ، وبقي متمسكاً بتقاليده الثورية ، ولذلك وجدت الثورة في الريف رصيذاً ثميناً لا ينفد .. فالثورة وإن فجرها شبان نشأوا في أغلبيتهم بالمدن والقرى ، لم تجد لها ملجأً أميناً ، ومركزاً حصيناً ، إلا في الريف .

بعد هذا يجدر بنا أن نستعرض الأسباب أو الظروف التي جعلت الجزائريين يتحولون في مقاماتهم من الكفاح المسلح إلى النضال السياسي مع بداية القرن العشرين أو بالضبط بعد الحرب العالمية الأولى :

أولاً : ظهرت في العالم العربي والإسلامي بوادر نهضة إسلامية على يدي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وقد كانا يمثلان فكرة واحدة ، وإن كانا مختلفين في الوسائل والأساليب ، فجمال الدين الأفغاني يميل إلى النزعة التحريرية ، ويدعو إلى التحرير السياسي ، في لهجة عنيفة حادة ، معتقداً أن إصلاح العالم الإسلامي لا يمكن أن يتيم إلا بعد أن يُحرر نفسه من ربة الاستعمار الجاثم عليه ، والحرية في نظره وسيلة لإصلاح المجتمع الإسلامي .. أما محمد عبده فكان يرى بأن الحرية غاية ، وللوصول إليها لا بد من تربية الأفراد ، وإصلاح المجتمع ، وتنبيه المسلمين إلى مسؤولياتهم وواجباتهم ليقوموا بتحرير أنفسهم من الاستعمار .

وقد كان لنشاطهما وآرائهما الآثار البعيدة في العالمين العربي والإسلامي ، والجزائر من بين البلدان التي تأثرت تأثراً عميقاً بالآراء التحريرية والإصلاحية لهذين الرجلين .

ثانيا : احتكاك الجزائريين ، وخاصة المثقفين بالعالمين العربي والإسلامي ، وبالعالم الأوروبي احتكاكا مكثف من الاتصال بالعالم الخارجي ، ومن التعرف على أنواع جديدة من الكفاح ، لم يستعملوها من قبل ، أو استعملوها في حدود ضيقة جدا ، وعن طريق أفراد معزولين لا يمثلون تنظيما ، لا سيما وأنه بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت إلى الوجود شعارات التحرير : تحرير الشعوب وقد نادت به ثورة أكتوبر في روسيا ، ومبدأ تقرير المصير الذي ظهر بالولايات المتحدة .

ثالثا : بمناسبة الحرب العالمية الأولى جند الفرنسيون أعدادا كبيرة من الجزائريين وفتحوا أبواب العمل للجزائريين ، فالتحق أيضا عدد كبير منهم بفرنسا ، وشاهد أولئك وهؤلاء نمط الحياة الفرنسية ، ومدى تمتع الفرنسيين بالحرية ، في حين تمارس الإدارة الفرنسية بالجزائر تعسفا صارخا ، وفي حين يستغل المعمرون الجزائريين استغلالا فاحشا .

رابعا : ظهور بوادر ثقافية عصرية جديدة ، وأهمها الصحافة ، إذ أدرك الجزائريون أهمية استعمال الوسائل العصرية في إبلاغ الصوت الجزائري للرأي العام الجزائري ، والرأي العام العالمي ، فاستغلوا الصحافة ، وتعلم الناشئة ، لأنهم عانوا من الحملات الصحافية الفرنسية ، ومن تشويهها للحقائق ، وذاقوا مرارة ما غرسه التعليم الفرنسي من أفكار غريبة ، ومن تعقيد الفرد الجزائري ، وتفتيت المجتمع الجزائري ، ومحاولة تقسيمه إلى شعوب وقبائل متنافرة متطاحنة ، وللتغلب على هذا النوع من الغزو الثقافي رأى المثقفون الجزائريون أن عليهم واجب توعية الجماهير بتزويدها بالمعلومات الصحيحة ، وبتعليم الناشئة ثقافتها الوطنية ، وتاريخها الوطني .

ولهذا ما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى شرع الجزائريون في تأسيس الجمعيات ، والنوادي ، ونشر الصحف ، وفي عقد اتصالات مع التنظيمات خارج البلاد .. فاشتركوا مع علي باش حامي في لوزان ، وطالبوا بالحكم الذاتي لإفريقيا الشمالية ، واشتركوا بـ«مجلة المغرب» في «لجنة استقلال الجزائر وتونس» التي ورد في لسان حالها «مجلة المغرب» : «إننا جزائريون مسلمون ، وسنبقى جزائريين مسلمين» ، كما ساهموا في إطار النشاط الذي قامت به «لجنة استقلال الجزائر وتونس» ببرلين .

وهكذا نلاحظ أن الجزائريين في هذه الفترة تفهّموا الوطنية بمفهومها المعاصر ، وإن ربطوا الوطنية بثلاثة عناصر : الدين ، اللغة ، الوطن ، كما جاء على لسان عمرين قذّور :

قَلَمِي لِسَان ثَلَاثَةَ بَفْؤَادِي دِينِي وَوَجْدَانِي وَحُبُّ بِلَادِي
واستعملوا الأساليب الحديثة التي كان المستعمر يستغلها بمفرده في التأثير وتوجيه الرأي العام .. فَعَنُ طريق الصحافة مثلاً وجدنا الجزائريين يعارضون مبدأ التجنيد من ناحية المبدأ ، ويعتبرونه خرقاً للاتفاقيات الجزائرية الفرنسية ، ويشنعون بالمعاملات المجحفة التي يلاقونها المجندون الجزائريون ، مع أنهم يقومون بنفس المهمة التي يقوم بها المجند الفرنسي ، بل كان الجزائريون يطالبون بتحسين وضعهم كجنود ، ما داموا يدفعون نفس الثمن الذي يدفعه الجنود الفرنسيون ، وما داموا يموتون من أجل «الوطن الفرنسي» كما تدّعي الإدارة الفرنسية ، وإلى جانب التشجيع بانعدام المساواة في التجنيد وفي المعاملة ، فإن الصحافة الوطنية شهِرت بالجامدين ، والمتخاذلين ، والراغبين في التجنس ، والميلين للذوبان والاندماج .

هذا عمر راسم يُصدر جريدته « ذو الفقار » عام 1913 ، ويطالعنا كما قال الدكتور محمد ناصر : « بأسلوبه العنيف ، مَوْجَّهاً كلامه في غير مواربة أو خشية إلى أولئك الذين تخلَّقوا « بمفاسد التمدن الحديث » من يرتضون سياسة المداجاة والنفاق مع الاستعمار ، لأنه ملأ أفواههم بالدنانير ، فلم يستطيعوا تكلماً ، وأثقلَ صدورهم بالنياشين المزيفة ، فطأطأوا له رؤوسهم » .

« وبأن كل بلاء نزل بالمسلمين الجزائريين فَرَدُّه إلى هؤلاء الذين جمعوا بين الحِستَيْنِ ، فقد باعوا جنسيتهم ودينهم عندما فضلوا عليها « مفاسد التمدن الحديث » وباعوا ضمائرهم وأوطانهم عندما باتوا ألعوبة بين يدي السلطات لقاء منصب أو لقب سام » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج 1 . ص 78) .

بل نرى أن عمر راسم يكتب بمرارة تدلُّ على الألم الذي يعتلج في صدره ، فهو الذي يقول أيضا : « كيف يكون المسلم مسلماً في بلدٍ خلَّتْ مساجده من الراكعين الساجدين ، وامتلأتْ شوارعه باللصوص والفقَّار والسكَّيرين ؟ كيف يكون المسلم مسلماً في بلدٍ ظهرت فيه الأثرة ، وحبُّ النفس ، وعبادة المال ، والانسلاخُ من الدين ، والتظاهر بالفحشاء ، وتقليد الكافرين ؟ كيف يكون المسلم مسلماً في بلدٍ انتشر فيه الربا والسلب والنهب ، وقويت فيه عوامل الجفاء ، وبات كلُّ يترقَّبُ إفلاس أخيه ساعيا في تنقيص قدره وفضله ، بل أعان اليهودي عليه ، لا شكَّ وأن السلطة البشريَّة تنعَدِم في أمةٍ تبادلت مع حيواناتها الأخلاق ، فلا يكون لوفاء العهد - وهو الخلق العظيم - مظهر إلا في كلابها ، ولا يوجد الاعتماد على النفس إلا في وحوشها الضارية ، ولا

التطوُّحُ والاعتِرابُ في طلبِ القوتِ إلا في جوارحِها وطيورها ، إذن
فليَقْضِ على هذه الأمة قاضي النواميس الطبيعية أن تكون حقيرةً ذليلةً
مُحكَّومةً مأسورةً » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج 1 .
ص 79) .

ومنذ عام 1916 انطلقتِ الطلائع الجزائرية تُغذي الروح الوطنية ،
وتوقِّظُ الهِمم ، داعية إلى :

- العلم والتعلم والتثقف
- التطوُّر في حدود القيم العربية الاسلامية .
- الاعتزاز بالاسلام والتضامن الإسلامي .
- التمسك بالأصالة الجزائرية
- التعريف بالتاريخ والشخصيات الجزائرية .
- تقديم المطالب والمناذاة بإصلاح الأوضاع .
- ونددت في الكثير من الأحيان بلهجة شديدة :
- بالتجنيد الاجباري .
- بالتجنيس .
- بالاندماج .
- بالخرافات والبدع .
- بالتبشير المسيحي .
- بالقوانين الجائرة .
- بالآفات الاجتماعية .
- بالظلم الاجتماعي والإداري .

ولكن الشعور بالظلم والجور كان أبرز ما في كتابات الجزائريين ،
ومن ذلك ما كتبه جريدة « الحق » التي كانت تصدر بعناية ، والتي

قال فيها الكاتب مشيراً إلى « دار الحاكم » الفرنسي : « انظر لهذا القصر المنيف الذي هو داخل القرية المتزجة ، وهو مسكن (باشا) يقال له (أدمنستراتور) ، وهو حاكم الدائرة ، وهو مولاك بعد الإله ، وله قدرة عليك بالسب والشم والضرب والسجن وغيره » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج ٦ . ص 299) . وفي مواجهة هذا الخيف والجور ، كان الكتاب يدعون الشعب إلى اليقظة وإلى الاتحاد ، والاعتداد على النفس ، وأحياناً يستعملون أسلوب التهكم ، كما جاء في جريدة « الحق الوهراني » حين استعرض الكاتب الذلّ الذي أصاب المسلمين ، إذ أجاب هؤلاء على لسان الإدارة الفرنسية قائلاً : « لا فائدة لكم أن تمنوا راحة من المصائب التي حلتْ بكم إذ لا قدرة لكم على فعل شيء بأنفسكم ، ونحن وإن كنّا نحبّكم ونخوّلهمومكم ، فلا قدرة لنا على فعل شيء لكم ، أنتم مغلوبون ، فاهجروا ، أو اصبروا ، واقرأوا من كتابكم مواعظ الصبر لتتحملوا استيلاء الغالب » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية ج ١ . ص 300) .

إن الشعور بانعدام العدالة كان شعوراً سائداً أيضاً بين الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي ، لأنّهم يعيشونه يومياً ، لا فرق في ذلك بين الجندي البسيط ، والضابط السامي ، هذا أحد الضباط الجزائريين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى بجانب الجيش الفرنسي يعبر عن مرارته ، ويقول : « إن من الأسف العظيم أن يرجع مثلكم العدل والحرية بإحدى اليدين ما أعطوه باليد الأخرى ، في مقابلة الإخلاص وسفك الدماء الشريفة دفاعاً عن فرنسا .. أيّها الشجعان الذين بذلتم النفس والنفيس ، أين الجزاء ؟ أين الخطب ؟ أين المواعيد ؟ كلها سحب خلب ، نعوذ بالله من الكذب ونكران الإحسان ، أيّها الشبان

الذين قاسيتم الشدائد ، وحصدتُ زهرة شبابكم ، فأثقال الظلم لا زِلْنَا
تحتَ قهرِها ، تالله إن هذه المحقرة والفضيحة ما سبقنا بها أحد من الإنس
والجنِّ ، قد قامتُ قيامتنا » (محمد ناصر . المقالة الصحفية الجزائرية .
ص 305) .



الأمير خالد

نضال الأمير خالد

الأمير خالد من أحفاد الأمير عبد القادر ، تحصّل على درجة ضابط من سان سير بفرنسا عام 1897 ، ولرفضه التجنّس بالجنسية الفرنسية اعتُبر ضابطاً أهلياً (à titre indigène) ولمّا ألمّ به المرض وتقاعد عام 1919 فضّل الإقامة بالجزائر ليتفرّغ للنشاط السياسي دفاعاً عن بني قومه وبلاده .. وقد أظهر فعلاً في مجال الدفاع والوطنية مقدرة فائقة ، وشجاعة نادرة ، وهمة عالية ، ومواقف صلبة .. واختار لنضاله أربعة وسائل :

- 1 - الصحافة ، وأنشأ صحيفة « الإقدام » التي نالت شهرة وسمعة .
- 2 - الخطب ، وخاصة في الحملات الانتخابية ، وكان يحضرها ، ولا يتخلف عنها للتنديد والتشهير بالخونة والمتجنسين والمتخاذلين ، وله في ذلك مواقف موفقة .
- 3 - المجالس المنتخبة ، وقدم على منصّاتها وعن طريقها عرائض ومطالب ، ونادى فيها بالمساواة ، وإعادة الاعتبار « للأهلي » المحقر .
- 4 - الاتصالات بالشخصيات الفرنسية ، بالنواب والوزراء ورؤساء الجمهورية ، وبالشخصيات العالية ، وقد كاتبها وأبلغها وضعية الجزائريين في بلادهم .

امتاز الأمير خالد في ذلك العهد بميزات :

أولاً : اعتزازه بكفاح آبائه وأجداده .. في الوقت الذي كانت العائلات الشهيرة بالجزائر تتقرب إلى الإدارة الفرنسية بتبرئها من كل مقاومة ، أو بتبجحها بأن آبائها وأجدادها كانوا في خدمة الجيش الفرنسي ومساعدته على الاحتلال ، أو بالتفاخر بأن من هؤلاء الآباء والأجداد من مات في سبيل فرنسا .

واعتزاز الأمير خالد بكفاح أجداده جزءاً من الاعتزاز بالتاريخ الوطني ، عبّر عنه في كتاباته وفي شتى المناسبات ، ومما قاله : « إن أجدادنا قد أضرموها حرباً حامية الوطيس مدى 15 عاماً وأزِيد ، ولم يكن النصر حليفهم ، ولكنّ تقدير بطولتهم وشجاعتهم وشهامتهم حقّ ثابت لا ينبغي أن ينكره المنتصرون علينا ، كما لا ينبغي لي - أنا حفيد الأمير عبد القادر - أن أسكت عنه مثلاً فعل كثير من المنتخبين » .

لاقى هذا الاعتزاز صدًى طيباً ، وحماساً لدى الجموع والجماهير ، فأقبلتْ تؤيد الأمير خالد ، وتهرع للاجتماعات التي يُشرف عليها ، وتقبل على سماع خطبه وقراءتها بشوق ، معتبرة إياه سليل المقاومة ، وحفيد رمزها .. لذلك حظي باحترام وشعبية لم يحصل عليها غيره من قبل .

ثانياً : غيرته الإسلامية .. والإسلام في ذلك العهد لا ينفصل عن اللغة والوطن ، والدفاع عن واحد منها دفاع عن الجميع ، والوطني الذي لا يعتر بلغته ودينه لا يُعتبر وطنياً في نظر الجماهير .

والأمير خالد في مقاومته تصدّى لواجهتين : واجهة الجزائريين الملحدّين والمتجنّسين الذين اعتزوا بانسلاخهم من دينهم ، وتخلّوا عن

جنسيتهم ، ورأوا في انتسابهم إلى الفرنسيين مفخرةً وشرفاً .. وواجهة المعمرين والنواب الحاقدين الذين كانوا يتحيتنون المناسبات والفرص للتعريض بالإسلام ، والتشجيع بالمسلمين .. وكانت معارك الأمير مع هؤلاء وأولئك معارك شرسة ، استعمل فيها كل طاقاته الفكرية ، وكلّ حماسه الدينية للردّ عليهم جميعاً في جريدته « الإقدام » التي جعلها منبرا للوطنية .

فقد ردّ على أنجلي الذي عبّر عن نظرة الأوروبيين وقال : « إن جماهير المسلمين لا تزال تعيش في غياهب الجهل ، وتكاد ألاّ يلمع عليها بصيصٌ من الحضارة الأوروبية ، فالمسلمون متخلفون جداً ، منزلون بأنفسهم من أجل تعصّبهم الديني الذي لا ينسجم مع منحهم الحق السياسي والاجتماعي على قدم المساواة مع الفرنسيين ، وإعطاؤهم مقاعد النيابة أو عضوية مجلس الشيوخ أمرٌ سوف لا يجدي نفعاً ، بل هم في حاجة أكيدة إلى زيادة في التربية والتعليم حتّى تكون لهم قابلية لهضم المدنية الأوروبية ويصبحوا قادرين على اكتساب وتطبيق الأساليب الحديثة للتنمية الاقتصادية ، فقد يطالب نوابهم باستقلال الجزائر باسم مبادئ ويلسون في الحين الذي تباع فيه نساؤهم رقيقاً » .

لم يتقبل الأمير هذا التحامل ، ولا هذه الاتّهامات ، فكتب رداً فيه اعتزاز وعنف وحكمة ، في صحيفته « الإقدام » :

« إن المسلمين قد أفادوا أوروبا إلى حدٍّ بعيد بمدنيتهم ، وإنّه لا جدوى من الكلام مع الوطنيين الجزائريين عن أساليب التنمية ما دام هناك استمرارٌ في إحداث مراكز جديدة للاستعمار ، وما دام تطبيق قانون طورانس (وهو قانون يُحدّد ملكية المسلمين ويمنح المعمرين حق الاستيلاء عليها متى شاءوا ..) .

« كثيرا ما قيل عن المرأة المسلمة إن الصداق الذي يُؤدّيه لها زوجها إنما هو ثمن شرائها ، ففي بلادكم أنتم أيها الأوروبيون تشتريكم نساؤكم ، وفي أوروبا كلّها زيجات المتعة والمنفعة ، وفيها كلّها لبس وإكراه ، وكذلك يُشاهد المرء اليوم في شوارع باريس فتيات يكاد عمرهن لا يتجاوز 12 سنة يتعاطين البغاء جهرة ..

« إن الاستعماريين الأوروبيين وأعاونهم فضّلوا أناسا جهالا عيّنوهم تعييناً على المثقفين المسلمين المخلصين الذين كان الشعب يريد انتخابهم ، فحالوا دون ذلك ، وأتهموا هؤلاء المثقفين بالوطنية المتعصبة ، وبالنزوع إلى الاستقلال التام » (من مقال « الأمير خالد ونشاطه السياسي » بقلم محفوظ قداش في مجلة « تاريخ وحضارة المغرب » العدد 4 يناير 1968) .

ثالثا : تحمّسه للقضايا الوطنية ، وهو تحمّس نابع عن شعوره بمسؤوليته كحفيد للأمير عبد القادر ، وكضابط خريج سان سير ، لا يرى غضاظة في الدفاع عن علم فرنسا ، ويرى بأن اشتراكه في الحرب بجانب الجندي والضابط الفرنسي يُخوّله حقّ الدفاع عن بلاده ، وعن بني جلدته ، ويظهر هذا فيما نقله جان ميليا (Jean mélia) على لسانه : « إن دمي لا يجبرني على السكوت ، وإن أمانتي وولائي المخلص اللذين أتاحا لي ، بعد تخرّجي من سان سير أن أحارب في صفوف الجيش الفرنسي ، وفي الصفوف الأولى منه ، فإنّها يجب أن يتحالي كذلك ألا أقف أمامكم موقف الذلّ والهوان عند مناقشة الأفكار والمشاريع التي تهّم إلى حدّ كبير مستقبل الجزائر وفرنسا ، فالجزائر هذه كانت - ولا تزال - أرض أجدادي ، فهي تحضن اليوم شعبين يتقاربان بعد أن كانا يتحاربان » (المرجع السابق) .

وفي إطار تحمسه ، أجرى اتصالات بشخصيات فرنسية وعالمية ،
وكتبهم بخصوص رغبة الجزائريين وأوضاعهم السيئة التي كانوا يعيشون
فيها ، ومن بين الذين وجّه لهم رسالة - تعتبر تاريخية - رئيس
الولايات المتحدة ويلسون الذي رفع شعار حق الشعوب في تقرير
مصيرها ، وقد كان هذا الشعار ملاذ كل الشعوب المضطهدة .

رابعا : تمكّنه من تحديد برنامج واضح لحّصه في رسالته التي بعث
بها إلى رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك « هيريو » جاء في هذا
البرنامج :

1 - مساواة التمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي بين الجزائريين
والأوروبيين القاطنين بالجزائر .

2 - إلغاء القوانين والإجراءات الاستثنائية الخاصة بالجزائريين في
المحاكم الرادعة والمحاكم الجنائية إلغاء كاملا نهائيا ، وإبطال الرقابة الإدارية
مع الرجوع إلى القانون العام دون قيدٍ ولا شرط .

3 - نفس الحقوق والواجبات مع الأوروبيين في الخدمة العسكرية .

4 - ارتقاء الجزائريين إلى جميع الرتب المدنية والعسكرية دون
تقييد ذلك بشرطٍ سوى الكفاءة والمقدرة الشخصية .

5 - تطبيق قانون التعليم الإلزامي تطبيقاً شاملاً على الجزائريين مع
الاحتفاظ بحرية الاختيار في نوع التعليم .

6 - حرية الصحافة والاجتماع .

7 - تطبيق قانون فصل الدين عن الدولة على الشريعة الإسلامية .

8 - عفو عام عن المعتقلين والمتهمين .

- 9 - تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الجزائريين .
10 - الحرية المطلقة للعمّال الجزائريين من جميع الحرف والمهن في الذهاب إلى فرنسا .

ومِمّا جاء في رسالته التي وجّهها إلى الرئيس ويلسون سنة 1919 :

« فأتساءل معركة غير متساوية ، ولكنها رغم ذلك كانت مشرّفة لأبنائنا ، ناضل الجزائريون طيلة سبعة عشر عاما بمثابرة وقوّة لا مثيل لها بهدف ردّ المعتدي ، والعيش في استقلال ، ولكنّ حظوظ السلام لم تكن للأسف في صالحهم ، ومنذ التسعة والعشرين سنة التي عشناها تحت السلطة الفرنسية ازددّنا فقراً ، بينما ازداد المنتصرون غنى على حسابنا » .

وتواصل الرسالة الحديث عن خرق الفرنسيين للاتفاقية المعقودة بين الجزائر وفرنسا ، وعن الوعود المعسولة في الوقت الذي تصاد فيه الإدارة الفرنسية أراضي الجزائريين وتحدّ من حرياتهم ، وتعتدي على الشعائر الدينية باستعمال المساجد أماكن للتظاهر الفرنسي ، وترهق الأهالي بضرائب تفوق الطاقة .. بل إن الجزائريين كانوا يموتون في سبيل فرنسا بدون مقابل ولا احترام ، كما ورد في الوثيقة نفسها : « إن مات الألوّف قد سقطوا منا في مختلف ميادين القتال ، محاربين رغم أنوفهم ضد شعوب لا مطمح لهم فيها ولا في أموالها » .

ناضل الأمير خالد نضالا اعتبره بعض الاستعماريين امتدادا لمقاومة جده الأمير عبد القادر ، وهم في ذلك ليسوا مخطئين ، لأنّ نضال الأمير خالد إنّما هو حلقة من سلسلة المقاومة الطويلة .. والدليل هو أن الفرنسيين ضاقوا ذرعا بالأمير خالد ، وقرّروا نفيه من البلاد ، معتقدين

أنهم يستريحون منه بهذه الطريقة ، وتهداً البلاد بنفي شخص تحوّل إلى رمز نضال .. إلا أن الوعي الوطني الذي عمّ الجزائر انتقل إلى العمال الجزائريين في فرنسا ، ولذلك ما كاد الأمير يطأ أرض فرنسا حتّى وجدَ ترحاباً وطنياً رائعاً ، تطوّر إلى شعور وطني عمالي ، وإلى نواة تنظيم وطني فيما بعد ، عُرِف باسم « نجم شمال إفريقيا » ، اختير الأمير خالد رئيساً شرفياً له ، تكريماً لكفاحه ونضاله ، وعن طريق النجم بدأت فكرة الاستقلال تُخامِر الأذهان ، وتتبلور في النفوس والمحافل السياسية .. ومعنى ذلك أن نضال الأمير خالد لم يذهب سدى ، بل أسفر عن نتائج مباركة ، ولم يغادر الوطن إلا بعد أن تسلّم منه جزائريون آخرون راية النضال .



نجم شمال إفريقيا

تأسيس نجم شمال إفريقيا

كتب الدكتور أبو القاسم سعد الله عن نجم شمال إفريقيا ما يلي :
« إن ميلاد نجم شمال إفريقيا كان أحد الأحداث العظيمة في التاريخ السياسي للجزائر ، فقد ساهم بنطاقه واتجاهه الثوري ، وأمدّه في تدعيم وتوجيه الحركة الوطنية الجزائرية بشكل فعّال ، والنجم الذي وُلِدَ مِنْ رَمَادٍ كَثِيرٍ مِنَ المحاولات الوطنية في العقود السابقة ، والذي كان يُشجّعه تأييد اليساريين الأوروبيين ، وتطورات الشرق الأدنى ، حاول أن يُدخل عناصر جديدة في السياسة الجزائرية ، ولكن مساهمة النجم خلال الفترة المدروسة لم تكنْ مدهشة كثيرا ، لأنه قد واجه عقبات مختلفة من السلطات الفرنسية ، وكان محاربا من الشيوعيين لموقفه الوطني الضيق ، وكان يقوم بنشاطه خارج الوطن ، وقد ساعد على تثقيف الجماهير سياسيا ، ولا سيما المهاجرين الجزائريين في فرنسا وأوروبا ، بالإضافة إلى الطلبة ، كما جعل القضية الجزائرية معروفة عالميا ، ولم تحن سنة 1930 حتى بدأ النجم يتسرّب إلى الجزائر أيضا » (أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية . ج 2 . ص 426) .

حقا ، إن نشأة نجم شمال إفريقيا حدث من « الأحداث العظيمة في التاريخ السياسي للجزائر » وفي تاريخ الحركة الوطنية ، والاتّجاه الاستقلالي الثوري نحو الحلّ الجذري للأزمة الجزائرية التي تعمّدت واستفحلت بتوغل الاستعمار الفرنسي في كل مرافق الحياة للبلاد

استفحالا أدى إلى تضعف الروح الوطنية ، وإلى انتشار التيارات الانهزامية المترددة المضطربة ، وتأييد الإدارة الفرنسية للعناصر الاندماجية المتخاذلة التي لا ترى حلا للمشكل الجزائري إلا في الذوبان والاندماج ..

في مثل هذه الظروف انبعث النجم .. في أي مكان ؟ ومن أية طبقة هؤلاء الذين أسسوا النجم ؟

قبل الخوض في هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى أن هناك دراسات قدمت حول نجم شمال إفريقيا ، كانت لحد الآن غير كافية ، ما عدا الأطروحة التي قدمها الدكتور زوزو عبد الحميد تحت عنوان « دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية بين الحربين (1919 - 1939) » ، وقد أدرك زوزو ما يمكن أن يجول في أذهان البعض إذا ما استعرض أيُّ باحث الجهود الوطنية ، وتأثير نجم شمال إفريقيا على الحركة الوطنية .. يجول في بعض الأذهان أن هناك مبالغة أو إعجابا مفرطا . فقال تنبيهها لهذا البعض : « وقد يبدو للبعض أن هذه الدراسة فيها إعجاب « بالبطل » ، وهو هنا النجم وخلفه حزب الشعب ، وإذا كانت تبدو كذلك ، فهي لا تزيد في نظرنا عن كونها تعبيراً عن الواقع بكل موضوعية ، لأن الرسالة هدفها تحقيق عمل مثمر نزيه ، خال من كل عاطفة ، ومجرد من كل ميل » .

من الطبيعي أن يلاحظ وجود فراغ في التاريخ لحزب « نجم شمال إفريقيا » ، وورثيه « حزب الشعب الجزائري » ، و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » اللذين ورثا النجم تنظيمياً ومبادئاً ، ولهذا الفراغ أسباب :

- أن الحزب ورجاله استنفدتهم العمليات النضالية اليومية ، ولم
تُمكنهم من فرصة لتسجيل الأحداث والتطورات التي عاشها الحزب .

- وضعية الحزب السرية التي كانت تقتضي تحجُّب التسجيل ، حفاظا
على السرية ، خاصة وأن الشرطة تلاحق أعضائه يوميا .

- تكوين الحزب نفسه .. فقد تكوّن في بداية الأمر من فئة العمال ،
التي لا تمتلك ثقافة تساعدها على الكتابة والتسجيل والتحليل .

- المضايقات البوليسية للحزب ورجاله ، والتفتيشات التي انجرّ عنها
في كثير من الأحيان حجزُ كميات هائلة من الوثائق والتقارير والمناشير
والصحف .

هذه الأسباب جعلت أكثرية الذين يتصدّون للكتابة عن النجم ، أو
حزب الشعب الجزائري ، أو حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ،
يلجأون إلى الشهادات الشخصية أكثر مما يلجأون إلى الوثائق ،
ويراجعون تقارير الشرطة الفرنسية والولاية العامة .

ونحن بهذه المناسبة لا نستطيع التطرق إلى حياة النجم من جميع
الجوانب وإنما سنركز على البعض الذي يبيّن أهمية هذا التنظيم ودوره في
تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية والعمل الثوري .

أولا : قبل عام 1926 لم يحدثنا تاريخ الجزائر خلال الفترة
الاستعمارية عن عمال تزعموا تنظيما ، أو انتفاضة ، أو ثورة ، بل حدّثنا
عن زعماء دينيين ، وعن رؤساء قبائل ، وعن شخصيات اشتهرت
بثقافتها أو بمركزها الإداري أو المالي أو العائلي ، ومن مراجعتنا لِسجَل
المقاومة نجد أن المقاومة دائما تتشكّل من عنصرين : عنصر الزعماء ،

وعنصر الفلاحين ، وأنه غالبا ، ما تنطلق المقاومة المسلحة من الأرياف ، ولم يكن حظُّ المدن فيها كبيرا .

أما في عام 1926 ، فإننا نجدُ أن العامل الجزائري الذي غادر بلاده طلبا للعيش ، واكتسابا للرزق ، أو فراراً من الاضطهاد ، يبقى رغم الغربة والهجرة والبعد مرتبطا ببلده ، فيشتدُّ به الحنين ، ويُقارن بين مستوى حياة الفرد في فرنسا ، وحياة الفرد الجزائري في فرنسا ، ويلاحظ الحيف والجور والاستغلال الفظيع ، ويتألم حين يرى نفسه عاجزا عن تحديد هويته الوطنية !. إنه يعرف ويتأكد بأنه جزائري ، ويعتز بهذه الجزائرية ، إلا أن الوثائق والبطاقات الشخصية التي يحملها ، تحمل في طياتها وسطورها مسخاً لجزائريته ، فلا هو بالفرنسي الذي يحقُّ له أن يتمتع بما يتمتع به الفرنسي ، ولا هو بالجزائري الذي يحقُّ له أن يتباهى بنسبته لبلاده ، ولا هو بالمسلم الذي يجدر به أن يعتزَّ بدينه وأصالته .. ولهذا نراه يبحث عن هويته في اجتماعاته مع إخوانه ، في إقباله على المحاضرات واللقاءات التي تتحدث عن بلاده ، وعن كل ما يربطه بها .

ما إن تسامع العمال الجزائريون بوجود الأمير خالد بينهم ، حتى هرعوا إليه يشتمُّون فيه رائحة الوطن ، ويقدرُّون فيه شهامة المقاوم ، ويستمعون في شوق ولهفة لحُطْبِهِ ومَحَاضِرَاتِهِ وأحاديثه التي كان لها صداها في أوساط الهجرة ، وخلقتُ جوًّا من التضامن والإخاء بين العمال الجزائريين على أساس الصلة الوطنية لا القبلية .. ولا الجهوية .. وأحدثتُ هذه الصلات استعدادا وطنيا ونفسيا لدى المهاجرين .

ثانيا : الروح الوطنية تغلبتُ على كل النوازع والعوامل الذاتية في أفراد تنظيم « نجم شمال إفريقيا » رغم ثقافتهم المحدودة ، وبهذه الروح

تَكُونُوا من توحيد صفوفهم ، وتكوين تنظيماتهم ، وشُعَبِهِم ، مستغلين وضعهم النقابي الذي يُتيح لهم نوعاً من التحرك .. وتدعيم الحزب الشيوعي لهم مُقابل أن يُدعموه ضد أحزاب اليمين من ناحية ، وضد الحزب الاشتراكي من ناحية أخرى .. رجال النجم احتفظوا بشخصيتهم الجزائرية التي عجزت الإيديولوجية الشيوعية عن إذابتها داخل تنظيم شيوعي واسع ، كما عجزت عن تسخيرهم ، وحصَر نشاطهم داخل المطالب الاقتصادية والاجتماعية للعامل الجزائري ، وهي المحاولات التي اضطرت النجم فيما بعد إلى الاصطدام بالحزب الشيوعي ، وإلى إعلان استقلالته ، وهو يعلم ما تجرّه الاستقلالية من مضايقات وملاحقات ومحاكمات ..

ثالثا : الاستعداد لتحمل المسؤولية .. يبدو من خلال تتبع نشاط رجال « نجم شمال إفريقيا » أنهم كانوا شاعرين بمسؤوليتهم التاريخية النابعة من تاريخهم القديم ، ولذلك رفضوا التوقف عند حدود المطالب الاجتماعية النقابية البسيطة ، وقاموا بواجبهم في التشجيع بالوضع السيء الذي تعيشه بلادهم .. وإلى تنبيه الرأي العام الفرنسي والعالمي ، وتزويدهما بمعلومات حول القضية الجزائرية .

تحمّل رجال النجم مسؤوليتهم داخل الحزب الشيوعي ، على أن يكون هذا الحزب نصيرا للحرية ، وللشعوب المستعمرة .. وتحملوا أيضا مسؤوليتهم داخل النقابات ، على أن تكون هذه المنظمات النقابية إنسانية عادلة ، لا تفرق بين العامل في الجزائر ، والعامل في فرنسا ، وركزوا داخل هذه النقابات على مبدأين : الديمقراطية والمساواة .. وتحملوا مسؤوليتهم الوطنية أخيرا عندما أصدروا خارج هذين التنظيمين الشيوعي والنقابي مناشير خاصة بالقضية الجزائرية ، وأنشأوا صحافة وطنية تعبّر عن مشاعر الجزائريين ، وأعطوا لصحافتهم عناوين تتحدّى الإدارة الفرنسية والسياسة الفرنسية ، فسمّوا صحيفتهم الأولى « الإقدام

الباريسي » ، وفي هذا تعبير كبير على التواصل الوطني بين الجزائري كبلد ، وفرنسا كهجر .. فالإقدام كانت تصدر بالجزائر تحت مسؤولية الأمير خالد ، ومُنعت من الصدور بأمر من الادارة الفرنسية ، . وها هي تصدر في باريس عن طريق العمال المهاجرين .. فهو متحد وتواصل وارتباط وثيق .. وأيضا سَمّوا صحيفتهم بعد ذلك « الأمة » في الوقت الذي تحاول فيه فرنسا القضاء على كل مقومات الأمة الجزائرية ، بل نرى أن رجال النجم حينما أصدروا صحيفة « الأمة » نصّوا على أنها « جريدة وطنية سياسية للدفاع عن حقوق مسلمي شمال إفريقيا » ورسّموا في صدر الصفحة الأولى رسماً للهِلال والنجمة ، وملأوا داخل الهلال بالآية القرآنية الكريمة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » كل هذا عرّض النجم ورجاله لمضايقات ومناورات من طرف الحزبيين الفرنسيين ، وبدل أن يفشلوا أو يخضعوا للمساومات ، وجدنا رجال النجم يشتركون رغم الضغوط في مؤتمر بروكسل عام 1927 وهو مؤتمر نظمته « الجمعية المعادية للاضطهاد الاستعماري » وحضرته وفود من كل القارات .. وفي هذا المؤتمر العالمي ، وأمام شخصيات عالمية مشهورة أمثال نهرو وحتّا يعلن رجال النجم مطالبهم ، ومن أهمّها :

1 - الاستقلال الكامل للجزائر .

2 - جلاء الجيش الفرنسي عن التراب الجزائري .

3 - إنشاء جيش وطني .

4 - إنشاء برلمان وطني جزائري .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد بأن النجم اتخذ مسارا وطنيا صرفا بعيدا عن كل التأثيرات .. والضغوط .. بفضل الروح الوطنية الفياضة التي كان رجاله يتحلّون بها .

رابعاً : الصلابة في المبدأ .. ذكر الدكتور زوزو عبد الحميد مبدأ النجم قائلاً : « تبنت منظمة نجم الشمال الإفريقي إيديولوجية متطرفة من البداية ، ولكنها واضحة وعميقة .. فهي إيديولوجية متطرفة لانطلاقها من مفهوم « الاستقلال » وقد كانت المطالبة به وقتها ضرباً من التطرف ، ونشدانا للمستحيل » .

ولم يكتف الدكتور زوزو بتقرير هذه الحقيقة ، بل أجرى مقارنة بين مطالب النجم كحركة وطنية ، وحركات وطنية عربية أخرى ، للتأكيد على أن النجم كان رائداً ، ومتقدماً على تنظيمات عربية أخرى .. فقال : « وفي إمكان المرء تصور زيادة هذا المطلب بمقارنته بمطالب الحركات الوطنية الأخرى ، فكل من الحركة الوطنية المصرية والتونسية مثلاً ، وقد خضعت لكتاهما لاستعمار أقل عنفاً من استعمار الجزائر ، لم تطالب في البداية بالاستقلال هكذا صراحة ، وإنما كانت تشير إليه ضمناً من خلال مطالبتها بالدستور والجلء » .

ولم يغفل زوزو تعليل ذلك قائلاً : « ولعل تأكيد النجم على الاستقلال في نظرنا كان متناسباً مع شدة طبيعة النظام السياسي في الجزائر ، ومع عنف القوانين المكبلة للشعب الجزائري ، فالجزائر كانت قد جردت من شخصيتها السياسية ، وأعلنت « بقانون إلحاقى اعتباري » جزءاً من فرنسا كما جرد شعبها من حقه في الحياة بخضوعه لقوانين استثنائية جائرة » .

إذن ما دام المطلب سامياً وغالياً ، فإن التضحية لابد أن تكون جسيمة ، ولابد أن تكون المعركة طويلة وحادة ، وهو ما أدركه مؤسسو النجم منذ البداية ، فأعدوا أنفسهم للتضحية ، وتحذوا الاستعمار في عقر داره ، وتحملوا كل النتائج .. وتعرض حزب « نجم شمال إفريقيا »

للحل . وبقيت إدارة المؤسسين صلبة متماسكة .. وكلما حُلّ التنظيم بقرار إداري ، أعادوا تشكيله . بعنوان آخر جديد ، حتى عام 1937 حيث أسسوا « حزب الشعب الجزائري » على أساس أن يتخذ من أرض الوطن ميدانا لنشاطه بعد أن ظهرت الأفكار الاندماجية بحدة إثر المؤتمر الإسلامي الذي انعقد عام 1936 .

وهكذا تبدو الصلابة في العناصر الآتية :

- 1 - تخلص رجال النجم من الهيمنة الحزبية السياسية الشيوعية .
- 2 - برهنتهم على مقدرتهم في التنظيم والكفاح .
- 3 - التصميم على أن لا ينحلّ الحزب بمجرد قرار إداري .
- 4 - الاستعداد للتضحية في سبيل المبدأ .

وفعلا .. لقد استشهد المئات من رجال حزب الشعب الجزائري ، وعلى رأسهم : كحال أرزقي ، دوار محمد . إبراهيم غرافة . السعيد الاعجل . وأصيب الآلاف من مناضليه بأمراض خطيرة نتيجة التعذيب والسجون .

خامسا : التكوين الثوري .. وهذا أهم ما يمتاز به هذا الحزب .. ما دام مبدأ الاستقلال مبدأ ثوريا ، وإيديولوجية تهدف إلى تغيير الأوضاع السائدة .. وما دام الاستقلال مطلباً ثانياً ، يُنتزع بالقوة ولا يُوهب .. فإنّ على الرجال الذين يعتقدون هذا المبدأ أن يكونوا في مستوى الطموح الثوري ، وفي مستوى عملية التغيير الجذري .

وهذا ما جعل النجم والحزب فيما بعد يخوضان المعركة الاستقلالية بضراوة مستعملين أساليب قاسية قساوة الكفاح الثوري التي لا يتفطن إلى شراستها العديد من الجزائريين آنذاك .. أو قد لا يتصورها شباب

اليوم .. ومن هنا كانت مهمة النجم صعبة .. ابتداءً أولاً بنوعية ، العمال ، وإعادة الثقة إليهم ، حتى ينخرطوا ويشاركوا في الاجتماعات ، وتكليفهم بمهام من حين لآخر ، قصد انتزاع عقْدِ الخوف والنقص من نفوسهم ، وفي الخطوة الثانية دخل الحزب مرحلة فرض وجوده بطبع المناشير وتوزيعها ، وتأسيس وطبع الصحافة وتوزيعها ، وبالتنديد بمساويء الاستعمار ، والتشهير بفظائعه ، عن طريق الاحتجاجات والتظاهرات والتجمعات .

وجاءت المرحلة الثالثة وتمثل في خلق المشاكل للإدارة الفرنسية بالقيام بأعمال تخريبية بين الفينة والأخرى ، وبالكثابة على الجدران . أما المرحلة الأخيرة فانصبّت في التفكير جدياً في تنظيم ثورة ، تتعدّى حدود الاحتجاجات والتنديد .. وتتجاوز الكثابة على الجدران وإطار القيام بمظاهرات .

وقد انعكس هذا التكوين الثوري على ثورة أول نوفمبر 1954 ، حيث تغلبت الإرادة على الخوف والتردد ، . وحيث حل التنظيم الجماهيري محل الفوضى والعَوَّائية المعتادة في الانتفاضات السابقة .. وحيث تحمّل كل فرد في هذه الأمة مسؤوليته ..

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من الحديث عن النجم إيراد ما كتبه الدكتور عبد الحميد زوزو في كتابه « دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919 - 1939) » ، قال الدكتور زوزو : « كان دور النجم وحزب الشعب في الحركة الوطنية الجزائرية خلال فترة الحربين إيجابياً ، بتوعية العمال توعية قومية ، وكان هؤلاء العمال ، بتنقلاتهم - كالتيار ، ينشرون الوعي ، وينقلونه بين

الجزائر وفرنسا ، وكان دور النجم وحزب الشعب إيجابيا أيضا بتعريفه بالحركة الوطنية الجزائرية في فرنسا وخارجها ، وإطلاع الرأي العام على الوضع الشاذ للجزائر المحتلة ، وأخيرا تدعيم الحركة الوطنية الجزائرية بإيديولوجية وأسلوب عمل ، وباللغة الحزبية والجرأة السياسية مما ساعدها على استئناف نشاطها بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها .



جمعية العلماء المسلمين
الجزائريين

تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

التنظيم الوطني الثاني الذي ظهر بعد تأسيس النجم بحوالي خمس سنوات هو تنظيم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ، ولهذا التنظيم أهميته في تاريخ النهضة الجزائرية الحديثة ، وفي تاريخ الإصلاح الديني بالمغرب .

وأهميته تبدو من خلال استعراض بعض العناصر ذات التأثير في التاريخ الجزائري الحديث ، ومن بينها :

أولاً : أن تأسيس « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » عام 1931 جاء إثر احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر ، وهو احتفال أعطته من العناية والميزانية عناية فائقة ، وأظهرت فيه من الأبهة والفخفة واستعراض القوة ما دلّ على أنها لا تحتفل بمرور القرن فقط ، وإنما كانت تحتفل بتوصّلها إلى القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية ، وعلى المقاومة المسلّحة .

ثانياً : في خلال القرن انتزعت فرنسا اليهود من الحظيرة الجزائرية ، واعتبرتّهم فرنسيين يتمتّعون بالحقوق الفرنسية بمنحهم الجنسية الفرنسية ، وسخرتهم مُقابل ذلك لمصالحها ، وسلّطتهم في بعض الأحيان ضد المواطنين الجزائريين ، ومكّنّتهم من التوظيف في مراكز ومناصب حسّاسة .

ثالثا : مُنحت الجنسية الفرنسية لكل الأشخاص الذين ولدوا بالجزائر من أبوين أجنبيين ، وبذلك يحقُّ للأجانب وأبنائهم ، ولليهود وأبنائهم أن يتمتعوا بكامل الميزات الفرنسية الحاكمة .

رابعا : استولت فرنسا على أراضي الأفراد ، والقبائل والأعراس ، ووزعتها على الأوروبيين الوافدين ، إمّا مع الجيش الفرنسي المحتل أو مع المغامرين - بقصد إضعاف الروح القبلية ، والقضاء على الملكية الوطنية .

خامسا : حوّلت المساجد إلى كنائس ، وإصطبلات ، ومخازن ، وهدمت الكثير منها ، واستحوذت على أوقافها ، وشوّهت المعالم الإسلامية .

سادسا : قضت على التعليم الوطني ، واضطهدت اللغة العربية بتقليص عدد الكتاتيب القرآنية ، ووضع قيود وتشريعات تحدُّ من فتح أي كتاب أو مدرسة لتعليم القرآن واللغة العربية ، وأيضا بمضايقة الزوايا التي كانت تعتبر بمثابة الثانويات ، ولم تسمح بالتعليم فيها إلا بشروط خاصة ، وتحت مراقبة دقيقة بهدف القضاء على الثقافة الوطنية ، وبعبثة التراث ، ومسح المقومات .

سابعا : اعتدت على القضاء بانتزاع اختصاصات المحاكم الشرعية ، وحاولت تشجيع القوانين العرفية في كل منطقة ، وابتدأت بمنطقة القبائل ، فلم تنجح في حمل السكان على التخلي عن الشريعة الإسلامية إلى التقاليد والعرف . وبذلك فشل مخططها ، كما فشل الظهير البربري بالمغرب .

ثامنا : طبقت سياسة التفريق بين العناصر المتساكنة ، وأرادت أن تخلّق من سكّان الجزائر شعوبا ، لايربط بينها رابط .. بل أشارت النعرات القبلية حتى في داخل المنطقة الواحدة .

وخلال الاحتفال القرني أظهر الفرنسيون - وهم اللائكيون - حقدا دينيا ، أو عودةً إلى الصليبية . حتى أن أحدهم قال : « إن احتفالنا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر ، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام » ، وقبل ذلك أي عام 1926 كتبتُ جريدة فرنسية بمناسبة القضاء على ثورة الريف ، وإلقاء القبض على الأمير عبد الكريم : « لقد استسلم عبد الكريم الخطابي من غير شرط ، وخضع لحماية فرنسا ، ذلك ما كنّا نبغي ، فالحادث مهمٌ ، فهو يضربُ الإسلام في الصميم ، وفي وُسْعِنَا الآن أن نفتكّ بهذا الدين الفتك الذريع » ومما قاله حاكم تبسة في خطابه « إننا جنّا (أي الفرنسيين) إلى الجزائر لنندفن القرآن لا ليحيا » .

لقد أظهر الاحتفال القرني هذه الروح الصليبية التي عَفَى عليها الزمن ، وتجاوزتها الأحداث ، وحدث نتيجة هذه الاستفزازات الدينية ردُّ فعل لدى الجزائريين ، فالتفّوا حول الاسلام ، وتشبّثوا به أكثر من الماضي .. إلّا أنّه لا بد من تنظيم يُدافع عن الإسلام ، ويقود المسلمين في طريق الإسلام الصحيح النقي البعيد عن الشعوذة والخرافات التي انحرفتُ بالإسلام ، وأبعدتُ علماءه عن جادة الكفاح ، بينما كانوا في القديم أثناء المقاومة ، والانتفاضات القادة ، ورُموز الوطنية ، وقد لاحظ هذا الفراغ الدكتور أبو القاسم سعد الله ، فقال : « إن تجنيد العلماء كان قد توقّف تقريبا في الجزائر كما لاحظ دي توكفيل حوالي منتصف القرن الماضي منذ الاحتلال ، وقد لاحظنا أن هؤلاء العلماء

الذين كانوا مهتمين ومضطهدين قد هاجروا إلى الشرق الأدنى ، وإلى الجارتين تونس والمغرب ، وبقي آخرون منهم في الجزائر ، ولكنهم نماوا شاكّين في الإدارة الفرنسية ، وما دام بعض هؤلاء العلماء غرباء في وطنهم ، وطموحين من أجل المعرفة والزعامة ، فإنهم أصبحوا واعين سياسيا ، ومصلحين ليبراليين ، وعندما سمعوا بحركة الجامعة الإسلامية في أواخر القرن الماضي انجذب بعضهم إلى المذهب الجديد ، وحاول أن يستعمله من أجل أهداف إصلاحية في الجزائر » (د. أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية . ج 2 . ص 428) .

إذن فإنشاء « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » كان في الوقت المناسب ، وكان ضرورة قصوى تقتضيها الظروف والتحديات ، ردّا على الادّعاءات الاستعمارية بأن عهد الإسلام انتهى ، وبأن الثقافة العربية الإسلامية اندثرت ، ولم يَعدْ لها وجود ، وأيضاً كان مناسبة لعودة العلماء إلى ميدانهم في القيام بواجبهم النضالي ، أسوة بزملائهم في الشرق العربي الذين ساهموا في إيقاظ الوعي الإسلامي .

في مثل هذه الظروف ظهرت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » وتشكّلت من عدّة علماء ، من أبرزهم في ميدان الدعوة إلى الإصلاح : عبد الحميد بن باديس . البشير الابراهيمي . الطيب العقبي . مبارك الملي .

أما دعوتها ورسالتها فقد أوضحها ابن باديس بقلمه في مقال له تحت عنوان : « دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها » جاء فيه :

1 - الإسلام هو دين الله الخالد الذي وضعه لهداية عباده ، وأرسل به جميع رسله ، وكمله على يد نبيه محمد الذي لا نبيَّ بعده .

- 2 - الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعدُ إلاّ به ، وذلك لأنه :
- أولا : كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين ، يذكرّ بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين .
- ثانيا : يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان .
- ثالثا : لأنه يفرض العدل فرضاً تامّاً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز .
- رابعا : يدعو إلى الإحسان العام .
- خامسا : يحرم الظلم بجميع وجوهه ، وبأقلّ قليله من أي أحد على أي أحد من الناس .
- سادسا : يُمجّدُ العقل ، ويدعو إلى بناء الحياة كلّها على التفكير .
- سابعا : ينشر دعوته بالحجة والإقناع ، لا بالختل والإكراه .
- ثامنا : يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون .
- تاسعا : شرّك الفقراء مع الأغنياء في الأموال ، وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة ، ممّا يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال .
- عاشرا : يدعو إلى رحمة الضعيف ، فيكفّي العاجز ويعلمّ الجاهل ، ويرشد الضال ، ويعان المضطّر ، ويغاثّ الملهوف ، وينصّر المظلوم ، ويؤخذ على يد الظالم .
- حادي عشر : يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه .
- ثاني عشر : يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس .

- 3 - القرآن هو كتاب الاسلام .
- 4 - السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .
- 5 - سلوك السلف الصالح - الصحابة والتابعين وأتباع التابعين - تطبيق صحيح لهدي الإسلام .
- 6 - مفهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة .
- 7 - البدعة كل ما أُحدث على أنه عبادة وقربة ، ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعله ، وكلُّ بدعة ضلالة .
- 8 - المصلحة كلُّ ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ، ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم ، وتقدم عمرانهم مما تُقره أصول الشريعة .
- 9 - أفضل الخلق هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه :
أولا : اختاره الله لتبليغ أكمل شريعة إلى الناس عامة .
ثانيا : كان على أكمل أخلاق البشرية .
ثالثا : بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته .
رابعا : عاش مجاهدا في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة .
- 10 - أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكمال اتباعهم له .
- 11 - أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم الأولياء والصالحون ، فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حفظه من تقوى الله .
- 12 - التوحيد أساس الدين ، فكلُّ شرك - في الاعتقاد أو في الفعل - فهو باطل مردود على صاحبه .

13 - العمل الصالح المبني على التوحيد ، به وحده النجاة والسعادة عند الله ، فلا النسب ، ولا الحسب ، ولا الحظ ، بالذي يغني عن الظالم شيئاً .

14 - اعتقاد تصوّف أحد من الخلق مع الله في شيء مّا شرك وضلال ، ومنه اعتقاد الغوث والديوان .

15 - بناء القباب على القبور ، ووقد السُّرُج عليها ، والذَّبْح عندها لأجلها ، والاستغاثة بأهلها ، ضلال من أعمال الجاهلية ، ومضاهاة لأعمال المشركين ، فمن فعله جهلاً يُعَلَّم ، ومن أقرّه مِمَّن ينتسب إلى العلم فهو ضال مُضِلٌّ .

16 - الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ، ومبناها كلّها على الغلوّ في الشيخ ، والتمييز لأتباع الشيخ ، وخدمة دار الشيخ ، وأولاد الشيخ إلى ما هناك من استغلال .. ومن تجميد للعقول ، وإماتةٍ للهيم ، وقتلٍ للشعور ، وغير ذلك من الشرور .

17 - ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام ، وما بيناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوةٍ أو عدوان .

18 - الجاهلون والمغرورون أحقُّ الناس بالرحمة .

19 - المعاندون المستغلون أحقُّ الناس بكلِّ مشروع من الشدة والقسوة .

20 - عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرّق الكلمة ، ويصدع الوحدة ، ويوجد للشرّ الثغرة ، ويتحتم التآزر والتكاتف حتّى تنفجر الأزمة ، وتزول الشدّة بإذن الله ، ثمّ بقوة الحق وادّراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة .

« قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين » .

بهذه الآية القرآنية الكريمة أنهى ابن باديس توضيح دعوة الجمعية .. وإذا كان ابن باديس : الباديء في توضيح الدعوة ، فإن البشير الابراهيمي كان المبرز في تحديد مواقف الجمعية من قضايا الساعة آنذاك ، في مقال له طويل بسجل مؤثر « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » حين تناول الابراهيمي مواقف الجمعية من الطريقة . التعليم . البدع والمنكرات العامة . الإلحاد . التبشير . بقية الرذائل .

ومما جاء في ختام مقال الابراهيمي الرائع قوله : « جمعية العلماء جمعية علمية دينية تهذيبية ، فهي بالصفة الأولى تعلّم ، وتدعو إلى العلم ، وترغب فيه ، وتعمل على تكيّنه في النفوس بوسائل علمية واضحة لا تسترّ ، وهي بالصفة الثانية تعلّم الدين والعريّة لأنها شيآن متلازمان ، وتدعو إليهما ، وترغب فيهما .. وبالصفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق التي حضّ - الدين والعقل عليها ، لأنها من كمالها ، وتحارب الرذائل الاجتماعية التي قبّح الدين اقترافها ، وذمّ مقترفيها .. وتعمل لترقية فكر المسلم بما استطاعت ، وترشّده إلى الأخذ بأسباب الحياة الزمنية .. والجمعية فيما وراء هذا مرتبطة بالعالم الإسلامي أفرادا وشعوبا بما يترابط به المسلمون من حقائق دينهم ومظاهره .. وفيما عدا هذا ، فالجمعية جزائرية محدودة بحدود الجزائر ، مربوطة بقانون الجزائر ، لأن أعضائها كلّهم من أبناء الجزائر » .

اعتمدت الجمعية في القيام بدعوتها ورسالتها على نفسها ، فجندت الجماهير ، وبذلت ما في وسعها لتثقيفها وتعليمها ، وتوعيتها ، مستعينة أو مستعملة وسائل العصر الحديث ، مثل :

الصحافة : وبما أنها تعتبر من أهم وسائل العصر الحديث ، فقد اعتمدتها الجمعية في تبليغ دعوتها ، وتوعية الرأي العام ، وأنشأت نشراتها الأسبوعية ، ومجلاتها الشهرية ، . وتعرضت جميعها لمضايقات الإدارة الفرنسية .

المدرسة : وبواسطة بناء المدارس خرجت الجمعية عن الطرق التقليدية المألوفة في الكتابات القرآنية ، والزوايا المعروفة ، وخاصة حينما جهزت مدارسها بوسائل عصرية حديثة ، تُرغب الأطفال في تعلّم دينهم ولغتهم ، وتزودهم بالمعلومات العصرية الهامة .. وقد بلغت هذه المدارس شأواً عظيماً ، حتى أنها تحوّلت إلى مزاحمٍ ومُنافسٍ للمدارس الرسمية الفرنسية ، ومن أجل ذلك تعرّضت وتعرّض معلموها والقائمون بها إلى المضايقات والملاحقات .. ولربّما يعود الفضل إلى هذه المضايقات في إقبال الشعب على بناء المدارس الحرة ، والتفافه حولها كقلاع للعروة والإسلام .

النادي : ومن المعروف في العالم أن لكل ناد مهمة خاصة ، أما النادي في الجزائر فله مهمات باعتباره مركزاً من مراكز التربية والتعليم والتوعية ، أو مركزاً من مراكز التثقيف والإعلام ، يلتقي فيه الشبان والشيوخ والجهال والمثقفون ، وكل الطبقات الشعبية ، واستطاع بهذا اللقاء الواسع أن يُقدّم خدمات معتبرة في ميادين الإصلاح الديني ، والتوعية السياسية ، ونشر الثقافة العربية الأصيلة .

المسجد : قديماً كان المسجد قلعةً ، ومدرسة ، ونادياً .. والاستعمار جرّد المسجد من مهامه الأصلية التي كان يتمتع بها ، وتمثل في كونه قلعةً يتكوّن فيها المجاهدون ، ويُعلن فيها الجهاد .. ومدرسة يتعلم فيها الصغار مبادئ دينهم ، ويتفقه فيه الكبار .. ونادياً تلتقي فيه طبقات

الأمة وتتبادل الآراء حول قضايا العصر ، ومشاكل الأمة . ولهذا كان السعى الأول لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، هو أن تستعيد المساجد الإسلامية ، وتعيد لها ماضيها المشرق ، في الدعوة ، وتأليف القلوب ، وتوحيد الكلمة .. ولم تقف عند حدود المطالب باستعادة المساجد ، بل عمدت إلى بناء مساجد حرة يعلو فيها صوت الحق جهرا ، ودعوة الاسلام داوية ، مخيفة .. لأنها دعوة تدعو المسلم إلى الاعتماد على النفس ، وإلى نبذ التواكل والتخاذل ، وتقدم الإسلام في مفهومه القوي كقوة معنوية ، وطاقة خلاقة ، على عكس ما أشاعته الخرافات - بتشجيع من الاستعمار - بأن الإسلام دين القضاء والقدر ، بالمفهوم الاستسلامي الذي دفع المستعمرين إلى الادعاء « بأن الله هو الذي مكّنهم من احتلال الجزائر » و « بأن القضاء والقدر هو الذي عمّ سيطرة فرنسا على الجزائر » .

فتأسس الجمعية في مثل هذه الظروف ، يعتبر حدثا وطنيا هاما ، يوازي في أهميته حدث تأسيس نجم شمال إفريقيا ، خاصة في الثلاثينات والأربعينات .

ولئن أتجه النجم وجهة المقاومة السياسية الاستقلالية الثورية ، فقد اتجهت الجمعية وجهة المقاومة الدينية الثقافية الوطنية ، فأقبلت الجماهير على الانخراط فيها ، والتحمس لها بوصفها « تيار مقاومة » .



حوادث قسنطينة
أوت 1934

حوادث أوت 1934 بقسنطينة

شرع الجزائريون في العمل السياسي منذ عام 1919 ، وانهكوا في سياسة تقديم المطالب واللوائح ، والاشتراك في حملات الانتخابات للمجالس المحدودة ، ولم يسجل خلال هذه الفترة إلا حدثان هامان هما :

(1) تأسيس نجم شمال إفريقيا

(2) تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وفي عام 1934 حدثتُ حادثة استلفتت الأنظار ، واكتستُ صبغةً خاصة ، وهي حادثة الاصطدام بين مسلمي قسنطينة ويهوديّيها في شهر أوت من عام 1934 ، وتعتبر مؤشرا خاصا على مدى الغليان النفسي لدى الجماهير ، ولذلك أعطتها الجهات الفرنسية اهتماما خاصا وعَلّقت صحيفة « البرقية الجزائرية » (La dépêche algérienne) على هذه الأحداث بقولها : « لقد كان من شأن حوادث 5 أوت أن جعلتُ فرنسا تهتمُّ بقضايا الجزائر » ، لأنها حوادث - في ظاهرها - لا تتجاوز مجرد اشتباكات طارئة بين مسلمي قسنطينة ويهوديّيها ، بينما هي في الحقيقة أعمق من ذلك ، رغم أنها تفجّرت صدفة ، وشملت مساحة محدودة ، ولم تمتد إلا فترة قصيرة ، وقد أشار محفوظ قداش إلى هذه الحقيقة في مقال له : « فلا يمكن أن نستغرب من بعض الصدف ، فحوادث قسنطينة وإن كانتُ محلية محدودة في الزمان ، كانت تعكس مشكلا عاما ، هو مشكل الجزائر الإسلامية » .

ذلك لأن اليهود تنكروا لماضيهم ، وإخوانهم المسلمين الذين تعايشوا وإياهم على هذه الأرض قرونا ، وتحولوا من أصدقاء حميين ، إلى أعداء ألداء ، واستغلوا قانون كريميو الذي منحهم الجنسية الفرنسية ، للتطاول على الجزائريين المسلمين ، والاستخفاف بهم ، وأمعنوا في الاستخفاف والاحتقار إلى درجة لم يَعدْ بعدها صبر .. وكنهودج لهذا الاستخفاف نُورد ما جاء على لسان مولود بن باديس في صحيفة « صدى الأهلي » (L'écho d'indigène) بأن « اليهوديَّ عندما يسألُ يهوديًا آخر ، كيف حالك ؟ يجيبه هذا : « على أحسن ما يرام ، محمد يمسحُ أحذيتي ، وفاطمة تغسل أرض منزلي » .

نعم .. لقد تنكر اليهود لماضيهم الطويل مع المسلمين ، وصاروا أداة استعمار ، وقهر ، وزجر ، وعنصر ابتزاز وتفكير .. فاستحوذوا على أراضي الجزائريين بقروض الربا ، وتضاعفت حملاتُ حجز أراضي وممتلكات المسلمين بعد صدور قرار كريميو تضاعفاً مدهشاً .. ففي دائرة قسنطينة وحدها سجّلتُ عمليات بيع لـ 206 ما بين أول جانفي 1930 و 30 جوان 1934 ، كما سجّلتُ 325 عملية حجز ، وبذلك أُفقرَ الجزائريُّ الغنيُّ ، أمّا الفقير أساساً فعليه أن يعيش مدى الحياة عاطلاً عالةً على المجتمع ، أو أن يعيش بأجر منخفض لا يزيد عن 192 فرنكا في الشهر ، في حين يتقاضى اليهوديُّ 300 فرنك في الشهر .

اشتدّت تحرشاتُ اليهود بالمسلمين ، واغتنموا فرصة وجودهم على رأس الإدارات ، وخاصة إدارات الضرائب ، وتجاوزوا الحدود في ذلك ، تجاوزا ضجّ منه الفرنسيون أنفسهم ، وتضايقوا منه كثيرا .. وبلغ الأمر ببعض المتعصبين الفرنسيين أن يعلنوا عداؤهم لليهود ، وأن يقوموا بمحملات عنصرية مناهضة لليهود ، وأن يسخرُوا صحافتهم لهذا الغرض حتى أن

صحيفتهم « طام طام » (Tam Tam) جعلت شعارها : « ليسقط اليهود .. اقتلوا اليهودي المسؤول عن بؤسكم وعن الأزمة » .

ولكن اليهود بدل أن يُواجهوا التّعصب الفرنسيّ ضدّهم ، كانوا يصبّون غضبهم وحقدهم على المسلمين ، ويختلقون الأسباب والأعذار للاعتداء والتّحرش .. اعتدّوا على شخصيات جزائرية مسلمة .. وكانت تمرّ حوادث الاعتدّات والتّحرشات كحوادث منعزلة في إطارها الضيق ، على أنها مجرد سوء تفاهم بين شخصين عاديين ، دون أن تكون لها تداعيات .. إلى أن وقعت حوادث أوت 1934 ، وسبّوها في البداية بسيط كما يدّعي المقرّرون والمحقّقون من رجال الشرطة والقضاء الفرنسي ، وهو في الحقيقة ليس بالبسيط لعلاقته بالعقيدة الدينية ، ولمسأله بالدين الإسلامي .. وهناك من المسؤولين الفرنسيين من ينسب الأحداث إلى أسباب أخرى .. ينسبونها مثلا إلى الشبان المسلمين المتحمسين للإسلام ، والبعض إلى المتعصبين للعربية والإسلام ، والبعض الآخر إلى الأوروبيين المعادين للسامية ، والمتحاملين على اليهود .

أما السبب الحقيقي فهو أن اليهودي خليفة إلياهو (Kalifa Eliaou) كان في حالة سكر شديد ، وأثناء مروره بالجامع الأخضر توجّه نحو الجدار ، وبدأ في التبول .. رآته امرأة مسلمة من نافذة بيتها ، فصاحت .. وحذرت من عواقب الإساءة إلى المسجد ، وحرمة الإسلام .. لكنّه لم يعبأ بكلامها ، وتماذى في قضاء حاجته وهو يتفوه بعبارات الشتم للمسجد والإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم .. وهذا ما أغضب المرأة ، فرمته « بكانون » دون أن تصيبة ، وهي تصرخ : « أتجرؤ يا يهودي على ديننا ومساجدنا » سمع الموجودون داخل المسجد الصراخ والشتائم فهرعوا إلى مكان الحادث ، وكادت تقع مشادة بينهم وبين

اليهودي لولا أن بعض الحاضرين هداً الموقف بحجة أن اليهودي سكران
فاقد لوعيه .

رافق بعض المسلمين الحاضرين اليهودي حتى داره ، وهنا انضمت إليه
زوجته في سبّ وشم المسلمين .. فاشتعلت شرارة الحادثة .. لأن اليهود
الآخرين المجاورين انضموا ليهوديهم خليفة إلياهو .

كتبت مجلة « الشهاب » في هذا الموضوع ما يلي :

« رغم ما سمعه المسلمون من سبّ إلياهو الأول لدينهم وصلاتهم
وجامعهم وكبرائهم لم يحتاجوا ، وأجابوه بكلّ تعقلٍ ، وعذروه بأنه
سكران ، وهذا دليل قطعي على تسامحهم ، وعدم حملهم لحقد ديني على
اليهودي ، وعدم استعدادهم لفرصة الانتقام . »

وتعرضتُ بعد ذلك مجلة الشهاب لقضية اشتراك اليهود الآخرين مع
إلياهو في الاعتداء بقولها : « شارك المعتدي غيره من يهود الحوثة في
السبّ ، بدل أن يكفوه عنه ، وهذا دليل على الروح المتفشية في عوامّ
طائفته من الاستهانة بالمسلمين والتألؤ على إذايتهم ، وعدم احترام
الحكومة في ناحيتهم .. وقف الشرطيان المسلمان عند باب اليهودي
يحرسان داره ، وهذا دليل على ما يتحلّى به المسلم من احترام واجبه
وقيامه به ، وعلى شدة محافظة أعوان الشرطة المسلمين على الأمن
والنظام . »

« رغم ما رأى المسلمون وما سمعوا ، فقد استمروا ماسكين لأيديهم ،
حتى ابتدأهم اليهود برمي البيادن والكوانين ، وهذا دليل واضح على
تحمل اليهود لمسؤولية الشرّ بالقول والفعل . »

انتهى اليوم الأول وهو 3 أوت بدون اصطدام دموي ، بعد أن تمكن الدكتور ابن جلول من إقناع المسلمين المحيطين بمنازل اليهود ، وتهدة ثأرتهم .. وتفريقهم ..

التقى عبد الحميد بن باديس بابن جلول ، واتفقا على ضرورة عقد اجتماع يدعوان فيه السكان إلى الهدوء ، والتحكم في الأعصاب .. وفِعلا ، عقدا اجتماعاً مساء السبت 4 أوت بالجامع الكبير ، حضره جمهور غفير من المسلمين ، وألقى ابن باديس وابن جلول خطابين ..

وصف ابن باديس الوضع بعد الانتهاء من الخطب :

« وخرج ذلك الجمع الذي يُقدَّر بالآلاف هادئاً ، مهدأً ، بعد ما كان متأثراً هائجاً ، ووقفنا في الطريق العام نُفرِّقُ الجموع ، ونطلبُ منهم أن يذهب كلُّ واحد إلى محلِّه ، وأن يُعلِّمَ غيره بما دعوناهم إليه من لزوم الهدوء ، وما تفرَّقَ الناس حتى أقسمتُ أنني لا أذهبُ حتى يذهبوا ، وكُنَّا عند الخروج من الجامع قد جاءنا خبرٌ صحيحٌ بجرح ولد صغير مكفول لأحدِ الناس ، فاستطعنا - بإذن الله - أن نتفَّ الخَبْر عن الانتشار ، وأن نُهدِّيء من بلغه الخبر وكافل ذلك الصغير .

تفرَّقَ الناس ، وخلَّتْ منهمُ الطرقات ، ونزل الهدوء التام ، وباتت البلدة في أمن وأمان . »

ولئن بذل ابن باديس جهوداً للتهدة .. فإن اليهود لم يتوقفوا عند حد .. واستغلوا عودة الهدوء لدى المسلمين ، وقاموا بمفاجأة المسلمين صباح الأحد 5 أوت وإطلاق الرصاص عليهم ، وقد سقط الكثير من المسلمين جرحى نتيجة إطلاق الرصاص اليهودي .. انتشر الخبر ، وهاج الناس ، ولم يعد السكان الجزائريون يتحكمون في أعصابهم ، فهاجموا مساكن اليهود المعتدين ومحلاتهم هجوما عاما .

وصف ابن باديس هذا الهجوم بقوله : « فانكبَّ الناس على دكاكين اليهود التي كانت مقفلة يوم الأحد ، يكسرون أبوابها ، ويمزقون ما فيها من قاش ، ويهشمون ما فيها من أثاث ، ويمزقون الأوراق المالية ، وأطلقوا النار في بعضها ، وقتلوا نيفا وعشرين نفسا ، وفرغوا من عملهم نحو الساعة الثانية » .

ويعزو بن باديس السبب في اندفاع المسلمين ، إلى أنهم كانوا في حالة دفاع عن النفس قائلا : « غريزة الدفاع عن النفس فطرية في الإنسان ، بل في جميع الحيوان ، فإذا أحسَّ بالخطر ، فإنه يعمل أعمالا عن غير وعي .. » .

ووصف الغطرسة والعنجهية التي أصابت اليهود بقوله : « نعم ، كان المسلمون يسمعون دائما سبَّ دينهم ونبئهم من اليهود ، وخصوصا من النساء ، وكانوا يلقون منهم سوء معاملة خصوصا من النساء في سوق الخضّر ، وكانوا يشعرون بتسلطهم في دوائر الحكومة وعلى رجال بارزين من الساسة الفرنسيين ، ويعلمون تغلبهم في الوظائف حتى على الفرنسيين أنفسهم ، وحسبك أن موزعي البريد ببلدة قسنطينة منهم ثلاثون ونيف ، ومن الفرنسيين خمسة ، ومن المسلمين واحد » .

ولم تتوقف الحوادث في مدينة قسنطينة ، بل انتقلت إلى مدن وقرى أخرى مثل عنابة ، وعزابة ، سكيكدة ، الخروب ، عين البيضاء ، باتنة ، تبسة ، سطيف ، مستغانم ، وهران ، سيدي بلعباس ..

لهذا ، فإن حوادث قسنطينة جاءت نتيجة الصدفة ، لم تكن مدبرة أو مخططة من قبل الجزائريين ، لأنها وقعت إثر استفزازات يهودية لمشاعر المسلمين .. وامتدادها خارج قسنطينة دليل على التضامن

الجزائري التّام في كل الظروف ، وتعبير عن استياء الجزائريين عموما من السياسة الفرنسية التي جرّأتُ سكّان الجزائر تطبيقا لسياسة « فرق تسد » .. وهذا ما جعل الإدارة الفرنسية بعد أن أدركتُ تطوّر الوضع سياسيا إلى تطويق قسنطينة ، وتجنّب المبالغة ، بل والعمل على التقليل من أهمية الحادثة ، واعتبارها حدثا عابرا ، في حين قامت بمساعٍ لدى أعيان المدينة بقصد إجراء مصالحة بين الطرفين المتنازعين ، وإن تشدّدت فيما بعد مع الجزائريين الذين دافعوا عن أنفسهم ، بإصدار أحكام قاسية ضدهم .

وهكذا يلاحظ التّبّاي والتناقض في المواقف الفرنسية ، وفي ردود الفعل التي كانت منذ البداية لصالح اليهود ، وفي جانبهم . ولعل هذا ما دفع بعبد الحميد لأن يَخْتِم تقريره بقوله : « إننا بعد ذلك نأسف ونألم على ما يصيب الإنسان من أخيه الإنسان ، وعلى أن تجري هذه الحوادث بين عنصرين ساميين إبراهيميين عاشا قرونا في وطن واحد ، دون أن يشهدا مثلها ، ونسأل الله تعالى أن يُبطل كيّد الظالمين ، ويَرُدَّ شرّ المعتدين عن الخلق أجمعين ، وأن يرحم المستضعفين وينصر المظلومين من جميع العالمين » .

أما نواب قسنطينة فقد أصدروا بيانهم الذي جاء فيه :

« لقد وقعتُ حوادث دامية يوم 5 أغسطس الجاري بمدينة قسنطينة ، وقد أثارت هذه الحوادث تعليقات مختلفة ، وأحيانا متباينة ، فيما يخص أسبابها وأصلها الحقيقي ، وكان من شأن هذه الأنباء المختلفة التي يفسّرها الحماس السياسي ، وربّما أيضا المصالح الشخصية ، أن تحدث صدمة لدى العقول المتمسكة بالعدالة والإنصاف ، وأن تنال من الحق الذي هو شيء واحد بالنسبة للجميع ، يجب وضعه فوق كل اعتبار

ضيق ، من مسائل فردية أو اعتقادية أو دينية ، وبذا فقد ارتأى نواب قسطنطينة المسلمون تقديم إيضاح لغرض وحيد ، هو خدمة العدل ، وإعادة الانسجام والوئام بين مختلف العناصر التي ينبغي أن تعيش في السلام والتعاون على هذا التراب الجزائري ، وتحت سلطة فرنسا الكريمة ، ومن دون أن نُسهب في الحديث عن السبب الحقيقي لحوادث مؤسفة وطائرة يمثل في انتهاك حرمت مسجد ، واستفزازات لاحقة ، ومن دون أن نشير إلى أحوال اغتياظ وسخط فردية سابقة ، فنحن النواب المسلمون وسكان قسطنطينة المخلصون ، نأسف بالإجماع كل الأسف للفتنة التي حدثت ، ولما بلغته من أعمال العنف الفظيعة ، كما يدينون بالإجماع مختلف أعمال النهب والقتل والتحريق والفضوى ، فالأمر بالنسبة لنا ليس مسألة إنسانية فحسب ، بل إنه مسألة دينية ، تفرض على كل مسلم احترام الإنسان في نفسه وماله وعقيدته .

« ومن أجل هذا ، فإن نواب قسطنطينة قد رأوا من واجهم يوم السبت 4 أغسطس محاولة تفاعدية الحوادث ، أولاً بالتعاون الوثيق مع اليهود والإدارة ، ثم بعد الحوادث التي غلبتهم على أمرهم ، سعوا في التخفيف من أضرارها .

« وهكذا جعلوا أنفسهم تلقائياً تحت تصرف رئيس البلدية والسلطات ، ولم ييخلوا عليهم بأوقاتهم وعنائهم ، غير أنهم في حين يستنكرون كل الاعتداءات يرون من الضروري التمييز بين أقلية لم تحس استعمال العنف ، والأغلبية التي تستنكر ذلك العنف ، وتبذل كل جهودها للتخفيف من نتائج الخطيرة .

« وبما أن تلك الأقلية تعاني من قساوة القمع الذي تسلطه عليها الإدارة ، فإن نواب قسطنطينة المسلمين يضعون ثقتهم في العدالة

الفرنسية ، إياً كان المتهمون ، ويوجهون نداءً ملماً لجميع العناصر الطيبة في البلاد ، وإذا كان ازدهار الجزائر نتيجة تعاون سائر العناصر في مختلف المجالات ، فمن الإجرام ترك حوادث 5 أغسطس المؤسسة تتحول إلى حرب جنسية سواء في الميدان الاجتماعي أو الاقتصادي .

« فان كان القمع العادل قد يُستحسن ، فإن الإشراف في التحقيق وخيم ، وكل صراع اقتصادي يؤدي حتماً إلى عواقب مضرّة بالجميع ، ولا سيما أن الجزائريين كلّهم بدون استثناء قد لبّوا في الماضي نداء التضحية للدفاع عن فرنسا والإسهام في مجدها .

« ينبغي أن يسود العدل هذا البلد ، وأن ينسى الماضي ، ويواجه المستقبل بدون تعصب ، وينظر إلى مصلحة البلاد بهدوء وأناة ، ولأجل مجد فرنسا الأكبر ينبغي أن يكون الهدوء الخارجي متبوعاً بتسكين النفوس » .

ويختم النواب بيانهم بحياة السلام بين الاجناس ، وبحياة فرنسا والغرض من استعراض بيان النواب كاملاً هو التدليل على مدى الميوعة التي كان النواب الإداريون يعالجون بها قضايا الوطن .. إذ لم يتحملوا مسؤوليتهم كنواب ، ولم يتوصلوا إلى تحديد الأحداث من خلال المعطيات الدينية والوطنية .. بينما نرى ابن باديس في مقاله :

- تولّى وصف سير الأحداث وصفا دقيقا نزيها .
- أبرز الهدوء الجزائري في الوقت الذي أبرز فيه التحرش اليهودي .
- اعتبر عمل خليفة إياهو اعتداء ، ورد الفعل الجزائري دفاعاً عن النفس .

- أرجع الأسباب إلى أصلها ، وهو التصرفات اليهودية الناتجة عن غرور اليهود باستيلائهم على النسبة الكبيرة من وظائف الدولة ..

وفي هذا تلميح إلى تحميل الإدارة الفرنسية نتائج التوظيف غير العادل
- أكد بأن الحوادث أظهرت بأن هناك معتديا وظالما ، ومعتدى
عليه ومظلوما . بل نجد أن فيديرالية الجمعيات اليهودية كتبت بيانا
أفضل من بيان النواب الجزائريين الإداريين ، وأدانت في هذا البيان
تصرف خليفة إياهو . حين قالت :
« أيها الرفقاء المسلمون :

لقد جرت حوادث ، في هذه الأيام الأخيرة ، كادت تُعكّر جوَّ
الوئام الذي عرفته مدينتنا ، إنّ شخصا قدّ أخلّ بأبسط قواعد الأدب
والاحترام اللازم تأديتها لبعض المسلمين أثناء قيامهم بصلاتهم .. كان ذلك
الشخص في حالة سكر ، وقد فُتِح تحقيق لتحديد المسؤوليات ، هذا وإننا
نصرّح من الآن . بإدانتنا الشديدة لتصرف هذا الشخص ، ونحن أول من
يطالب بمعاقبته عقابا صارما .. » .

والحزب الوحيد الذي اعتبر حوادث أوت بقسنطينة جزءا من
المقاومة التي يخوضها الشعب الجزائري ، هو حزب نجم شمال إفريقيا الذي
ذكر في صحيفته « الأمة » « بأن رد الفعل الشعبي عمل إيجابي » وامتدح
هؤلاء الذين نزلوا إلى الشارع ، واعتبر الضحايا شهداء ، في مقال
بالصحيفة المذكورة جاء فيه :

« لقد خبّا القدر لإخواننا بقسنطينة شقاء لا يوصف بمعايشتهم جورا
وظلما شنيعا .. وادّخر لهم أيضا الشرف والمجد لانتقامهم من أكبر اعتداء
- لم يعرف من قبل أبدا - على ثقافتنا وإيماننا الإسلامي .

« إن شهداء هذا الاعتداء لم يستشهدوا عبثا ، بل إنهم قدّموا لنا
نموذجا ..

« نحن نحیی بجرارة هذه اليقظة المنتظرة من زمن طويل ، ونؤيدها بكامل قوانا ، لأنّ وحدتنا إنما يخبثها إلى الأبد دم الشرفاء مناضلي قسنطينة » .

ويعزو المقال الأسباب إلى الحالة المتدهورة التعيسة التي يعاني منها الشعب ، إذ جاء فيه :

« في الجزائر يعيش الشعب منذ عام حالة الملح والرعب الذي نشأ من الوضعية المؤلة التعيسة الاستغلالية والاستبدادية ، ويبدو هذا الرعب في العديد من المظاهرات الحادة التي قام بها عشرات الآلاف من مواطنينا الذين نزلوا إلى الشارع ليعبروا عن استيائهم وحقدهم ضد المستعمرين من كل نوع » .

أعطى النجم حوادث أوت بقسنطينة بعدا وطنيا ، لأن :

- استفزاز اليهود للمشاعر الاسلامية ، إنما هو استفزاز مدعّم أو مدبّر من طرف الإدارة الفرنسية ، فالتصدي لاستفزازات اليهود هو في الوقت نفسه تصدّ ومواجهة للمناورات الاستعمارية .

- اعتبار اليهود مجرد آلة يُسخرها الفرنسيون في الجزائر لقمع الحركات الوطنية ، تسخير الانجليز لها بفلسطين لدعم الصهيونية . ولذلك اهتم النجم بهذه الحوادث . وأوفد إلى قسنطينة بعثة تولت التحقيق ، وكان من بين أفرادها المحامي لونقي (Longuet) ، وبعد عودة البعثة ، دعا النجم إلى عقد اجتماع عام لأبناء المغرب العربي لتقديم عرض عن تحقيق البعثة .

كما وجه النجم لائحة باسم الذين اشتركوا في اجتماع 19 أوت 1934 ، وهذا جزء منها :

« إن الحاضرين يندّدون - بقوة - بالاستفزازات الامبريالية الفرنسية التي أحدثت بقسنطينة مأساة دموية .

« إنهم يعلنون عن تضامنهم الصادق والفعال مع ضحايا القمع ، ويصرحون بأنهم يؤيدون تأييدا كاملا الموقف الشريف لمواطنينا الذين قبلوا التحدي وأجابوا على انتهاك المسجد الإسلامي وعلى شتم المصلّين ونبينا المعظم .

« وهم يحتجّون عالياً ضدّ إيقاف العديد من مآت مواطنينا الأبرياء ، ويطالبون بقوة بإطلاق سراحهم حيناً ، ورفع حالة الطوارئ .. » .

وتنتهي اللائحة بـ :

« يحيا الكفاح التحريري لمسلمي شمال إفريقيا
يحيا استقلال إفريقيا الشمالية
يحيا الاسلام »



المؤتمر الإسلامي 1936

المؤتمر الاسلامي 1936

إذا كانت الجزائر قد عرفت ما بين 1926 - 1931 تنظيمين وطنيين هما « نجم شمال إفريقيا » و « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » فإنها عرفت أيضا بعض شعب الحزب الشيوعي الفرنسي بالجزائر ، والتي تطورت فيما بعد إلى الحزب الشيوعي الجزائري « الذي كان يآتمر بأوامر الحزب الشيوعي بفرنسا ، وله آراؤه في الانفصال ، والاندماج ، والمساواة ، والثقافة ، والدين ، لم تتلاءم في كثير من الأوقات ؛ لا مع المطامح الشعبية ، ولا مع الخط العام للتنظيمات الوطنية .

وإلى جانب ذلك هناك التكتلات المثقفة والنيابية ، وتظهر من حين لحين بمطالب يغلب عليها طابع البساطة ..

وكانت التحركات الوطنية السياسية والدينية والثقافية تصطدم دائما بثلاثة عناصر :

العنصر الأول : الإدارة الفرنسية ، وهي إدارة تتأرجح في غالب الأوقات بين تطبيق الأوامر والقوانين الصادرة عن الحكومة والدولة الفرنسية ، وبين الخضوع لضغوط المعمرين والفرنسيين المتطرفين الذين كانوا يفرضون آراءهم على الولاة العامّين ، وعمّال العائلات ، ورؤساء الوحدات العسكرية .. فالإدارة الفرنسية في ذلك العهد عبارة عن جيش ، وشرطة ، وأعوان ، وقياد ، وأغوات .

العنصر الثاني : العنصر الجزائري المتفرنس لسانا وقلبا ، مِمَّن لا يرى خلاصا للجزائر إلا بإذماجها ، وفرستَها تماما ، وقد توصلَ البعض من هذا العنصر إلى إنكار التاريخ الجزائري ، والأمة الجزائرية ، وبالغ في التحمس لسياسة الاندماج ، لولا أن المعمرين الغلاة وقفوا ضد كل ما له علاقة بالاندماج والمساواة ، تخوفاً وتحسباً من ذوبان النسبة الأوروبية الضئيلة أمام النسبة الضخمة للجزائريين الأصليين .

العنصر الثالث : عنصر الخرافيين والجامدين ، ولهذا العنصر تأثير واسع على الجماهير الشعبية ، لأن أكثرية الخرافيين يستغلون « التبريط » في التحكم في رقاب الناس ، وفي توجيههم ، وتخديرهم باسم الدين ، ودفعهم إلى التواكل والاعتماد على مقدم الطريقة وشيخها في قضاء المآرب .. وتتولى تحريك أغلبية العناصر الخرافية مديرية الشؤون الأهلية بالولاية العامة ، ولهذه المديرية نفوذ إداري كبير في كل القضايا الدينية واللغوية ، تدخلت عن طريقه في كثير من القضايا الوطنية ، مستغلةً بعض العناصر الوطنية الانتهازية أو الساذجة في تنفيذ مخططاتها داخل الهيآت والتنظيمات الجزائرية السياسية والدينية والثقافية ونجحت في بعض الأحيان في بث التفرقة بين القبائل المتجاورة بإثارة النعرات القبلية ..

وعلى العموم ، فإن من تأمل أساليب وأهداف كل عنصر من العناصر التي استعرضناها يظهر التناقض والتضارب في السياسة العامة الفرنسية تجاه الجزائريين ، وهذه في مجموعها وفي كل أطوارها ضد مصالح الأمة الجزائرية .. وكان الجزائريون في بعض الأحيان يخطئون التقدير ، ويعتقدون بأن السياسة الإدارية الاستعمارية تتغير بتغير الأشخاص في الولاية العامة ، والعمالة ، أو في الحكومة الفرنسية ، ومن هذا التصور

يُناقون في الأوهام ، ويجدون أنفسهم أحيانا متفائلين ، كما حدث لهم حين ظهرت حكومة « الجبهة الشعبية » عام 1936 بفرنسا ، وهي حكومة تكوّنت من عناصر يسارية برئاسة ليون بلوم الاشتراكي ، فقد تبادر إلى أذهان هؤلاء الجزائريين أن الفرصة قد حانت للقيام بعمل سياسي في ظل الظروف القائمة .. وأدى هذا التفكير إلى عقد مؤتمر ، سُمّي أو اشتهر بـ « المؤتمر الاسلامي » .

فكرة المؤتمر الاسلامي :

فكرة عقد مؤتمر انطلقت من مدينة قسنطينة .. البعض ينسبها للشيخ عبد الحميد بن باديس .. والبعض ينسبها للدكتور محمد الصالح بن جلول بصفته المتزعم لفيدرالية عمالة قسنطينة .. والبعض يروي بأن الحزب الشيوعي كان وراء عقد المؤتمر بإيجائه لعناصر سياسية جزائرية بعقد اجتماع تأييد للجبهة الشعبية وحكومتها .

لكن أحدَ الذين عاشوا تلك الأيام ، وكان على صلة وثيقة بالشيخ عبد الحميد بن باديس ، ومن أقرباء الدكتور محمد الصالح بن جلول روى :

« لقد دارت فكرة الاجتماع في ذهن ابن جلول على أن يكون خاصا بنواب عمالة قسنطينة .. صرح ابن باديس بالفكرة ، وكان هذا يتوجس دائما من تحركات وتصرفات ابن جلول ، ويصفها بأنها مشبوهة .. لم يُعارضه ابن باديس ، وإنما أجابه : « فكرة طيبة .. إلا أنه من المستحسن توسيع الاجتماع حتى يشمل العمالات الجزائرية . قسنطينة . الجزائر . وهران » أعجب ابن جلول باقتراح ابن باديس ، لاسيما أن ابن جلول كان يتطلع إلى الزعامة ، فوافق .. نقل ابن باديس

الفكرة إلى العاصمة ، ولاقتُ صدَى طيبا ، وتحمّس البعض واعتبرها فرصة ومناسبة ، لا بد من استغلالها !. وفعلا ، شرعتِ الجماعات بالعاصمة في الاستعداد ، والتحضيرات ، وانعقد المؤتمر الذي اختار عبد الحميد بن باديس تسميته « بالمؤتمر الإسلامي » - على نطاق واسع .

ومن المفيد استعراض ما كتبه الشيخ البشير الإبراهيمي بوصفه أحد الذين ساهموا بالرأي والقلم ، وعاصروا الفكرة من نشأتها إلى نهايتها ، فقد جاء في مقاله الذي حرّره خصيصا لمجلة « الشهاب » قوله :

« وكانت حكومة فرنسا كلّما تعلّى صوتُ المطالبة تعمِد إلى المسكّنات والمخدّرات ، فأرسلتُ مرّةً لجنة من مجلس الشيوخ يرأسها م فيوليت الوالي العام الأسبق للجزائر ، لتدرس الحالة ، وتشير بالعلاج ، وأرسلت أخيرا وزير الداخلية لذلك العهد م ريني ، ولم تكن لتلك المسكّنات من نتيجة ولا تأثير ، والحالة بالجزائر لا تزداد إلا ارتباكا ، وحالة المسلم الجزائري تنتقل من سيّئ إلى أسوأ ، والحكومة الجزائرية مُتصاممة عن سماع صوت المطالبة ، مُمعنة في إخفاته ، إلى أن جاءت نتيجة الانتخابات التشريعية الفرنسية الأخيرة بفوز أحزاب الجبهة الشعبية ، فارتفع صوت الأمة الجزائرية بالمطالبة من جديد ، وحدثت فكرة المؤتمر » .

من خلال ما كتبه الإبراهيمي نستطيع استشفاف الأسباب ، وهي :

- أن الجزائريّين سمعوا الكثير من الوعود التي لا تنفذ ..
- أن فكرة المؤتمر لم تظهر إلا بعد فوز أحزاب الجبهة الشعبيّة .
- أن الذين فكروا في عقد المؤتمر كانوا يحسنون الظن بأحزاب الجبهة الشعبية لمواقفهم الطيبة - في السابق - من القضية الجزائرية .

وقد عبّر الإبراهيمي عن هذه الآمال في نفس المقال : « فلما فازت الأحزاب الشعبية ، ومبادئها الإنسانية معروفة لجميع الناس ، وبادرت بالإعلان بلسان صحفها والإفصاح عما تبيّنته للشعب الجزائري من إصلاح سياسي واجتماعي ، وما تضرره له من خير ورحمة هو أهلّ لها ، واحتفّ بتلك التصريحات والوعود ما دلّ على أنها ليست من جنس الوعود السالفة التي لم يُنجز منها ولا واحد - لما وقع ذلك - كان من المعقول جدا أن يكون هوى المسلمين الجزائريين مع الجبهة الشعبية ومثلهم إليها ، وأن يقابلوا الخير بمثله ، خصوصا وقد كانت تلك التصريحات والوعود من أحزاب اليسار مصوغة في قالب يقتضي العطف على الشعب الجزائري ، والاعتراف بمجمله وأهليته لتلك الحقوق ، ويا ما أشرف عرفان الجميل إذا كان متبادلا بين الطرفين » .

انعقاد المؤتمر :

لئن انطلقت الفكرة من قسنطينة ، فإن العاصمة تولّت الدور الكبير ، في الاتصالات واللقاءات والإعداد ، وكان نادي الترقى محور النشاط .. وخلال الاجتماعات التحضيرية تقدمت الفئات المشتركة بآرائها وبمطالبها .. ولم يكن من بين هذه الفئات حزب نجم شمال إفريقيا . مع أنه حرص وبذل مساعي لأن يشترك في المؤتمر ، لأن الحزب الشيوعي عارض اشتراك النجم مستخدما نفوذه السياسي على الساحة الفرنسية ، وهدّد العناصر الأخرى أو التنظيمات الأخرى بأنه ينسحب من المؤتمر إذا ما اشترك فيه النجم ، وبأنه سيعارض ويعرقل نتائج المؤتمر لدى حكومة الجبهة الشعبية ، باعتبار النجم حزبا انفصاليا ، ومطالبه متطرفة . ودعّم موقف الحزب الشيوعي العناصر المتحمسة للاندماج ، وكانت كفتها راجحة في المؤتمر بحكم ثقافتها ، وتمثيلها في المجالس

النيابية ، ومراكز نفوذها ، وهي أيضا لا ترتاح أبدا لمواقف النجم ، وتتخوف من تأثيره في المؤتمر تأثيرا يُفسد عليها خطتها .

المهم هو أن المؤتمر ضمّ أكثر الفئات المتواجدة على الساحة آنذاك .. ولذلك اعتبر المؤتمر أول تجمع من نوعه في الجزائر منذ الاحتلال .. إذ جمع أكبر حشد سياسي عرفته البلاد ، وإن كانت نوايا المشتركين متباينة لتباين الاتجاهات الأساسية .

فال حزب الشيوعي كان يهدف من وراء هذا التجمع إلى إيجاد أرضية واسعة له في الجزائر ، مع السعي للحصول على تأييد واسع ، يُمكنه من تدعيم الموقف اليساري الفرنسي في جبهته وحكومته ، ولهذا فاتباعه أساسا اندماجي ، يعارض كل فكرة انفصالية .. وليس قبوله لنقاط العربية والاسلام في كراس مطالب المؤتمر إلا تكتيكا .. ومناورة ..

ومن المعروف أن ابن جلول وأنصاره اندماجيون .. لا يرون حلا جذريا للمشكل الجزائري إلا بالاندماج التام بدون قيد ولا شرط .. كما أن ابن جلول كان يرمي من وراء المؤتمر الحصول على شعبية وزعامة .

وهناك السياسيون الإصلاحيون الذين لا يتنكرون لمشاريع فيوليت ، ويعتقدون بأن من الممكن إدخال بعض المطالب الوطنية عليها لتكون مقبولة ، مثل المحافظة على الأحوال الشخصية ، والدين الإسلامي ، واللغة العربية ، والقضاء .. والقبول أو المطالبة بمبدأ إلحاق الجزائر إداريا بفرنسا .

وقد سار المؤتمر في الاتجاه الإصلاحي ، لأن المؤتمر تسمّى « بالمؤتمر الاسلامي » ، وأيضا لأن المشروع أو كراس المطالب الذي تقدّم به المؤتمر لم يتضمن كلمة الاندماج ، أو لم يصرح بالاندماج ، بل اكتفى بكلمة

« الإلحاق » وللمحلّلين السياسيين تعليقات على كلمة « الإلحاق » ، وماذا تعنيه هذه الكلمة لدى الجزائريين من ناحية ، ولدى الفرنسيين من ناحية أخرى ؟ وهل « الإلحاق » خطوة أولى نحو الاندماج أو نحو تحسين الوضع العام بالبلاد ؟ أو أن كلمة « الإلحاق » ترادف « الاندماج » ؟ أو هي مجرد اصطلاح إداري لا علاقة له بالجوانب السياسية والدينية والثقافية ؟

يلاحظ المتنبّع لسير المؤتمر بأن هناك تحمّساً جاهيريا تجلّى في الجموع والوفود التي كانت تتردّد على نادي الترقّي ، والتي قامت بتوديع الوفد الذي يمثل المؤتمر في ميناء الجزائر ، وقد عبّر الشاعر محمد العيد آل خليفة على الأمل الذي كان يراود النفوس بقوله :

يا فرنسا بكِ الجزائر لاذتُ
وأكنّتُ لكِ الولاء الشديدا
فاز فيكِ اليسار ، فالיום لا عس
رَ ، أليس اليسار فالأحيدا ؟
ليس حقّا أن تحرمي الشعب حقّا
لقي النار دونه والحديدا
ليس حقّا أن تستريحي ويشقى
ليس حقّا أن تسكني ويميدا
يا فرنسا ، ردّي الحقوق علينا
وأقلّي الأذى ، وكفّي الوعيدا

لهذا اعتبر المؤتمر الإسلامي حدثا وطنيا ، اهتمّ به المؤرخون والسياسيون .. ومن الذين علّقوا عليه في السنوات الأخيرة الدكتور أبو

القاسم سعد الله في كتابه « الحركة الوطنية الجزائرية » حين قال في الجزء الثالث : « يُعتبر المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد بالعاصمة في السابع من يونيو 1936 أولَ تَجْمُعٍ من نوعه في الجزائر ، فلم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمُّعا تشترك فيه كل الاتجاهات ، وتُمثِّل فيه مختلف الطبقات ، وتبرز خلاله وحدة الصف والكلمة على مطالب معينة مثل ما حدث في المؤتمر المذكور » .

أما الدكتور محفوظ قداش ، فقد اعتبر فترة ما بين 1936 - 1939 فترة حاسمة في تاريخ الإصلاح السياسي .

كما وصف الأستاذ محمد قداش المؤتمر الاسلامي بأنه منعطف تاريخي ، حين قال : « يُمكن أن تعدَّ سنة 1936 مُنعطفا تاريخيا هاما لما اشتملتُ عليه من أحداث وتقلُّباتٍ على الصعيد الوطني والعالمي ، ولا يُمكن فهمُ تاريخنا الحديث إلا بتحليلها ودراستها » .

وفي رأبي أن المؤتمر حظي باهتمام الجزائريين لأنه :
أولا : لأول مرة ينعقد مؤتمر واسع بحجمه وأبعاده .

ثانيا : لأنه ضم أغلب التنظيمات والتشكيلات الموجودة في ذلك العهد ، ما عدا نجم شمال إفريقيا .

ثالثا : تعرَّفت الجماهير من خلال المؤتمر على خلفيات الكثير ممَّن كانوا يتصدَّرون ويتزعمون المحافل السياسية باسم الجماهير والدفاع عنها ، وهم في نواياهم وتحركاتهم اندماجيون لا يؤمنون بالشخصية الجزائرية .

رابعا : من الناحية التاريخية ،. بمناسبة انعقاد المؤتمر ظهرت لأول مرة فوق الأرض الجزائرية ، وبشكل علنيّ أفكار « نجم شمال إفريقيا »

الذي لم يشترك في المؤتمر كعضو ، إلا أنه استطاع إبلاغ صوته الاستقلالي عن طريق زعيمه ، واكتسب تعاطف الشعب معه ومع مطالبه الوطنية الواضحة ، وأحسن استغلال المناسبة ، كما قال الدكتور أبو القاسم سعد الله : « فهم لم يشتركوا في الإعداد (أي رجال النجم) ولا في تحمل المسؤولية ، ومع ذلك اشتركوا في النقد ، وفي محاولة قطف الثمار حين آن اقتطفاتها ، ولولا التجمع الذي نظمه المؤتمرون لما استطاع مصالي أن يلقي خطبته الشهيرة يوم الثاني من أغسطس ، فقد وجد الطريق مُمهّدة ، والنفوس مُعدّة ، والجمع حافلا » .

خامسا : وأهم ما في المؤتمر أنه كان تجربة ، وكانت لها نتائجها على صعيد الحركة الوطنية ، والاتجاه الوطني الخالص ، فقد خيب آمال الاندماجين الذين كانوا ينتظرون الكثير منه .. ونبه الإصلاحيين الذين تورّطوا في مصادقتهم على بند « إلحاق الجزائر بفرنسا رأسا » .. ونشط الاستقلاليين .. وأمن الجزائريون جميعا في الأخير بأن وعود فرنسا ليست إلا سرايا ، وتأكدوا بأن الروح الاستعمارية والفكرة الاستعمارية هي وحدها التي توجّه الساسة الفرنسيين سواء كان الحكم يمينيا أو يساريا .. وتجربة المؤتمر تجربة مع الجبهة الشعبية وحكومتها من ناحية ، ومع اليسار الفرنسي من ناحية أخرى .

مطالب المؤتمر الإسلامي :

تقدّمت كل كتلة في المؤتمر بمطالب تمثّل وجهة نظرها .. وحتى النجم الذي لم يشترك في المؤتمر تقدّم بمطالبه عن طريقه الخاص إلى وزير الداخلية بفرنسا .. ومعنى ذلك أن كل الفئات الجزائرية عبّرت عن اتجاهاتها ومطالبها ، سواء داخل المؤتمر أو خارجه .. حتى أن الشيخ

البشير الابراهيمي عبّر عن اقتراحات كل كتلة « بالاقتراحات الفردية » ،
إذ حاولت كل فئة أن تفرض رأيها ومطالبها .. إلا أنه في الأخير انتهى
تحضير اللجنة المؤقتة إلى كراس للمطالب يوفق بين النزعات والاتجاهات
التي يتكون منها المؤتمر ، وتضمن الكراس النقاط التالية المتفق عليها :
أولا : إلغاء سائر القوانين الاستثنائية التي لا تنطبق إلا على
المسلمين .

ثانيا : إلحاق الجزائر بفرنسا رأسا ، وإلغاء الولاية العامة
الجزائرية ، ومجلس النيابة المالية ، ونظام البلديات المختلطة .

ثالثا : المحافظة على الأحوال الشخصية الإسلامية مع إصلاح هيئة
المحاكم الشرعية بصفة حقيقية ومطابقة لروح القانون الإسلامي ، وتحرير
هذا القانون :

- فصل الدين عن الدولة بصفة تامة ، وتنفيذ هذا القانون حسب
مفهومه ومنطوقه .

- إرجاع سائر المعاهد الدينية إلى الجماعة الإسلامية لتتصرف فيها
بواسطة جمعيات دينية مؤسسة تأسيسا صحيحاً .

- إرجاع أموال الأوقاف لجماعة المسلمين ليكن بواسطتها القيام بأمور
المساجد والمعاهد الدينية والذين يقومون بها .

- إلغاء كل ما اتخذ ضد اللغة العربية من وسائل استثنائية ، وإلغاء
إعتبارها لغة أجنبية .

- الحرية التامة في تعلم اللغة العربية ، وحرية القول للصحافة
العربية .

رابعاً : الإصلاحات الاجتماعية :

- التعليم الإجباري للبنين والبنات . الشروع بسرعة في بناء المدارس الكافية لتعميم التعليم الإجباري .

- جعل التعليم مشتركاً بين المسلمين والأوروبيين .

- الزيادة في معاهد الصحة من مستشفيات ، ومستوصفات ، وفي معاهد الإغاثة ، كالمطاعم الشعبية ، وإنشاء خزانة للعاطلين من العمال .

خامساً : الإصلاحات الاقتصادية :

- تساوي الأجر إذا تساوى العمل .

- تساوي الرتبة إذا تساوت الكفاءة .

- توزيع إعانات الميزانية الجزائرية للفلاحة والصناعة والتجارة والاحتراف على الجميع ، وعلى مقتضى الاحتياج دون ميز بين الأجناس .

- تكوين جمعيات تعاونية فلاحية ومراكز لتعليم الفلاحين .

- الإقلاع عن انتزاع ملكية الأرض .

- توزيع الأراضي الشاسعة البور على صغار الفلاحين والعمال

الفلاحين .

- إلغاء قانون الغابات .

سادساً : المطالب السياسية :

- إعلان العفو السياسي العام .

- توحيد هيئة الناخبين في سائر الانتخابات .

- إعطاء الحق لكل ناخب في ترشيح نفسه .

- النيابة في مجلس الأمة .

انتهت مجموعة المطالب المتفق عليها ، وهي توضّح بأن المؤتمر تمكّن من توحيد وجهات النظر المتباينة ، في كراسة للمطالب موحدة .. وتمكّن أيضا من تشكيل « اللجنة التنفيذية » الممثّلة لكل الاتجاهات .. وكوّن في الختام وفده الذي يسافر إلى فرنسا لتقديم المطالب .

ويبدو أنه رغم الحماس الذي كان يسود المؤتمر ، فقد كان هناك تشكّك .. بدليل أن مجلة الشهاب كتبت في نفس العدد الذي خصصته للمؤتمر في صفحته 238 قائلة : « لكنني أعتقد - وأودّ لو أن الواقع يكون خلاف اعتقادي - أن الوعد سيرجع بتحقيقات طفيفة ، ووعود جزيلة ، ثم تمرّ الأيام ، ولا تتحقق الوعود ، ولربّما كان ردّ الفعل يومئذ شديدا ، إذ تفقد الأمة ثقتها في فرنسا حكومة وشعبا وأحزابا » ، وصدق الكاتب ، فقد عاد الوفد من فرنسا بوعود .. فقط ..

ما بعد الاجتماع الأول للمؤتمر الاسلامي :

نعم .. لقد عرفت الجزائر ما بن شهر جوان وشهر أوت من عام 1936 نشاطا سياسيا مكثّفا من جميع الأطراف والهيئات .. فالمسلمون الجزائريون تحرّكوا في إطار المؤتمر الإسلامي أو عن طريق النجم وأرسلوا وفودا لإبلاغ المطالب .. والأوروبيون أيضا قاموا بنشاط مكثف ، واتّجهوا وجهتين :

- الوجهة الاندماجية ، وتولاها الشيوعيون والاشتراكيون وبعض النقابات ، قاموا بتحركات لدى الأحزاب اليسارية الفرنسية ، ولدى الجبهة الشعبية ، وبذلوا مساعي كبيرة قصد احتواء التيار الإسلامي ، وإقصاء التيار الجزائري الاستقلالي ..

- الاتجاه الفرنسي الاستعماري المتطرف الذي يمثّل المعمرين ومصالحهم الاحتكارية ، وهو اتجاه يعارض كل إصلاح ، وكل محاولة لإدماج الجزائريين في المجموعة الفرنسية . لأن الجزائري في نظر هذه الطائفة المتطرفة لم يبلغ بعد مستوى حضاريا يؤهله للاندماج .. كما ترى هذه الطائفة بأن الاندماج يمثّل خطرا عليها وعلى مصالحها ، لأنه يجعلها أقلية عددية أمام أكثرية عددية جزائرية ، والبعض من هذه الطائفة يدّعي بأنه يستحيل إدماج جماعة لا تزال متمسكة بقوانين الأحوال الشخصية الإسلامية ، وتسُلّل هذا البعض من هذه الحيشيات إلى توجيه الانتقاد إلى الشريعة الإسلامية ، واعتبارها شريعة رجعية تسمح بتعدد الزوجات . ولا تعدل في الإرث بين الذكر والأنثى .

وقد وجد هؤلاء المتطرفون أنصارا ومؤيدين داخل الأوساط الفرنسية الحاكمة ، وبذلك كانت لهم الكلمة الأخيرة ، والحسم الأخير في معارضة كل إصلاح ، بما في ذلك مشروع بلوم فيوليت .

الاجتماع الثاني بالملعب البلدي :

انعقد الاجتماع الثاني بالملعب البلدي بالعاصمة يوم 2 أوت من نفس السنة بطلب من الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ليقدم الوفد الجزائري - الذي أرسله المؤتمر إلى فرنسا - نتائج رحلته ، واتصالاته بالجهات المسؤولة في فرنسا .

وكان يوما تاريخيا ، وصفه الشهاب بقوله : « كان يوما وحيدا في تاريخ الجزائر الحديث ، يوم تجمّع فيه ما يزيد عن العشرين ألفا من أشبال الجزائر ، جاءوا من كل حذب وصب ، لاستماع كلمات الوفد ، ولمعرفة مقدار ما لاقته الفكرة من نجاح ، وما سارته الحركة من

خطى ، فكانوا في مجموعهم وهم كالبحر الزاخر ، يمثلون ذاتا معنوية واحدة ، هي الأمل .

فعلا .. تداول الخطباء الكلام ، متناولين الرحلة ، والغرض ، والتناجح .. وإن أبرز ما أضفى على اليوم وصف « اليوم التاريخي » هو ما ألقاه عبد الحميد بن باديس ، ومصالي الحاج من خطب وطنية صادرة عن روح وطنية عالية ، وقيلت بلهجة شعبية صادقة تجاوب معها الشعب .. واستقبلتها الجماهير بحماس ، حتى أنها حملت مصالي الحاج على الأعناق بعد انتهائه من خطبته الشهيرة .

ومن المفيد استعراض الخطابين الرائعين اللذين سادا اجتماع 2 أوت 1936 .

أولا خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس :

« أيها الشعب الجزائري التاريخي القديم المسلم الصميم ، كلمته من كلمة الله ، وإرادته من إرادة الله ، وقوته من قوة الله ، أولست منذ شهر كوئت مؤتمراً كما ينبغي أن يكون جلالة وروعة ، فذلك مجلّى إرادتك ومظهر قوتك ، وكوئت هذا الوفد الكريم فحملته مطالبك ، فاضطلع بها ، وأدى الأمانة في ثمانية أيام ، وهي لا تؤدى إلا في أضعاف ذلك من الأيام ، وفد لعمر الله مثلك في قوتك وإرادتك وحياتك وكرمك ، وفد متحداً متعاون متساند ، زار الوزارات والأحزاب وأرباب الصحف فعرفك إليها ، ورفع إليها صوتك ، ولقد كدت تكون أيها الشعب مجهولاً عندهم تمام الجهل ، لكن بأعمالك العظيمة ، وبما قام به الوفد صرت معلوماً لدى من يعرف الحق ، ويحترم الكريم ، وينصف المظلوم .

أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنتَ على أنك شعب
متعشقٌ للحرية ، هائم بها ، تلك الحرية التي ما فارقتُ قلوبنا منذ كنّا
الحاملين للوائها ، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها ، وكيف نحيا
ونموتُ لأجلها .

إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا ، وفتحنا قلوبنا ، فإنْ مدَّتْ
إلينا يدها ، وملأتْ بالحب قلوبنا فهو المراد ، وإنْ ضيّعتْ فرنسا
فرصتها هذه ، فإننا نقبض أيدينا ، ونغلق قلوبنا ، فلا نفتحها إلى
الأبد .

أيها الشعب ، لقد عملتِ وأنتِ في أوّل عملِكَ ، فاعمل ، ودّم على
العمل ، وحافظ على النظام ، واعلمْ أن عملك هذا على جلالته ، ما هو
إلا خطوة ووثبة ، ووراء خطوات ووثبات ، وبعدها إمّا الحياة ، وإمّا
المات .

ومن تحليل الخطاب نستخلص أن ابن باديس تحمّل مسؤولية توحيد
الجماهير ، وتحديد العلاقة بين الجزائريين وفرنسا .. أكّد كثيرا على
الإرادة الشعبية التي هي من إرادة الله ، وعلى أن قوة المؤتمر تكمن في
القوة المستمدة من مدى التفاف الشعب حوله .. وبيّن في هذا الخطاب
رغبة الشعب في الحرية ، وتعشّقه لها ، ومعرفة كيف يحيا ويموت
لأجلها ..

ثانيا : خطاب مصالي الحاج :

« سادتي . إخواني .

باسم نجم شمال إفريقيا أحييكم تحية الأخوة ، وأحمل إليكم تضامن
مائتي ألف شمال إفريقي يقيمون في فرنسا ، واحتراما للغتنا الوطنية

اللغة العربية التي كلنا نعتزُّ بها ، ونعجب بها ، وأيضا تقديرا لنبل هذا الشعب الجزائري الشجاع الكريم ، فقد أردتُ أن أعبرُ أمامكم بعد نقي دام اثنتي عشرة سنة بلغتي الأم .

أنا سعيد وجدُّ راضٍ إذ أتمكَّن اليوم من عقد اتصال رسميِّ بكم ، وأستغلُّ الفرصة التي أتاحتُ لي كي أقول لكم بأنِّي سعيد ومتأثِّر بوجودي على أرض الأجداد ، ولكي أقول لكم : كم أنا متألِّم في قرارة نفسي لابتعادي عن وطني منذ مدة .

إخواني الأعزاء :

باسم نجم شمال إفريقيا قدِمْتُ للمشاركة في هذا الاجتماع الكبير لكي أشرك منظمنا في هذه المظاهرة الضخمة ، وإن نجم شمال إفريقيا وكفاحه الذي قاده منذ عشر سنواتٍ دفاعا عن مصالح الشعب الجزائري ، ومع ذلك فإنِّي سأعنتم هذه الفرصة التي اجتمعتم فيها بكثرة ، بل بالآلاف ، لكي أدكر لكم بعضَ التفاصيل عن الدور الذي لعبه ومن الواجب عليَّ أن أقول بأن المعركة كانت صعبة ومريرة .

وتحت حكومات من أكثر الحكومات رجعية ، وفي الوقت الذي كان فيه كل الناس في بلادنا صامتين ، وتحت حكم استثنائي كان نجم شمال إفريقيا هو الوحيد الذي تجرَّأ على رفع الصوت للاحتجاج ضدَّ كل سوء استعمال للسلطة والظلم والإجحاف ، وليقول أمام العالم إن الجزائر لم تمُتْ ، وأنها بإرادة أبنائها تريدُ أن تعيش حرةً وسعيدة ، وهذه الجرأة هي التي جرَّتْ على مناضلي النجم المشاقَّ التي لا مثيل لها ، كما جرَّتْ عليهم أكثر أنواع الحقد عنصرية .

لا لأننا كنا بباريس مدينة ثورة 1789 كُنَّا في حماية من القمع الذي أحدث تدميراته في هذا الجانب ، وفي الجانب الآخر من حوض البحر الأبيض المتوسط .. لقد كُنَّا على استعدادٍ حين علمنا بأن المظالم ومساوئ الاستعمار تُمارس فوق الأرض الجزائرية .. بمجرد أن علمنا ذلك أسمعنا الصوت المكبوت لشعبٍ يصرخ وينادي الإنسانية لإغاثته .

لقد صدرت ضدنا أحكام بالسجن لمدة سنوات ، مع التغريم بآلاف الفرنكات ، وقد عرفنا النفي والتهجير ، ولم يَسَلِّمْ أحد خلال هذا الكفاح .. وهناك أشخاص طُردوا من معامل « سيطروان » و « رونو » لأنهم أعضاء بنجم شمال إفريقيا .. هناك عاطلون حُرِّموا من المنح المقررة للعاطلين عن العمل بسبب أنهم حضروا اجتماعات منظمنا .

إخواني أخواتي .

بما أنني لاحظتُ في هذا التجمع وجود نساء جئن لیسْمَعْنَ صوت الشعب ، يجب أن أقول لكم بأننا إذا غادرنا بلدنا ، بحثاً - تحت أي مناخ - عن الخبز والحرية التي حُرِّمنا منها في بلدنا ، فإننا وجدنا في باريس بلدية مختلطة يوجد على رأسها قائدٌ بشْوَاشه .

وحتى هذا اليوم ، وتحت حكومة الجبهة الشعبية ، مازلنا نتعرض لسلسلة من الإجراءات الخاصة والقوانين الاستثنائية في قلب باريس ، وهي إجراءات وقوانين لا تُستعمل إلا ضدنا نحن فقط .

في قلب باريس .. هناك مستشفى بوييني وهو مستشفى خاص بنوع من الأمراض يُبعث إليه كل العرب ، كأنهم جميعاً جربٌ يعدي الإنسانية .. نحن في كل الظروف ، وفي كل الأحوال كافحنا من أجل الحرية ، ومن أجل إخواننا المحرومين .

من أجل ذلك اتهمونا أكثر من مرة بكوننا شيوعيين ووهابيين ،
وعملاء ألمانيا ، وعملاء موسكو ، وغيرها من البلدان ، ونحن نقول لكم
بأننا لم نكن عملاء لا لهؤلاء ، ولا لأولئك ، لأننا كنا وما زلنا وسنظل
دائماً عملاء وخدمة للشعب الجزائري .. لقد عزمنا على تحمل كل
التضحيات من أجل أن تكون الجزائر حرة ومزدهرة ومتعلمة .

ونخبركم بأننا أيضاً توجهنا إلى وزارة الداخلية ، وقدمنا للسيد
راؤول أوبو (Raoul Aubaud) نائب كاتب الدولة قائمتين بالمطالب
إحداهما تخصّ الجزائريين المقيمين في فرنسا ، والأخرى تخص الشعب
الجزائري ، ونخبركم أيضاً بأننا علمنا وسررنا بانعقاد المؤتمر الذي انعقد في
بداية جوان بالعاصمة ، وقد أيدناه رغم ملاحظتنا عليه ضعفه وتسرعه .

وعند وصول الوفد الجزائري (إلى باريس) المنبثق عن المؤتمر ،
سارغنا إلى تحيته ، والاتصال به ، وتبادل الآراء معه حول مشكل
بلادنا ، ورغم موافقتنا وتأييدنا بل وتهنئتنا لمنظمي هذا المؤتمر الذي
سيكون نقطة تحوّل في تاريخ الجزائر ، فإننا نقول لكم بصراحة بأنه يجب
علينا اليوم أن تقدّم لكم توضيحات نراها ضرورية ، بدون شك ، نحن
نوافق على المطالب العاجلة التي هي في الواقع متواضعة وشرعية ، والتي
نصّ عليها ميثاق المطالب الذي قدّم إلى حكومة الجبهة الشعبية ، وإننا
سنؤيّدُها بكل قوانا حتى نراها منجزة ، رغم ضعفها ، لأن المطالب
الطفيفة قد تنفع في النقاط الهامة حين تساعد على التخفيف من هذه
التعاسة الشعبية .

وهنا ألّزّم باسم منظمي وأمام الشيخ الجليل عبد الحميد بن باديس
أن أعمل كل ما في وسعي لتأييد هذه المطالب ولخدمة القضية النبيلة

التي تُدافع عنها جميعا ، لكننا نقول بصراحة وبشكل لا يقبل التراجع بأننا نتبرأ من ميثاق المطالب بخصوص إلحاق بلادنا بفرنسا ، وبخصوص التمثيل البرلماني .

والواقع ، إن بلادنا اليوم ملحقة بفرنسا إداريا ، وهي تابعة لسلطتها المركزية ، ولكن هذا الإلحاق كان نتيجة غزو فظيع ، تلاه احتلال عسكري يقوم اليوم على الفيلق التاسع عشر ، والشعب لم يوافق عليه أبدا .

أما الإلحاق الذي نصّ عليه ميثاق المطالب فهو مطلوب إراديا باسم مؤتمر يقولون عنه إنه يُمثّل إجماع الشعب الجزائري ، ومن ثمة فهناك فرق أساسي بين إلحاق لبلادنا حصل رغم إرادتنا ، وإلحاق إرادى مقبول عن طيب خاطر في المؤتمر الذي انعقد في السابع من جوان بالجزائر العاصمة (مؤتمر مغلق لمدة ثلاث ساعات) .

إننا أيضا أبناء الشعب الجزائري ، ولن نقبل أبدا أن تكون بلادنا ملحقة ببلاد أخرى رغم إرادتها ، فنحن لا نستطيع مهما كانت الظروف أن نراهن على المستقبل الذي هو أمل الحرية الوطنية للشعب الجزائري .

إن هذا المستقبل يخص الجيل الصاعد ، فهو وحده الذي يملك الحق في تقرير مصيره وقدره ، ونحن أيضا ضد التمثيل البرلماني لأسباب عديدة ، إننا نؤيّد إلغاء المجالس المالية ومنصب الوالي العام ، وتقف مع إنشاء برلمان جزائري منتخب عن طريق الاقتراع العام بدون تمييز بالعنصر أو بالدين .

إن هذا البرلمان الوطني الجزائري الذي يتكون في عين المكان ، سيعمل تحت مراقبة الشعب المباشرة ، ومن أجل الشعب ، ونحن نعتقد

من جهتنا بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح للشعب الجزائري بأن يعبر عن نفسه بحرية وبصراحة بعيدا عن كل الضغوط والمناورات الإدارية .

إنه لا يمكنني في هذا الوقت القصير أن أقول لهذا الشعب الكريم في الجزائر كل ما يجب أن أقوله له ، خاصة وإنني تجاوزت الوقت الذي قد حددته لي اللجنة المحترمة ، بينما يجب أن ألفت انتباهكم طالبا من إخواني أن يتفهموا وأن يفكروا وأن يتأملوا جيدا ، وبدون طيش في مشكل بلدنا المطروح أمامكم .

ورغم أنني متعب ومُنهك من سفرة شاقة ، لأنني نزلت الآن من الباخرة ، فإنني لا أغادر المنصة قبل أن أعبر لكم عن فرحتي وتأثري بوجودي بينكم فوق تراب وطني .

أخيرا ، قبل أن أختتم تدخلتي ، أشكر اللجنة المحترمة التي أتاحت لي التكلّم من هذه المنصة .

سمعت منذ هنيهة الخطباء الذين سبقوني بأنهم قولوا باحترام وحفاوة في فرنسا من طرف حكومة الجبهة الشعبية .. لا أناقش ، ولا أقلل من قيمة الجو الذي دارت فيه هذه اللقاءات ، لكنني أقول بأن على الشعب الجزائري أن يكون يقظاً ، إنه لا يكفي أن يرسل وفدا ، وأن يتقدم بمطالب ، ثم ينخدع بالاستقبالات منتظرا أن تتحقق الأمور تلقائيا .

إخواني .. لا يجوز النوم على الأذنين ظنا بأن الأعمال كلها انتهت ، بل هي الآن ابتدأت .

يجب أن تنتظموا .. أن تتوحدوا في منظماتكم لتكونوا أقوياء ،
ولتكونوا محترمين ، وليُسمع صوتكم القوي وراء البحر الأبيض المتوسط .
من أجل الحرية ، ومن أجل نهضة الجزائر تجمّعوا أفواجا حول
تنظيمكم الوطني نجم شمال إفريقيا الذي سيُدافع عنكم ويقودكم في طريق
التحرر .

ولما لهذا الخطاب من أهمية ، فقد كتب الدكتور أبو القاسم سعد الله
ما يلي : « إن هذه الخطبة التي حوّل فيها مصالي أنظار الحاضرين من
الاعتدال إلى التطرف ، ومن الرضا بالقليل إلى المطالبة بالكثير ، ومن
الدعوة إلى المساواة عن طريق الاندماج إلى نقد الاحتلال ، والدعوة إلى
التحرر ، هي التي جعلت الناس يستقبلونه بحفاوة ، ويتحمّسون له حتى
حمله على الأكتاف » (أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية
1930 - 1945 ج 3 ص 179) .

أهمية اجتماع 2 أوت أنه المرحلة التي ظهرت فيها التيارات
الاندماجية . الإصلاحية . الاستقلالية .. وأنه المناسبة التي بدأت الجماهير
الشعبية تبرز فيها إلى الميدان معبرة بشق وسائل التعبير والتأييد عن
أفكارها وميولها ، وتمارس التعامل مع السياسة .

ومن الطبيعي أن لا ترتاح الإدارة الاستعمارية لهذا الاجتماع
وتتأججه ارتياحها للاجتماع الأول .. فشرعت في تدبير المكائد .. ومن
هذه المكائد التاريخية اغتيال مفقي الجزائر كحول في نفس اليوم الذي
انعقد فيه اجتماع 2 أوت ، وبعد انتهاء الاجتماع مباشرة .. ولعل الإدارة
كانت ترمي من وراء عملية الاغتيال إلى تحقيق عدة أغراض ، منها :

- مضايقة رجال « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ، وخاصة الطبيب العقبي الذي قام بدور نشيط في المؤتمر الإسلامي ، بآتهامه باغتيال مفتي العاصمة الذي تخلّص منه بعد أن بالغ في الإلحاح بأن لا تسمح الإدارة الفرنسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتمثيلها للشعب الجزائري .

- الشروع في مضايقة نجم شمال إفريقيا الذي ظهر فوق الأرض الجزائرية بنشاط واسع مكثف ، وإقبال شعبي متحمس .

- بث التفرقة في صفوف التكتلات التي يتكوّن منها المؤتمر .

وقد توصلت الإدارة إلى تحقيق بعض أغراضها .. وبدأ اليأس يَدِبُ في نفوس بعض رجال المؤتمر ، ومنهم عبد الحميد بن باديس الذي كتب متحدّثاً عن نشاط الوفد الجزائري بفرنسا في المقال الافتتاحي للجزء السادس من المجلد الثاني عشر :

« رجعنا وأكثرُ الرفاق يظنُّ أن المطالب المستعجلة إذا لم تكن صاحبتنا ، فإنها لا تتأخّر عنّا بأكثر من أسبوع ، وإذا تقاعست وتباطأت فلا أكثر من شهر ، أما أنا فلم أكنُ - مع الأسف - على هذا القدر من الرجاء ، فالجبهة الشعبية تعيّد في بقائها على الراديكاليين ، وهؤلاء ما يزال فيهم من عرفنا سياستهم الاستعمارية في العهد القديم ، وهم ما يزالون عليها في العهد الجديد » .

كما أدى اغتيال المفتي إلى تضعف الوحدة بين أفراد وهيآت المؤتمر .. فقد أدلى الدكتور بن جلول بتصريحات يدين فيها جمعية العلماء بمقتل كحول .. وغرضه في ذلك إضعاف التيار العربي الإسلامي ، بتوجيه الاتهامات الخطيرة إليه ، وهو ما أرغم الجمعية على التصدي له بمقالات

عديدة وعنيفة ، من أهمها مقال بمجلة « الشهاب » تحت عنوان :
« ارتفاع القناع عن وجه الدكتور » ورد فيه :

« إن القضية الجزائرية لا تسير سيرها الموفق ، ولا تُثَرِثُ ثمرتها المطلوبة ، إلا إذا كانت متوحدة الصفوف ، متساندة المناكب ، وإن هذه الصفوف لن تتوحد ولن تستطيع أن تسير إلا إذا أبعدت عن ساحتها دُعاة الهزيمة ، وسُعاة الخديعة ، والعاملين على تسنُّم ذرى الزعامة الكاذبة ، مُتَخَطِّين أعناقها ، جاعلينها مطية ذلولاً تُوصلهم إلى غايتهم .

« أمثال هؤلاء يجب قبل كل شيء أن تتطهر منهم الأمة ، وأن تخلو منهم الصفوف ، وأن يرتدع بمصرعهم الوخيم أمثالهم من الذين يريدون السير على منوالهم » (الشهاب ج 8 . م 12 . ص 372) .

وبالفعل بدأت زعامة وشعبية ابن جلول في الانهيار منذ عام 1937 ، وبانهياره ضعفت الجبهة الاندماجية .. واكتسحت الأفكار الوطنية والاستقلالية الميدان .. وما كادت الحرب العالمية الثانية تندلع حتى كانت الأفكار السياسية قد تبلورت في شكلها الوطني ، ولم يَعدْ مِنَ السَهْلِ الاقتصار على جانب واحد في أي نشاط ، فالشخص عضو في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ومناضل في حزب الشعب الجزائري ، وقائد في الكشافة الإسلامية الجزائرية ، لأن الوطنية أزلت كل الحواجز بين التحركات الدينية والثقافية والسياسية والكشفية ..

وفي هذه الفترة لوحظ تقارب كبير بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري ، فهل كان هذا التقارب نتيجة القمع الذي تعرضت له كل من الجمعية والحزب ؟ أو هو نتيجة اهتمام الجمعية بالجانب السياسي الوطني ، واهتمام الحزب بالجانب الثقافي الديني ؟

المهم هو أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استفادت من انعقاد المؤتمر الإسلامي ، واكتشفت من خلاله العناصر المخلصة والعناصر المتخاذلة ، وتعرّفت فيه على الاتجاه الوطني السليم .. كما أن نجم شمال إفريقيا استفاد من انعقاد المؤتمر ، وتأكّد بعده أن العمل الحقيقي يجب أن يكون فوق أرض الوطن ، وإلا فإن العناصر الخائنة والمتخاذلة تستغل الساحة والفراغ .

لكن من الانصاف للحقيقة والتاريخ أن لا يطوي الإنسان صفحة المؤتمر الإسلامي دون أن يعترف بالموقف الوطني الرائع الذي وقفه النجم ضد سياسات الاندماج . التجنيس . الإلحاق .. وقد أبلى في ذلك بلاء عظيما ، وتقبل التضحيات الجسيمة ، كما لا يليق أن لا نستعرض النداء التاريخي الذي وجهه مصالي الحاج إلى الشعب الجزائري في شهر نوفمبر عام 1936 ، والذي أورده الدكتور محفوظ قداش في كتابه « تاريخ الحركة الوطنية » .. ومن أهم ما جاء في هذا النداء :

« المساكين الجزائريين ..! الاندماج ..! الإلحاق ..! الإبتاع ..! الانضمام ..! المزج ..! وكثير من الكلمات المترادفة من محو إلى بعثرة .. تَرَدَّدَ دون إدراك المعنى لكل كلمة ..! يتباهون حين يتذرّعون بأن الحكومة من الجبهة الشعبية ، ولا يدركون ماذا تعني هذه الكلمات من خزي وعار وسخرية ، وفي نفس الوقت من مأساة ..! »

« كم يجري في الجزائر من أشياء مُضحكة في حين يجب أن تكون حزينة ..! »

« فهل يتواصل نومنا ؟ وهل تتوقف هذه الترددات ؟ أما لهذا من نهاية ؟ بعد مائة وست سنوات تحت الاستعمار نطلب الاندماج ؟ أي عار ؟ وأية فضيحة ؟ »

« الإدماج » الإلحاق كلمات فظيعة مخيفة !

« هل تعرفون هذا العمل الذي لا معنى له ، إنه في نظر الإله عظيم الخطورة .

« إن الشعب الذي يطلب أن يندمج في شعب آخر يقطع العلاقة التي تربطه بربه !. ويقطع صلته أيضا بتاريخه .. بأجداده .. وبذريته .. في حين أن لنا معاشر الجزائريين تاريخا مجيدا ولغة نبيلة ، وشخصية مقدسة ، وضميرا حيا .. كل هذه الصفات تمنعنا من أن نطلب اندماجا يتطلّب منا التناكّر لهذه الصفات الرائعة .

« إن هذه الصفات تحذّرنّا بأننا إذا طلبنا الاندماج سيكون طلبنا « قبرا محفورا ، وكفناً مُعدّاً » ، وفي ذلك اليوم تتوسل بالزبور ، فلا يأتي أحد لإغاثنّا .

« البعض يتخذ السينغاليين نموذجاً بما أنّهم طلبوا إلحاقهم .. هل شخصيتهم شبيهة بشخصيتنا ؟ لا .. ألف لا .. نحن شرفاء .. سلالة شرفاء .. ويجب أن نبقى شرفاء ..

« بكل تأكيد ، نفضل أن نبقي جزائريين مضطهدين ، على أن نتحول إلى فرنسيين أحرارا .. هذه الكلمات التي لا يستطيع أحد أن يقول إنها جارحة هي تعبير عن الحقيقة نقولها بدون تردد !.

« ليس هناك إلا موقفان .. إما أن تكون وطنيا حارا .. أو أن تكون خائناً مجرماً !. نحن لا نسمح أبدا بأن تخاطروا بأدنى حق لهذا الشعب التعيس في التحرير الذي قرّرنا أن نضحي من أجله .. أي أحق هذا الذي يعتقد بأنه يقوم بتجربة !. كما يقول المثل : « يُحب يتعلم الحجامة ، في روس اليتامى » هذه التجربة التي يريد أعداؤنا أن يقوموا

بها ليستْ إلا مقامرة .. إنهم يضعون أنفسهم في وضع ذلك الذي يشرب كأساً من الخمر ليعرف هل الخمرة تسكر ؟ أو كذلك المجنون الذي يحاول أن يضع الشمس تحت الأرض .. لا يجب أن نرتجل مع الشعب ، ولا أن نعبث بحقوقه ، لا يمكن أن نستخلص من الحنظل عسلاً ، ولا يُمكن أن نحول الزفتَ حليباً خالصاً .

« لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي بأننا متطرفون حين نطالب بالاستقلال .. حقيقة نحن نطالب بالاستقلال ونطلبه بشرف ، باذلين للوصول إليه جهودنا ، نحن لا نطلبه في الحين ، بالعكس نحن نعلن بأن برنامجنا إلى تحرير الجزائر بوسائل عادية ، وبدون تحديد أجل ، وإننا نواصل فقط طريق التحرير ، لا طريق الاندماج والتجنيس » .

بهذا النداء الذي تضمن من الصراحة والحماسة ما لم يتضمنه أيُّ مقال أو خطاب في تلك الفترة الحرجة ، نختم الحديث عن المؤتمر الاسلامي الذي انتهى بعد المحاولات إلى فشل .



جمعية العلماء المسلمين
الجزائريين
من المؤتمر إلى الحرب
العالمية الثانية

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من المؤتمر إلى الحرب العالمية الثانية

رغم الفترة القصيرة بين تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وانعقاد المؤتمر الإسلامي استطاعت الجمعية كسب أنصار متحمسين ، واستطاعت أن تفرض نفسها على الساحة الدينية ، وإذا ركزنا على الساحة الدينية ، فذلك لأن الجزائري في ذلك العهد لا يفرق بين الدين والسياسة ، ولو أن الجمعية استبعدت في قانونها الأساسي كل نشاط سياسي .. واشتراكها في المؤتمر أكد على أن الجمعية لا يمكن لها أن تظل - في ظل استعمار غاشم - منكشة في إطار ديني محض . بعيدة عن الجماهير ومطاعها ، لا سيما وأنها التنظيم الوطني المسموح له قانونيا بمزاولة نشاطه في البلاد ، ويتوفر لديه جهاز يمكنه من الاتصال بأوسع قاعدة شعبية ، ولولا ذلك لما استطاعت أن تفرض نفسها في المؤتمر .

ولعل نشاطها في المؤتمر ، ونفوذها لدى الأوساط الشعبية هو الذي جعل مديرية الشؤون الأهلية تتخوف ، فدبرت مؤامرة الاغتيال ، وألقت القبض على الشيخ الطيب العقبي وعلى السيد عباس التركي ، وأطلقت سراحها بعد أن ثبتت براءتها ، وأبقت على عكاشة داخل السجن بوصفه المنفذ للاغتيال . ولم يطلق سراحه إلا في أواخر الخمسينات أي قبيل وفاة الشيخ الطيب العقبي بقليل .

وقد نالت المؤامرة فعلاً من معنويات العقبي دون أن تنال من أعضاء الجمعية الآخرين بدليل أن لهجة صحافة الجمعية ، وخطب رجالها تغيرت منذ عام 1937 نحو « الجذرية » أو « التطرف » .. وبما أنه لا يمكن التعرض لكل الخطب والمقالات التي تؤكد هذا الاتجاه ، فإنه على الأقل لا يمكن إغفال بعض ما كتبه أو قاله ابن باديس ، باعتباره رئيس الجمعية ، والناطق باسمها .

وقبل استعراض مواقف ابن باديس ، من الأفضل التوقف عند بعض الأحداث التي كانت لها انعكاساتها على الجمعية :

1 - اغتيال مفتي الجزائر ، وسجن الطيب العقبي ، ووجود جمعية العلماء في قفص الاتهام ، الشيء الذي جعلها تدافع عن نفسها كجمعية ، وعلى العقبي لتبرئة ساحته من التهمة الملققة .

2 - تخلي بعض النواب عن تأييد الجمعية ، وعن الدفاع عنها لدى الإدارة الفرنسية بصفاتهم النيابية ، بل بلغ الأمر بابن جلول أن يتحامل على الجمعية ، وأن يوجه الاتهام إليها ، ويندد بالعنف الذي تمارسه .. مع أن ابن جلول كان الشخص المرن في مواقفه مع الجمعية في الماضي ، بحكم علاقته وقربته لابن باديس .

3 - صدور قرار 8 مارس 1938 وهو قرار يضع قيوداً ثقيلة تحول دون ممارسة التعليم العربي الحر .. مما أجبر ابن باديس على توجيه مناشير ورسائل إلى عدة هيآت ومنظمات للقيام بتحركات احتجاج ..

4 - زيارة ابن باديس لتونس وقيامه بنشاط واسع ، وباتصالات مكثفة بالعناصر الوطنية التونسية ، ولهذه الاتصالات آثارها ونتائجها في حياة ابن باديس ، وفي مسار الجمعية أيضاً .

5 - إلقاء السلطات الإدارية الفرنسية القبض على بعض رجال جمعية العلماء أمثال : عبد القادر الياجوري ، علي بن سعد ، عبد العزيز الهاشمي ، عبد الكامل ..

6 - مضايقة المدارس ، ومراكز التثقيف والتعليم ، وملاحقة بعض القائمين بالتعليم والوعظ والإرشاد .

7 - خلاف ابن باديس مع العقبي .. وهو خلاف بدأ يظهر منذ المحنة التي مرَّ بها العقبي ، وبعد خروجه من السجن ، فقد أصابه فشل ، وظهرت عليه علامات التخاذل التي لم يتقبلها أعضاء الجمعية الآخرون .. ولم ينكشف الخلاف بصفة علانية إلا حين تقدّم العقبي إلى الجمعية باقتراح يقتضي تقديم شواهد الولاء والإخلاص لفرنسا حين ظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية ، فهل صدر هذا الاقتراح من العقبي نفسه ، أم صدر بإيحاء من جهات فرنسية ؟

8 - محاولة اغتيال الشيخ أحمد الحبيباني بقسنطينة ضمن خطة مدبرة ضد ابن باديس .. ولا يستبعد أن يكون للإدارة الفرنسية مخطط واسع في عدة أماكن .. المحاولة الأولى في الجزائر .. والثانية في قسنطينة .. ومن يدري فقد تكون الثالثة بتلمسان .. والرابعة بتبسة ..

هذه الأحداث جميعها اضطرت الجمعية إلى تعديل مواقفها .. وتطوير لهجتها .. وإلى الابتعاد نوعاً ما عن كتلة النواب التي انغمست في تأييد السياسة الفرنسية .. وأدت بالجمعية إلى التقارب مع العناصر الأشدّ وطنية ، وخاصة مع حزب الشعب الجزائري الذي يلتقي مع الجمعية في أن مبادئه الوطنية الأصيلة لا تتعارض مع مبادئ الإسلام والعروبة ، وقد وصل التقارب غير المخطط بين الجمعية والحزب إلى وجود

أعضاء في شعب جمعية العلماء يمارسون النضال في داخل حزب الشعب دون أن يشعر هؤلاء الأعضاء بوجود تناقض بين الإسلام والعربية والاستقلال .

الآن نستعرض كتابات ابن باديس حسب الأحداث :

الحديث الأول : الذي تأثر له ابن باديس ، واهتزت له جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو إلقاء القبض على الشيخ الطيب العقبي ، للمكانة المعتبرة التي كان العقبي يحتلها ، فقد كان مصلحا متشددا ، وخطيبا بليغا ، وواعظا مؤثرا ، وصاحب شخصية جذابة ، مكنته من فرض نفسه على الأوساط العاصمية ..

وما إن وقعتْ حادثة مقتل ابن دالي كحول ، وألقي القبض على العقبي حتى بادر ابن باديس بتوجيه نداء باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، جاء فيه :

« أيها الشعب الكريم !

كبر على أعدائك أن يروك فرحاً مسرورا بمؤتمرك العظيم ، ووفدك إلى باريز ، وبلوغ صوتك إلى الحكومة الفرنسية وأحزاب الجبهة الشعبية ، ورجوع وفدك يحمل الآمال الصادقة والثقة التامة من تلك الحكومة ، وتلك الأحزاب .

كبر على أعدائك كل هذا ، فأخذوا يُدبّرون لك المكائد ، وينصبون لك الأشرار ، فكانت تلك الجناية المنكرة على الإمام « ابن دالي » ثم كانت تلك التهمة الشنيعة على الاستاذ « الطيب العقبي » ، كل ذلك لأجل أن يُثيروك فيخرجونك عن النظام والسكينة ليصوّروك بالصورة التي يريدونها لك من القبح والفساد ، ولأجل أن يزيدوا ثقتك بالجبهة

الشعبية حكومتها وأحزابها ، ويوهوك أنه لم يصبك في أيامهم ما أصابك في أيامها فيفصلونك عنها لتقع فريسة بين أيديهم .

أيها الشعب الكريم ! أرفع صوتك بالاحتجاج ضد كل إجرام ، وكل كيد ، أعلن مقتك للكائدين والمكّارين .

دُم على ثقتك بالجبهة الشعبية حكومتها وأحزابها ، ثِقْ بأن عين العدالة الفرنسية ستفضح الكائدين » (البصائر . 28 أوت 1936) .

اعتبر ابن باديس حادثة الاعتقال محنة لم تنل من عزم الجمعية .. ونعمة من ناحية أخرى لأنها « أحدثت في العالم المتصل بالجزائر روحا جديدة من العطف على الجمعية والتنبه لمكانتها والتأييد لها » .

فعلا ، تحولت قضية اعتقال العقبي إلى قضية وطنية بما أحدثته من صدى ، خاصة في العاصمة .. اهتمت بها الأحزاب والتنظيمات الجزائرية ، وغير الجزائرية ، وأخذت بعدا أوسع مما كانت تتوقعه الإدارة الاستعمارية . ماذا استفادت الإدارة الفرنسية باغتيال كحول واعتقال العقبي ؟

مديرية الشؤون الأهلية تعرف الجواب ، بحكم اتصالها الوثيق بالملف كحول ، ومراقبتها لتحركات ونشاط العقبي ، والشيء الأكيد هو أنها تمكنت من التأثير في العقبي ، واستطاعت فصله عن الجمعية ، آملة أن الفصل يُضعف الجمعية إن لم يُحطمها نهائيا ، وهو ما لم يحدث ، بل خرجت الجمعية من محنتها أقوى ، وتجاوزتها بشجاعة .. لأن الإيقاف والمحاكمة في ذلك العهد ليسا بالأمر الهين .. لا يستطيع الثبات فيها إلا من كان صادق الإيمان والوطنية .. ولهذا بدل أن تهتز الجمعية وتنهار ، اهتزت مكانة العقبي ، وانهارت سمعته ، كما قال الدكتور سعد الله : « إن هذه المحاكمة وإن انتهت بإطلاق سراح العقبي قد نجحت في القضاء عليه ، ذلك أنه عندما اجتمعت جمعية العلماء للتداول في النقطة

المطروحة عندئذ على جدول الأعمال ، وهي الإعلان عن تأييد فرنسا في الحرب ، كانت الأغلبية مع الشيخ ابن باديس الذي اختار الصمت ، أما العقبي فلم يرَ رأي إخوانه ، فاختار الخروج من الجمعية حفاظاً لها ، مقدماً نفسه كبش الفداء » .

الحادث الثاني : محاولة اغتيال الشيخ أحمد الحبيباتي ، وهو من العلماء التقاة الزهاد ، الذين كرسوا حياتهم للوعظ والإرشاد ، لم ينخرط في جمعية ، ولا في أي تنظيم ، كان محبوباً ومحترماً من طرف سكان قسنطينة .. فما هو الهدف من محاولة الاغتيال ؟ هل هو الرغبة في التخلص من هذا الشخص الطاهر النظيف العفيف الذي لم يتورط ، والذي ارتفع عن الإغرائات المادية التي عرضتها عليه مديرية الشؤون الأهلية ؟ أم أن محاولة الاغتيال هي مؤامرة ثانية تهدف إلى التخلص من ابن باديس نفسه ، بإلقاء القبض عليه متّهماً بمحاولة الاغتيال ؟ كيفما كان الهدف ، فإن العملية لم تنجح ، ونجا الشيخ أحمد الحبيباتي الذي أطلقت عليه عدة رصاصات ..

وصف عبد الحميد بن باديس هذه المحاولة بأنها « حادث مريع » في مقال له بالشهاب تحت عنوان « حادث مريع » استهله بالآية الكريمة : « واذيمكربك الذين كفروا ليشتبوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » مواصلاً استعراض الحادث : « مساء يوم الاثنين 10 من شهر أوت الجاري على الساعة السابعة والنصف تقريبا بينما كان الأستاذ الشيخ الحبيباتي بنهج الزواف في طريقه إلى منزله الكائن بهذا النهج ، إذ بأربع طلقات نارية من مسدس يقع رصاصها حوله من دون أن يمسه بأذى ، الأمر الذي حير العقول في تحليل هذه المداعبة الوحشية وبيان أسبابها ومسبباتها .

« ونحن بدورنا نقول كلمتنا في هذه الحادثة قبل أن نهنيء الأستاذ بسلامته ، مستندين فيما نقوله على ما نعرفه من سيرته - وسيرة المرء أصدق شاهد له أو عليه - فهو الرجل السليم الذي لم يؤثر عنه أنه مدَّ يدهَ لمحرم ، أو أطلق لسانه بوشاية أو فتنة ، فإِن أين جاءته هذه المصيبة ؟ ومن الذي تولَّى كبرها ؟

« ثم إن الحادث وقع في آخر النهار ، وفي وسط أهل بالسكان ، فكيف استطاع المجرم أن ينجو من أيدي الناس ، وحتى من أعينهم ، فلم تره عينٌ أحد ؟

« إننا نعدُّ بلهاء إذا صدقنا بأن الحادث بسيط إلى هذا الحدِّ ، فنكتفي بسلامة الأستاذ ، وبسلامة الجاني عليه على السواء ، وندَّعي أننا حصلنا على نتيجة حاسمة .

« إن الحوادث التي وقعتْ حول المؤتمر الإسلامي الجزائري قد أثارت المخاوف ، وقوى الشعور في سائر طبقات الأمة الجزائرية بأن هناك سلسلة من المؤامرات السرية دبَّرت لإحباط مساعي المؤتمر ، وقتل آمال الأمة في مهدها ، وما هذه المحاولة الجديدة التي انتهت بسلامة الأستاذ الحبيباني من نتائجها إلا حلقة من تلك السلسلة الرائعة » (مجلة الشهاب . ج 6 . م 12 . أوت - سبتمبر 1936) .

المحاولات في نظر ابن باديس هي مكائد مدبرة .. وقد تخوَّف منها ومن عواقبها على سير الحركة الإصلاحية .. لكنَّها من ناحية أخرى نبَّهت إلى أن ميدان العمل واسع ، لا يقتصر على العلم فقط ، فقد قال بمناسبة تجديد انتخابه رئيسا للجمعية في مؤتمر 1936 : « إخواني . قدِّمتوني للرئاسة ، وهذا اعتراف منكم بأني أبقى على ما كنت عليه ،

فأنا رجل مسلم ، ورجل وطني ، كلُّ حواسِّي وكلُّ عقلي هو لخدمة وطني ، نعم أخدمه وأدرجه حتى لا يكون هناك اندحار ولا انهيار .

إن ميدان العلم في هذه الجمعية لميدان واسع ، وهنالك للعمل ميادين أخرى ، لا أدخلها باسمها ، ولكن (إن كان فيها منفعة) أدخلها باسمي - إن كان عند قومي قيمة لاسمي - وأرجو أن يعينني الله عليها .

ولعله بهذه الإشارة كان يتأهب لخوض المعركة السياسية ، ولكن باسمه ، حتى لا يجزَّ على الجمعية متاعب .. ومواقفه التي جاءت بعد هذا الخطاب ، تدل على أنه فعلا تحمَّل بعض المسؤوليات باسمه الشخصي ، سواء من المؤتمر الاسلامي منذ عام 1937 . أو من الاحتفال الفرنسي بمرور قرن على احتلال قسطنطينة .. وإن كانت فرنسا لا تفرِّق بين المواقف الشخصية ، ومواقف الهيات .

الحديث الثالث : موقف ابن جلول من الجمعية أثناء الحنة .. وقد تأثر ابن باديس ومعه الجمعية بانقلاب ابن جلول ضد الجمعية وتنديده بها ، واعتبار اغتيال كحول عنفا ، لا مبرر للجمعية أن تقوم به .. ولذلك كان رد ابن باديس عليه قاسيا ، فانتقده بمقال تحت عنوان : « ليست الزردة وحدها .. ولكن وراء الأكمة ما وراءها .. » ويقول فيه تحت عنوان فرعي :

« طعنة من الخلف في أخطر الأوقات :

في الوقت الذي أدخل فيه السجن الأستاذ العقبي ، ونجمت قرون الشر من كل جهة تنضض بالسنة الباطل إلى الجمعية ، يصرح الدكتور ابن جلول تلك التصريحات التي نعرف نحن وأمثالنا ممن تعودوا البهت

الإداري أنه لا يُحسن نسجها ، ولا يُتقن وضعها ، ولا يحويها ذهنه ، وإنما هي صنع معامل شيطانية تقدّمها لمن يرضى لنفسه باستعمالها ، فيستعملها ، فيكون عليه عزمها ، ولها هي غنمها .

وختم ابن باديس مقاله الطويل بقوله :

« فهل أدرك الدكتور حقيقة أمره ، وشعر بغضب الأمة عليه ، فأخذ يتراجع عن غيه ، ويتدارك من خطئه ، ليعود إلى بعض مقامه عند قومه ؟ أم هو ما يزال جادا في سيره حتى يصل من منحدره إلى النهاية ؟ » .

ورغم المقالات .. والوساطات .. فإن ابن جلول لم يتراجع عما قاله ، ولم يكذب ما نشرته صحيفة « مرسلية » على لسانه .. وكان يعتقد أنه يصحّح مركزه بهذا الموقف المتصلّب ، إلا أن الظروف أثبتت تقديره الخاطيء ، فتضعف مركزه ، وتدهورت سمعته ، وانهارت زعامته .. ولم يتمكن أبدا من استعادتها ، لأنه من ناحية أخرى بالغ في انغماسه وتواطئه مع الإدارة الاستعمارية ..

بينما نجد أن عبد الحميد بن باديس - رغم الهزات ، وخاصة بعد المؤتمر الاسلامي - احتدّت لهجته ، وصارت تعبّر بصراحة عن مشاعر الجماهير الجزائرية ، محببة عن بعض التساؤلات ، ومنذّة في الوقت نفسه ببعض التيارات التي تقلص من أهمية المشكل الجزائري كالتيار الذي حاول حصر القضية الجزائرية في الحزب واعتبارها مشكلا اجتماعيا لا أكثر ولا أقل .

وقد أجاب هؤلاء الحزبيين بمقال رائع في مجلة الشهاب الصادرة في شهر ديسمبر 1936 بعنوان « ليس الحزب كل ما نريد » ، جاء فيه :

« نحن - المسلمين - ربنا تربية إسلامية على ألفة الجوع ، والتقلل من الأكل ، والاقتصار على قدر الحاجة ، والمواساة في المطعم والمشرب ، طعام الواحد عندنا يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الثلاثة يكفي الستة ، وطعام الأربعة يكفي الثانية ، ونعتقد عن تجربة أن الرجل لا يهلك عن نصف قوته .

« بهذه التربية استطعنا أن نبقى ونعيش في مثل ما عليه حالة معظم الأمة الجزائرية من الفاقة والعوز والجوع والمسغبة ، بينما هي تنظر إلى ما ينعم فيه غيرها من النعمة والرخاء ، مما لو أصاب أمة أخرى لاجتاحها وأفناها ، أو لأثارها ودفعها إلى موارد العذاب والردى .

« وكما ربانا الإسلام على هذه التربية من ناحية الغذاء ، فقد ربانا تربية أخرى من نواح أخرى ، ربانا على محبة العلم والمعرفة والرغبة حظاً فيها ، والتلهف على ما فات منها ، والاحترام لمن كان له حظ فيها .

« وهذه التربية استطعنا - رغم الفاقة ، ورغم الجوع ، ورغم التشبيط والمعاكسة - أن نحافظ على قرآننا ، وخطنا ، وبقايا علوم لغتنا وديانتنا وجملة معارفنا » .

ويواصل محبياً :

« جهل قوم من ذوي السلطة هذا الخلق منا فحسبوا - وهم عالمون بما فيه الأمة من جوع وفاقة - أننا قوم لا نريد إلا الخبز ، وأن الخبز عندنا هو كل شيء ، وأننا إذا ملئنا بطوننا مهّدنا ظهورنا ، وأنهم إذا أعطونا الخبز فقد أعطونا كل ما نطلب .. » .

ويختم مقاله بالرد الصارم ، والروح الوطنية الجزائرية الأبية : « لا .. يا قوم .. إننا أحياء ، وإننا نريد الحياة ، وللحياة خلّقنا ، وإن الحياة

لا تكون بالخبز وحده ، فهناك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكلها ضروريات في الحياة ، ونحن نفهم جيدا ضرورتها للحياة ، وقد بذلنا فيها لكم ما كان - يوما - سببا قويا في حياتكم ، فلا تبخلوا علينا اليوم بما فيه حياتنا إن كنتم منصفين ، وللايام والأمم مقدرين ، وإلا فالله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

وعلى العموم ، فقد هاجم من خلال ابن جلول النواب المائعين الذين يغيرون مواقفهم حسب المناسبات والظروف ..

أما موقفه من المؤتمر الاسلامي ، فقد تخلّى عن حماسه الأول ، وبدأ الفتور يتسرّب إليه .. وما كاد العام ينقضي على انعقاد المؤتمر حتى شعر باليأس يدب إليه ، وتأكد لديه أن فرنسا لا تتجاوز في وعودها حدود التسويف والمماطلة ، وقال في ذلك : « فزيادة على ما في هذا التسويف والمماطلة ، فإنه دليل قطعي على أن مطالب المؤتمر لا عبء بها » ، وعبر عن يأسه من سياسة فرنسا بمقال مثير تحت عنوان : « هل آن أوان اليأس من فرنسا ؟ » ومن ضمن ما جاء فيه : « إن الذين كانوا معنا يوم قابلنا رئيس الوزارة « بلوم » باسم المؤتمر في جوليت من السنة الماضية يعلمون تصريحه بأننا لا نرجع بأيدينا فارغة ، وأنه سيشرع في الحين القريب في تحضير مطالبنا المستعجلة ، ويعلمون قول م فيوليت وهو بجنبه : ستحضر قبل يوم الأحد ، ورجال ذلك الوفد يعلمون أنهم رجعوا بأيديهم فارغة ، ولم يصدق لا الرئيس ولا الوزير ..

« فماذا فهم الناس من هذا كله ؟ »

« أما الذين ينظرون إلينا من الخارج نظرا الحاكم على الأمم بما يبدو من أعمالها وسيرها ، فإنهم يقولون : إن فرنسا تعد وتخلف ، لأنها رأت

مصلحتها في الإخلاف ، ولا يُرجى منها إقلاع ، ما دامت تعتقد
مصلحتها فيه ، والجزائر تنخدع وتطمع ، ويمكن أن يطول انخداعها ،
ويستمر طمعها ، ويمكن أن ينجلي لها سراب الغرور ، فتنتقع عن
الانخداع ، وتقطع حبل الطمع ، وتتصل باليأس ، وما يثمره اليأس
ويقضيه .

وأما نحن الجزائريين ، فإننا نعلم من أنفسنا أننا أدركنا هذا الإخلاف
العرقوي ، وأدركنا مغزاه ، وأخذ اليأس بتلايب كثير منا ، وهو يكاد
يعم ، ولا نتردد في أنه قد آن أوانه ، ودقت ساعته ..

« ماذا تريد فرنسا من مماطلتنا ؟ »

« كذب رأي السياسة ، وساء فآلها ، كلاً والله لا تُسلِمنا الماطلة إلى
الضرر الذي يُقعِدنا عن العمل ، وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى
المغامرة والتضحية .

« أيها الشعب الجزائري !. أيها الشعب المسلم !. أيها الشعب العربي
الأي !. حذار من الذين يَمَنونك ويخدعونك ، حذار من الذين
ينوَمونك ويخدرونك ، حذار من الذين يأتونك بوحى من غير نفسك
وضميرك ، ومن غير تاريخك وقوميتك ، ومن غير دينك وملتك ،
وأبطال دينك وملتك ..

« استوح الإسلام ، ثم استوح تاريخك ، ثم استوح قلبك ، اعتمد على
الله ثم على نفسك ، وسلام الله عليك » .

وبدءاً من هذا المقال يستشف الجزائري الانقلاب الذي حدث في
حياة ابن باديس السياسية ، والذي أكدته المقالات التي كتبها فيما بعد ..
وقد ضاقت الإدارة الاستعمارية بهذه اللّهجة الجديدة الصريحة المعبرة عن

مشاعر الأمة ، وإستيائها من سياسات التسوية والمماثلة .. فشرعت الإدارة في مضايقة الجمعية ، ومراقبة شعبها ، وخلق المتاعب لرجالها .. وما كاد الاجتماع العام للجمعية ينعقد عام 1938 حتى كان عدد كبير من رجالها في السجون والمنافي .. وقد وصف ابن باديس ذلك في خطاب افتتاحه للاجتماع المذكور بقوله :

« أما بعد : فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين ، و سلام على مساجينكم في المساجين ، و سلام على متهمكم في التهمين ، و سلام على منكوبيكم في المنكوبين !. سجون ، و اتهامات ، و نكبات .. ثلاث لا تُبنى الحياة إلا عليها ، ولا تُشادُ الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقّة إلا على أسسها » .

ثم استعرض المضايقات والمحاکمات التي تعرض لها الطيب العقبي ، والبشير الابراهيمي ، وعمر دردور ، وعبد الحفيظ الجنان ، وعبد العزيز الهاشمي ، وعلي بن سعد ، وعبد القادر الياجوري ، وعبد الكامل .. ورجال التعليم في بجاية وباتنة .

ويواصل :

« أيها الإخوان ، قد اعتدنا في كل اجتماع عام من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة ، وإلى الحكومة العليا ، ولم يردّ لنا جوابٌ مرّةً واحدةً ، بل يكون الجواب بزيادة الإرهاب ، وتضييق الخناق » .

ويختم خطابه :

« أيها الإخوان : فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبيننا ، واستمرارنا في موقفنا كما كنّا ، لا نريدُ اليوم أن نرفع شكوانا ، ولا أن

نقدّم احتجاجنا ، وحسبنا في هذه السنة السكوت ، وكفى بالسكوت
احتجاجا عند من عرف وأنصف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ومن الطبيعي أن لا تتغاضى الإدارة الفرنسية الاستعمارية على هذه
اللهجة الحادة .. فضاعفت من قمعها وزجرها للجمعية ، ولم تتردد في
نفي البشير الابراهيمي الذي كان نائب رئيس الجمعية إلى أفلو بالقرب
من تيارت ، ومعاملته معاملة سيئة ، وفي فرض الإقامة الجبرية على عبد
الحמיד بن باديس رئيس الجمعية .. بعد أن أوقفت عددا من رجال
الجمعية ..

وبهذه الوضعية واجهت الجمعية إعلان الحرب العالمية الثانية .



من
نجم شمال إفريقيا
إلى
حزب الشعب الجزائري

حزب الشعب الجزائري

- بين المؤتمر الإسلامي والحرب العالمية الثانية -

باشر نجم شمال إفريقيا نشاطه الحزبي بوضعه قانونه الأساسي عام 1926 الذي أقره المجلس العام ، ويتكون من 18 مادة ، وضم النجم في البداية كلاً من عمّال تونس ، والجزائر ، والمغرب ، لكن نشاط الجزائريين كان طاعياً ، وتضحيتهم من أجل النجم والمبدأ لا تنكر ، وحماسهم الوطنية كانت فياضة .. استمروا في النشاط بينما تخلى التونسيون والمغاربة عن حماسهم الأولى . ولعل هذا يعود إلى وضعية كل من تونس والمغرب ، وإلى كونها محيتين ، لا مستعمرتين كما هو حال الجزائر .. وذلك ما دفع الجزائريين إلى الاعتماد على أنفسهم ، وإلى الظهور بمظهر قوي ثابت في كل الظروف .. وبدأت شخصيتهم الوطنية تتبلور وتأخذ أبعادها في مؤتمر بروكسل عام 1927 الذي ألقى فيه مصالي الحاج خطاباً هاماً ، لعل من الأفيد إirاده بتمامه كما نقله الأستاذ محمد قنانش :

« تركزت الامبريالية الفرنسية على أرض الجزائر بقوة السلاح والتهديد ، والوعود الخلابية ، واستولت على الثروات الطبيعية وعلى الأرض ، وذلك بواسطة اغتصاب عشرات الآلاف من العائلات من الذين كانوا يعيشون من إنتاج أعمالهم ، أراضيهم المغتصبة ، قدسّمت إلى

المعمرين الأوروبيين وإلى الأهالي عملاء الامبريالية ، وإلى الجمعيات
الرأسمالية والذين اغتصبت أراضيهم قد أُجبروا على بيع قوة سواعدهم
للملاكين الجدد إن أرادوا أن يعيشوا ، والسكان الذين كانوا يعيشون في
نعمة لم يبقَ لهم شيء ، وقد جعلتُ منهم الأمبريالية جياعا وعبيدا ،
والاغتصاب قد نُفذ كما هي العادة تحت شعار « المدنية » ، وباسم هذه
المدنية المزعومة فقد دِست بالأرجل جميع التقاليد والعادات ، وجميع
التطلعات للسكان الأهليين ، وعوض أن تقدّم العون لهذا البلد ليتكّن
من التطور ، فالامبريالية الفرنسية زادت على الاغتصاب وعلى
الاستغلال التسلط السياسي الأكثر رجعية ، وذلك بجرمان الأهالي من
كل حرية لظروفهم ولتنظيمهم ، ولجميع حقوقهم السياسية والتشريعية أو
هي لا تسمح بالحقوق إلا لقلة من الأهالي الخواص .

وزيادة على هذا : إفساد العقول المنظم بنشر الخمر وإدخال دين
جديد ، وقفل المدارس العربية التي كانت موجودة قبل الاحتلال ،
ولتتويج أعمالها أجبرت الأهالي على التجنيد في جيشها لمتابعة
الاستعمار ، وللعمل في حروب أمبريالية ، ولقمع المنظمات الثورية في
المستعمرات وفي فرنسا .

« مائة سنة من الاستعمار .. والجماهير الجزائرية المستغلة والمضغوط
عليها في كفاح مستمر ضد الامبريالية الفرنسية ، لتحريرها من ربقة ،
وللتوصل إلى الاستقلال .
« مطالب الجزائريين :

إن نجم الشمال الإفريقي الممثل لمصالح الجماهير العمالية لسكان الشمال
الإفريقي يطالب للجزائريين بتحقيق المطالب الآتية ، ويطلب من
المؤتمر أن يتبنّاها :

- استقلال الجزائر .
- جلاء قوات الاحتلال الفرنسية .
- تأسيس جيش وطني .
- حجز الأملاك الفلاحية الكبيرة التي استولى عليها الإقطاعيون
- عملاء الأمبريالية والمعمرّون والجمعيات الرأسمالية الخاصة ، وإرجاع الأراضي المحجوزة إلى الفلاحين الذين سُلِبَتْ منهم .
- احترام الأملاك الصغيرة والمتوسطة .
- إرجاع الأراضي والغابات التي استولت عليها الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الجزائرية .
- هذه المطالب الأساسية التي غارب من أجلها لا تتّفي أعمالاً جريئة فورية لانتزاع المطالب الآتية من الامبريالية الفرنسية .
- الإلغاء الفوري لقانون الأنديجينا والقوانين الاستثنائية .
- العفو لمن هم في السجون ، أو تحت الإقامة الجبرية أو المبعدون .
- حرية الصحافة ، والجمعيات ، والاجتماعات .
- التمتع بالحقوق السياسية والنقابية المُعادلة لما يتمتع بها الفرنسي في الجزائر .
- تحويل المجلس الحالي المنتخب بأقلية ، إلى برلمان جزائري منتخب بالاقتراع العام .
- انتخاب المجالس البلدية والعمالية بالاقتراع العام أيضا .
- التمتع بحق التعليم في جميع المراحل .
- إنشاء مدارس للعربية .
- تطبيق القوانين الاجتماعية .
- إعانة صِغار الفلاحين بقروض واسعة .

هذه المطالب لا يمكن أن تتحقق إلا إذا توصل الجزائريون إلى الوعي بحقوقهم ، وبقوّتهم لفرضها على الحكومة الفرنسية ، وذلك باتّحادهم والتفانيهم حول منظّمتهم » .

انحصر نشاط النجم في فرنسا .. أما في الجزائر فقد كان نشاطه ضئيلا جدا ، لأسباب عديدة .. إلى أن سنحتُ فرصة انعقاد المؤتمر الإسلامي عام 1936 ، وألقى مصالي خطابه التاريخي في 2 أوت 1936 بالملاعب البلدي ، وكانت أصداء الخطاب مشجّعة لمصالي على القيام بجولات في المدن والقرى الجزائرية ، وأحدثت هذه الجولات حركة جديدة ، دفعت رجال النجم إلى عقد تجمع نظمته شعبة النجم بالعاصمة ، ضم حوالي ثلاثة آلاف مناضل بسينا « المونديال » ، وخلالَه شهِر الحاضرون بالوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يسلكها الاستعمار منذ قرن ، والتي قسمت السكان الجزائريين إلى قسمين : قسم دخيل يتمتع بجميع الحقوق .. وقسم وطني محروم من جميع الحقوق ، يعيش تحت قانون « الأنديجينا » .

وطالب الحاضرون باحترام معاهدة 5 جويليت 1830 التي تعهّد فيها دو بورمون (De Bourmont) باسم شرف فرنسا بأنه يحترم الإسلام ، والتجارة ، والأخلاق ، وتقاليد الشعب الجزائري .. كما طالبوا بفصل الدين عن الدولة ، وبتسليم الأوقاف إلى المسلمين .. كما احتجّوا على تامل وتسويق الإدارة الفرنسية في تنفيذ الإصلاحات الطفيفة ..

كل هذه العوامل : المؤتمر الاسلامي . الاتصال المباشر بالجماهير . اللقاءات المتعدّدة .. شجّعت رجال النجم على إعادة تكوين منظمتهم من جديد على أساس أن تكون الأرضية الحقيقية والأساسية التراب

الجزائري ، فأسسوا « حزب الشعب الجزائري » بدل النجم الذي حُلَّ مرارا من طرف السلطات الفرنسية .. ووضع له قانون صادق عليه المناضلون في اجتماع عام ، وجعل شعاره : « لا اندماج . لا انفصال . لكن تحرر » .

أمّا برنامجه فقد نشرته جريدة « الأمة » لسان حال حزب الشعب الجزائري ، في عددها الصادر في شهر جانفي 1938 ، وهو كما يلي :

« برنامجنا :

الميدان السياسي :

- (1) إلغاء قانون الأندمجينا ، ونظام الغابات ، وكل القوانين الاستثنائية .
- (2) منح الحريات الديمقراطية : حرية الصحافة . الجمعيات . التفكير . النقابة . الاجتماعات . مساواة الفرنسيين والجزائريين أمام الخدمة العسكرية . احترام الديانة الإسلامية مع إعادة الأوقاف التابعة لها ، وكذلك إدارتها .
- (3) إلغاء الإعانات المقررة للديانة الكاثوليكية والبروتستانية من طرف الحكومة .
- (4) حرية السفر إلى فرنسا وإلى الخارج .
- (5) تحويل النيابات المالية إلى مجلس جزائري منتخب انتخابا عاما بدون تمييز في العرق أو في الدين .
- (6) فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

الميدان الاجتماعي :

- (1) تدعيم الثقافة باللغتين العربية والفرنسية .
- (2) تعليم اللغة العربية إجباريا لكل المواطنين في كل المستويات .

(3) التطبيق بالجزائر لكل القوانين الاجتماعية والعمالية المعمول بها في فرنسا .

(4) العناية الصحية والحضور الاجتماعي .

(5) حماية الطفولة .

الميدان الاقتصادي :

(1) تخفيف الضرائب .

(2) الضريبة التصاعدية حسب الدخل .

(3) تأميم القرض ، والصناعات الأساسية ، والاحتكارات القائمة .

(4) محاربة البطالة بالاهتمام بمشاكل الري .

(5) إلغاء « التعمير » ، وتثبيت المواطنين في الأرض ومساعدتهم على استغلالها .

(6) إلغاء الربا في القرض للفلاحين والتجار .

(7) إنشاء نظام جمركي حام للصناعات ولإنتاج المحلي ضد الإنتاج المشابه .

الميدان الإداري :

(1) قبول كل الجزائريين بدون تمييز في كل الوظائف مع تطبيق مبدأ : عمل متساو . وأجر متساو .

(2) إلغاء كل المكافآت ذات الصبغة العنصرية أو السياسية .

(3) إلغاء المناطق العسكرية ، والبلديات المختلطة » .

ويختلف حزب الشعب الجزائري عن نجم شمال إفريقيا في عدة نواح :

أولا : النجم - في الأساس - عبارة عن جمعية ، هدفها الأصلي الدفاع عن حقوق العمال المغاربة من جزائريين وتونسيين ومغاربة ..

أما حزب الشعب ، فهو حزب بالمعنى العصري للكلمة الذي يؤدي مفهوم التنظيم من ناحية ، ومفهوم النضال من ناحية أخرى ، فضلا عن التعبئة والتوجيه والمباديء ..

ثانيا : إذا كان النجم في أساسه تجمعا يضم العناصر الوطنية التونسية والجزائرية والمغربية ، فإن الحزب يضم العناصر الجزائرية وحدها .

ثالثا : تضمن « الشعب الجزائري » في عنوان التنظيم له معنى كبير في تلك الظروف .. لأنها الظروف التي تكاثرت فيها الجهات التي تنكر وجود شعب جزائري .. منها من ينكر تماما وجود شعب فوق الأرض الجزائرية .. والأخرى تدعي « بأن الجزائريين شعب في طريق التكوين » .. والثالثة ترى أنه من الأصح للفئات الموجودة فوق التراب الجزائري أن تندمج في الشعب الفرنسي إذا أرادت حقا أن تحيا ..

رابعا : من تأمل الشعارات الجديدة التي تبناها حزب الشعب الجزائري نلاحظ أنه اضاف « لا انفصال » إلى جانب تحرر ، فكيف يمكن التوفيق بينهما ؟. تولّت صحيفة « الأمة » توضيح هذه النقطة بقولها : « الجزائر قوية بستة ملايين سكانها ، يتحدثون لغة واحدة ، ولهم دين واحد ، وماضى واحد ، يبقى الشعب مرتبطا ، ولا يستطيع أن يندمج أو أن ينمحي ، لكنه يستطيع التحالف ، الحزب ليس انفصاليا ، ما دام حرّا داخليا ، طبيعة الأشياء ، المصالح ترمغ الشعوب على أن تتحد وأن تتحالف كي تضمن لنفسها الأمن المتبادل ، وتسمح بتبادل إنتاجها واقتصادها » .

الحزب راعى نوعا من الاعتدال في الشعارات ، وفي اللهجة ، بهدف التمكن من وضع أقدامه في الجزائر ، والتحرك في إطار قانوني مسموح

به .. لكن الإدارة الفرنسية لا يمكن أن تسمح لمنظمة تنادي بالاستقلال في برنامجها . أن تمارس نشاطها .. وأيضاً بغرض كسب أنصار جدد ، وإن كانت الأحداث التي توالفت فيما بعد ، دلت على أن الحزب وإن تظاهر بالاعتدال ، لم يتخل عن مبدئه الاستقلالي ، ولا عن الاتجاه التحريري .

خامساً : أول هدف وضعه حزب الشعب الجزائري في مقدمة اهتماماته ، هو التصدي لسياسة الاندماج والتجنيس ، ومحاربة الداعين لها ، حتى أن صحيفة « الأمة » كتبت بمناسبة انعقاد المؤتمر الاسلامي الثاني عام 1937 ما يلي : « إنه من المستحيل تغيير الجنسية كما تُغيّر ربطة عنق ، جنسيتنا قبل كل شيء هي ماضينا .. تاريخنا .. أخلاقنا .. ذكريات شبابنا .. عادات تفكيرنا .. كل ما يدخل في تكوين « أنا » الجماعية ، ولا يمكن تفريغ الشخصية من محتواها بمجرد فعل إرادي » .

لم يكن نشاط حزب الشعب الجزائري فوق التراب الجزائري بالنشاط السهل ، فقد خاض المعارك العديدة ، وواجه خصومه في عدة جبهات .. وخاض لأول مرة ميدان الانتخابات ، حيث رشّح أحد مناضليه في بلدية قالمة ، والغرض من اشتراكه في الانتخابات هو جسّ النبض من ناحية ، والقيام بحملة دعائية لفائدة الحزب والفكرة الوطنية .

ومن أجل النشاط المكثف الذي مارسه الحزب ، تصدّرت الإدارة الاستعمارية للحزب بالمضايقات والقمع والملاحقات .. وفي 27 أوت 1937 اعتقلت - بتهمة المسّ بأمن الدولة ، وإعادة منظمة منحلّة - كلا من : مصالي الحاج ، مفدي زكرياء ، خليفة بن عمار ، غرافة إبراهيم ،

مسطول محمد ، حسين الأحول ، رابح موساوي ، محمد بالأمين .. وبذلك بقي الحزب في الجزائر بدون قيادة ، واقتضى الموقف تعيين مسؤول جديد هو رزقي كحال ، فعاد هذا من فرنسا ، وتولّى تسيير شؤون الحزب إلى أن اعتقل أيضا رفقة مجموعة من مناضلي الحزب مثل : فيلاي مبارك ، الاخضر حيواني ، محمد قناش ، فيلاي علي ، جلول أحمد ، بوجريدة عمار ، محمد بو البرهان ، علاوة بومعزة ، عبد الرحيم الطاهر ، عبد القادر حرثة . أحمد مزغنه ، مصطفى دشوك ، محمد العساكر ، عبد الكريم بن عصمان ، عمار بن دحمان ، سي الجيلالي محمد السعيد .

ولئن دلت الإيقافات الكثيرة لمناضلي الحزب على تخوف الإدارة الفرنسية من نشاط الحزب ، وانتشار أفكاره الوطنية ، فإنها تقدم من ناحية أخرى دليلا على ما كان يتحلى به مناضلو الحزب من شجاعة وتصميم ، أدى بهم إلى الحصول على حقوقهم داخل السجن « كمساجين سياسيين » ، لا كمجرمين عاديين ، بعد إضراب جوع دام ثمانية أيام ، وهو أول إضراب جوع سياسي عرفته البلاد .

ومن تحديات الحزب للإدارة الاستعمارية الفرنسية أنه رشّح لانتخابات المجالس العمالية مساجينه .. فقد رشّح مصالي الحاج بالعاصمة ، ومحمد مسطول بالبليدة ، والأحول حسين بالمدية ، وموساوي رابح بتيزي وزو ، ومفدي زكرياء بقسنطينة ، وخليفة بن عمار بسكيكدة ، ومعروف بومدين بوهران ، ومصطفى بن رزوق بسيدي بلعباس .

ومن تحدياته أيضا أن مساجين الحزب بسجن الحراش أصدروا داخل السجن الصحيفة المعروفة « البرلمان الجزائري » ، كانت تحرّر وتُدار ، وتُسيّر من داخل السجن ، وتُطبع وتوزّع خارجه .

لقد تحول حزب الشعب الجزائري إلى مدرسة شعبية لغرس الأفكار الوطنية الاستقلالية الثورية ، وترسيخ روح التضحية في المناضلين .. وبهذه الروح كان هؤلاء المناضلون يستقبلون التعسف الإداري الفرنسي بشجاعة فائقة ، واستشهد عدد كبير منهم .. أمثال رزقي كحال الذي توفي داخل السجن ، وشُيِّعَ جنازته إلى مقبرة سيدي محمد في موكب عظيم ضم حوالي 15000 مشيع ، عبّر عن طريقه الشعب على إعجابه وتقديره لأبنائه الذين يدافعون عن الوطن ويموتون في سبيله .. واستشهد أيضا محمد دوار .. محمد بلوزداد فيما بعد ، وعسلية حسين ، وغرافة إبراهيم .

والذي أكسب الحزب قوة في نظر الجماهير التي كانت تتعاطف معه ، هو ثباته وإصراره بحيث أنه كلما أُلقي القبض على مناضليه ، إلا وحلَّ محلَّهم مناضلون آخرون ، يواصلون المسيرة ، دون خلل ولا خوف .. وعندما يطلق سراح مناضل ، يعود حيناً إلى الميدان ، دون أن تترك فيه فترة الاعتقال أثراً للفشل أو الاستسلام ، وقد يُلقَى عليه القبض من جديد ، فيواجه أيضا بنفس الثبات مؤمناً بأن النصر في النهاية للثبات على المبدأ .. وهكذا تعود مناضلو حزب الشعب النضال اليومي وحولوه إلى ممارسة يومية في البيت والشارع والحي والقرية والسجن وفي كل مكان .. الشيء الذي أزعج الإدارة الفرنسية فضاعفت من ملاحقاتها وإيقافاتها لأعضاء حزب الشعب ، وأوقفت في ظرف ثلاث سنوات ما يزيد على الخمسين من المسؤولين والمناضلين ..

ومن المحاكمات الشهيرة تلك التي اشتهرت « بمحاكمة مصالي » وهي في الحقيقة ليست بمحاكمة خاصة بمصالي وحده ، بل خُصِّصت لعدد من مسؤولي الحزب ومناضليه الموقوفين .. وامتازت بتصريح زعيم الحزب

مصالي الذي اعتبره المعلقون تصرّحاً معتدلاً بالنسبة للمعهود لدى الحزب ، فقد قال زعيم الحزب : « ماذا يتنّى حزب الشعب الجزائري ؟ المساواة المطلقة .. احترام تقاليدنا .. ولغتنا وديننا .. نحن لا نريد انفصالا ، لكن تحرراً مع فرنسا ، في إطار السيادة الفرنسية ، إذا وافق الفرنسيون على ذلك نَموت من أجلهم ، إنهم أغفلوا - حتى الآن - أن يجعلوا أنفسهم محبوبين في هذا البلد ، لكن أتمنى بأن هناك أشياء في التغير ، بأن هناك علاقات جديدة تنتظم .. إنه تعاون حقيقي ذلك الذي نريده » .

أما الأحكام التي انتهت بها المحاكمة الشهيرة ، فقد كانت قاسية جداً ، وقد انتهت كما يلي :

مصالي الحاج - تلمسان - أشغال شاقة 16 عاما
قاسمي صالح - القرقور - أشغال شاقة 16 عاما
قاسمي صالح - باتنة - أشغال شاقة 16 عاما
الاعماري محمد - القرقور - أشغال شاقة 16 عاما
حيواني الاخضر - شتّمه - أشغال شاقة 16 عاما
مَمْشاوي محمد - تلمسان - أشغال شاقة 16 عاما
معروف بومدين - تلمسان - أشغال شاقة 16 عاما
فرحات محمد - أربعاء بني إيراثن - أشغال شاقة 16 عاما
بورماش مقران - القرقور - 9 سنوات سجن
بومعزة علاوه - ميله - 9 سنوات سجن
بن نانون علي - الاخضرية - 9 سنوات سجن
حرقه عبد القادر - قالمة - 9 سنوات سجن
خيضر محمد - العاصمة - 8 سنوات سجن

بوجريدة عمار - قلالة - 8 سنوات سجنا
فيلالي مبارك - القل - 5 سنوات سجنا
غالي أحمد - سعيدة - (هارب) 5 سنوات سجنا
بلعيد محمد - ميزرانا - 5 سنوات سجنا
أوشيش محمد - ذراع الميزان - 5 سنوات سجنا
فيلالي علي - القل - 5 سنوات سجنا
جلول أحمد - قلالة - 5 سنوات سجنا
تركي عبد القادر - وهران - 5 سنوات سجنا
صيغي عيسى - المليية - 5 سنوات سجنا
عمروش أحمد - مايو - 5 سنوات سجنا
لازلي أحمد - بوفاريك - 5 سنوات سجنا
بغريش الهاشمي - قسنطينة - 4 سنوات سجنا
مناد - بوفاريك - 4 سنوات سجنا
فليتج أحمد - المدية - 4 سنوات سجنا
بن عمار - بسكرة - 4 سنوات سجنا

(محفوظ قداش : تاريخ الوطنية الجزائرية . ج 2 . ص 611)

وحكم على كل واحد من هؤلاء - إضافة إلى الأحكام المذكورة -
بالحرمان من الإقامة ببلده مدة 20 سنة ، وبجرمانه من الحقوق المدنية ،
وفرض على الجميع دفع غرامة تقدر بـ 160,000 فرنكا .

الملاحظة المستخلصة من تتبع نشاط حزب الشعب الجزائري منذ
إنشائه عام 1937 حتى الحرب العالمية الثانية ، أنه اكتسح الساحة
السياسية ، بفضل مواقفه التي تمثلت في أنه :

أولا : وقف في وجه المؤتمر الإسلامي ، وقضى على الاتجاه الاندماجي ..

ثانيا : وضع فكرة التحرير للجواهر .. واعتبر الاستقلال أصلا ، وما عداه محاولات ومطالب متواضعة دون المستوى .

ثالثا : خلقَ مناخا جديدا في الحياة السياسية ، لم يكن مألوفاً من قبل .

رابعا : رسّخ مبدأ التضحية في نفوس مناضليه على أساس أن « الحرية تؤخذ ولا تُعطى » .

خامسا : استعمل أساليب جديدة في التعبير عن أفكاره : الصحافة . المناشير السرية . الحملات الانتخابية . الخطب والاتصالات في المناسبات العامة والخاصة . الكتابة على الجدران .



الجزائريون
والحرب العالمية الثانية

الجزائريون والحرب العالمية الثانية

منذ أن عرف الجزائريون النضال السياسي ، وشرعوا في استخدامه اعتقاداً منهم بأنه يقوم - بدل السلاح - بمهمة الحصول على الحقوق المهضومة .. اعتمدوا عليه ، وعلقوا عليه الآمال ، ومارسوه في الجزائر وفي فرنسا لدى الجهات المسؤولة ، ولم يتجاوز نشاطهم السياسي هذين البلدين إلا نادراً .

أذن كان النشاط السياسي داخلياً ، يتمثل في الوفود والشخصيات الجزائرية التي تتردد من حين لآخر على الولاية العامة ، أو على الجهات الرسمية بفرنسا ، تحمّل عرائض ومطالب صورية ، وتُعرّب في أغلب اتصالاتها عن شواهد الولاء والإخلاص والثقة في الإدارة ، وفي الحكومة الفرنسية ، عساها تستجيب للمطالب المتواضعة .. إلا أن كل الجهود التي قام بها الجزائريون سواء على مستوى الوفود أو الشخصيات ، كانت لا تلاقي الصدى الذي كانوا ينتظرونه منها ، لأن فرنسا لم تتجاوز حدود التناور والمُطاطلة .. تُشكّل اللجان إثر اللجان ، وتبعث بالواحدة تلو الأخرى ، ولكل واحدة مهمة وعنوان دون أن تسفر هذه اللجان ، ولا تحقيقاتها واتصالاتها عن شيء إيجابي ملموس ، وحتى إذا صدرت وعود .. فإن الوعود لا يتم الوفاء بها .. وهو أمر ليس بالغريب ، ففرنسا 1830 هي فرنسا الثلاثينيات في القرن العشرين !. فرنسا وعدت الأمير عبد القادر .. فإذا بها تسجنه لمدة خمس سنوات !. ووعدت أحمد باي .. لكنها احتجزته لمدة عامين بالعاصمة إلى أن توفي في ظروف غامضة ..

من هنا كانت مساعي الجزائريين فاشلة ، والشيء الذي شجع فرنسا على التادي في سياسة اللامبالاة تجاه الجزائريين هو مركزها الدولي القوي ، والظروف الدولية كلها كانت في صالحها ، بينما لم يجد الجزائريون أي ملجأ أو سند يعتدون عليه في تحركاتهم السياسية .. إلى أن ظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية سنة 1939 ، والجزائريون يعرفون معنى الحرب ، وأبعادها ، وتنتائجها .. فقد كانوا يدفعون الثمن ولا يستفيدون !. ويعلمون بأن الحرب حين تقوم فإنما تقوم بين الأقوياء ، فتتحطم رؤوس ، وتهوى دول ، والشعوب الضعيفة هي التي تدفع الثمن ..

الحرب في هذه المرة بين ألمانيا وفرنسا .. فهل يكونون بجانب هذه أو في جانب تلك ؟ هذه فرنسا وقد ذاقوا مَرَّها .. وتلك ألمانيا ويعرفون طموحها وأطماعها ، ولكنها عدوة فرنسا ، و « عدو العدو صديق » ، ومن هذا التفكير انطلق كثير من الجزائريين يتفاءلون بالحرب ، اعتقاداً منهم بأن التنافس بين الأقوياء ، يتيح الفرصة للضعفاء لأن يتنافسوا ، وأن يجدوا منفذا لتحقيق بعض الرغبات الوطنية على الأقل .. وقد شعرت فرنسا بهذه الروح التي بدأت تسود في الأوساط الجزائرية ، وبدل أن تسير في اتجاه عملي يتجاوب مع الآمال الوطنية للجماهير الجزائرية ، لجأت إلى الطريقة القديمة التي تعتمد على تحريك البيادق من أئمة ، ورجال إفتاء رسميين ، ممن كانت تشرف عليهم مديرية الشؤون الأهلية كي يحثوا السكان على التجند والتطوع في سبيل الله (في سبيل فرنسا) ، وعلى الجهاد بجانب الدولة الفرنسية حامية الاسلام ، وعلى الدعاء لها في المساجد بالنصر على الألمانين !. وكانت الإدارة الفرنسية تعتقد أنها بهذه الطريقة تكتسب عطف الجزائريين ، والتفافهم حول دعوتها إلى التطوع في الجيش الفرنسي .

أما الشعور الشعبي السائد ، فكان يبدو في تصرفات التنظيمات الوطنية بالبلاد ، وكانت تصرفات تتسم بالحذر والحيلة بحكم التجربة التي عاشتها مع فرنسا ، وبحكم الوعود الكثيرة التي لم يتحقق أي وعد منها في الماضي .. ولم يندفع في تأييد فرنسا والوقوف في جانبها ضد الألمان إلا بعض العناصر التي كانت تثق في فرنسا ثقة تامة .

ويمكن تحديد مواقف الجزائريين من فرنسا في الحرب العالمية الثانية كما يلي :

أولا : موقف المنتخبين : فقد أعلن المنتخبون أو زعمائهم الوقوف بجانب فرنسا في كل الظروف ، وتطوعوا في الجيش الفرنسي ، ادّعاءً بأن الوقوف بجانب فرنسا في محنتها يسمح لها بمراجعة سياستها نحو الجزائريين ، والنظر إلى مطالبهم بعين العطف والاعتزان .. وبهذه الروح ، وهذا الأمل وجه فرحات عباس مذكرة إلى المارشال بيتان بعد سقوط فرنسا في أيدي الألمان ، يعرض عليه بعض المطالب ، ويرجوه الوفاء بالوعود الفرنسية السابقة ..

ثانيا : موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : لقد اتصلت الإدارة الفرنسية بجمعية العلماء أولا كهيئة ، ولما لم تحصل على ما كانت ترغب فيه استعملت طريقة الاتصالات الفردية بأعضاء الجمعية ، وتمكنت من التأثير على بعض الأشخاص في الجمعية واستألتهم إليها ، وكانت تعتقد أن باستطاعتهم إقناع رئيس الجمعية وبقية الأعضاء ، إلا أن هؤلاء رفضوا كل العروض والمساومات ، وامتنعوا عن توجيه برقيات الولاء والتأييد لفرنسا في حربها ضد الألمان ، كما رفضوا توجيه نداء إلى الشعب

الجزائري يدعوه إلى الوقوف بجانب فرنسا، و « الجهاد » في سبيلها .. واتخذت الجمعية من جراء هذا الموقف بعض الاحتياطات ، فقلّلت من نشاطها ، وأوقفت صحافتها بحض إرادتها ، حتى لا تتعرض للرقابة المفروضة أو للتوجيه الإجباري الذي تقتضيه ظروف الحرب ، . ورغم ذلك لم تنجُ الجمعية من التعرض لهزة أثّرت فيها ، إذ انتقل رئيسها عبد الحميد بن باديس إلى الرفيق الأعلى عام 1940 ، وقبل وفاته أوقف نائبه البشير الإبراهيمي وأبعد إلى آفلو ، وتعرض باقي الأعضاء ومنهم الشيخ العربي التبسي إلى ضغوط ، وإلى فرض الإقامة الجبرية على بعضهم .

ثالثا : موقف حزب الشعب الجزائري : وهو موقف واضح منذ تأسيس هذا الحزب ، . يتمثل في رفض التجند في الجيش الفرنسي ، والتعاون بأية صفة مع الإدارة الفرنسية ، وحين اندلعت الحرب كانت أغلبية قياداته في السجون .. وفي السجون حاولت فرنسا مساومة زعماء الحزب وإغراءهم بدون جدوى ، وكانت نتيجة صلابة قادة الحزب إلقاء القبض على العناصر الباقية من الحزب خارج السجن ..

رابعا : موقف الحزب الشيوعي : وقف الحزب الشيوعي في الجانب الفرنسي بمجرد إعلان الحرب .. ولكن بعد احتلال الألمان لفرنسا ، حلّت الحكومة الفرنسية آنذاك الحزب الشيوعي ، وزجّت بأعضائه في المعتقلات ، من أجل ارتباطهم بالحزب الشيوعي الفرنسي الذي أعلن حملته ومقاومته للنازية الألمانية .

إذن لم يبق في مجال التحرك العلني إلا المنتخبون ، وفي هذا الإطار تحرّك فرحات عباس ، وتقدّم بمذكرة للماريشال بيتان ، ثم بوثيقة سمّاها « البيان » أضاف إليها فيما بعد « ملحقا » بعد أن تم الاتفاق بينه وبين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري ،

واعتبرت الوثيقة برنامج عمل ، تجسّمت في حركة تجمع ، كما سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

وهناك التحرك السري الذي كان يقوم به حزب الشعب الجزائري .. كان لا يني ولا يقصّر في اغتنام المناسبات للدعوة إلى الفكرة الاستقلالية ، وبث الروح الوطنية ، رغم أنه حزب منحل قانونيا ، ورغم أن أغلبية قاداته في السجن أو في الاعتقال ، ويدخل ضمن هذا النشاط السري نشاط قام به شبان من الحزب متحمسون ، رأوا في الحزب وفي انهزام الجيش الفرنسي بادرة تفاؤل ، تُخوّلهم حق المبادرة بالتمرد على فرنسا ، وإعلان الثورة والاستقلال ، وكانوا قبل ذلك ينتظرون من قيادة الحزب السماح لهم بعمل عسكري .. غير أن القيادة لم تتجاوب مع هؤلاء الشبان المتحمسين ، لأن الوقت في رأيها غير مناسب ، ولأن الاستعداد غير كاف ، كما أن الظروف لا تُؤمّن ، ولا يؤمّن جانب الألمان بحكم نزعته الاستعمارية الأوروبية المعروفة عنه .. لم يتقبل الشبان هذه التبريرات ، وقام بعضهم بنشاط خارج إطار الحزب ، وأجرى اتصالات مع الجهات الأجنبية خاصة الألمانية للحصول على السلاح ، وللتدرب على استعماله ، واعتبرهم الحزب متمردين ، ففصلهم ، ولم يعُدّهم إلى الحزب إلا بعد مدة ، ثبت فيها إخلاصهم ، وحسن نواياهم ، كما أن هؤلاء الشبان تأكّدوا بأنه لا خير في الاستعماريين سواء كانوا فرنسيين أو ألمانين أو إيطاليين .. وكان من بين الشبان الوطنيين المتحمسين الذين وثّقوا الصلة بالجيش الألماني الشاب - بوراس قائد الكشافة الإسلامية الجزائرية ، الذي اكتشفت السلطات الفرنسية اتصالاته بالألمان فاعُدمته حيناً ، ومن بين الشبان المتحمسين للعمل الثوري آنذاك صالح بوزراع بقسنطينة ، وقد تمكّن من تأسيس حزب

ثوري قام بتهريب الأسلحة من ثكنة « القصبة » بقسنطينة ، ومن توزيع منشائر ثورية ، وكاد يقع في أيدي الشرطة الفرنسية ، لولا أنه فرّ ، واختفى لعدة سنوات ، أمتهن بعدها التعليم لحين اندلاع الثورة ، فالتحق بها ، وأدّى واجبه إلى أن استشهد .. وهناك شبان آخرون ، ومحاولات كثيرة من هذا النوع جرت في مختلف أنحاء الوطن .

والذي يهم من استعراض هذه المحاولات هو التدليل على وجود روح وطنية تميل وتتحمس للعمل الثوري العسكري ، بعد أن اعتراها فتور بعامل الاتجاه النضالي السياسي منذ عام 1919 .. واندلاع الحرب ثانية هو الذي سمح بظهور الروح الثورية .

ولم تقتصر هذه المحاولات على داخل البلاد ، بل امتدت إلى خارجها ، ذلك أن الجنود الجزائريين الذين جُنّدوا في الجيش الفرنسي ، وكذلك العمال الجزائريين الموجودين بالمهجر ، فروا من فرنسا ، وانضموا إلى الليفي العربي ، وهو جيش تدعّمه ألمانيا وماليا وعسكريا ، ويتشكل من سوريين وعراقيين وفلسطينيين ومغاربة ، ويقوده عسكريا رشيد عالي الكيلاني العراقي .

حينما حلّ الجيش الألماني عام 1942 بتونس ومعه الليفي العربي ، قرر الجزائريون الموجودون ضمن الليفي العربي أن يكوّنوا جيشا جزائريا بحكم وجودهم قريبا من الحدود الجزائرية .. وفعلا تكوّن هذا الجيش ، واعتمد في نشاطه وقيادته على عناصر من الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة ، وانضمّ إليه المجنّدون الجزائريون في الجيش الفرنسي ، والذين أسّره الألمان ، وكوّن هذا الجيش قيادة جزائرية ، وفتح واجهة خاصة به على الحدود التونسية الجزائرية ، حقق فيها انتصارات على

الحلفاء .. وبعد انسحاب الجيش الألماني من تونس وقع العديد من قادة وجنود الجيش الجزائري في قبضة الفرنسيين ، وحوكموا ، وصدرت ضدهم أحكام قاسية ..

هذه المحاولات وإن لم تنجح تعتبر مؤشرا ، ومنعطفًا جديدًا في تاريخ الحركة الوطنية ، خاصة عندما نجد بأن بعض العناصر التي عاشت أو شاركت في هذه المحاولات كانت في أول نوفمبر 1954 مستعدة من الناحية النفسية والعسكرية .

الحرب العالمية الأولى عرّفت الجزائريين بنوع من المقاومة هي المقاومة السياسية .. أما الحرب العالمية الثانية فقد فجّرت في الجزائريين الطاقة الثورية بعد استنفاد الوسائل السلمية السياسية .



في طريق البيان

في طريق البيان

إذا كان حزب الشعب الجزائري قد اضطرته ظروف القمع والاضطهاد والسجون والمنافي إلى العمل السري ، وإذا كان مناضلوه الشبان كانوا يطمحون إلى عمل ثوري عسكري ، فإن فرحات عباس اختار - كعادته - الاعتماد على الأسلوب البياني ، والقلم الحاد ، حيث قام بتقديم العرائض والبيانات ، واكتسب نشاطه طوال فترة الحرب العالمية الثانية أهمية خاصة بوصفه المنتخب الوحيد الذي تتوفر لديه إمكانيات التحرك السياسي ، بالإضافة إلى شجاعته الأدبية التي لا تتوفر في المنتخبين الآخرين .

افتتح الحرب العالمية الثانية بتوجيه تقرير إلى المارشال بيتان في 10 أبريل 1941 عن طريق عامل عمالة قسنطينة ماكس بونافوس (Maxe Bounafosse) وقد علل هو بنفسه سبب تقديمه هذا التقرير بقوله : « لماذا هذا التقرير عام 1941 ؟ أذكر بأن فرنسا كانت تخوض ثورة وطنية ، والوقت - يبدو لي - مناسباً لسياسة تغيير .. في مثل هذه الظروف وُضع عام 1870 مرسوم كريميول لصالح يهود الجزائر بعد الامبراطورية ، وقبل الجمهورية الثالثة » .

وقد افتتح التقرير بقوله : « مصير بلدنا يعتمد على الله ، وعلى حكومتكم ، أنتم الحكم في نزاع اشتدت وطأته على الجزائر ، نزاع لا تملك أية حكومة الشجاعة والحرية لتواجهه وتحله » .

وبعد هذه الافتتاحية يقدم تقريره الذي عنوانه بـ « تصيم لتجديد الجزائر المسلمة » ، ويتديء في استعراض المشاكل بدءاً من الشكل الأخلاقي الذي يُقدّم له : « قبل التطرق إلى المشاكل الأساسية نقول حيناً بأنه في الجزائر كما في كل المستعمرات ، المشكلة الذي يطغى على كل المشاكل هو الاحترام اللائق بالشعوب المغلوبة والعلاقات بين الغالب والمغلوب .. الأوروبي عموماً بحكم تفكيره الخطيء نتيجة مركزه الاجتماعي القوي يعتقد بأنه من النوع الممتاز الذي لا يوجد ما يربطه بالأهلي .. » ثم ينتقل إلى المشاكل الفلاحية والاجتماعية والإدارية ، ومشكل اليد العاملة والقضية العسكرية .

ويعتبر عمله هذا عملاً فردياً .. ومبادرة شخصية .. ولذلك توجهت هذه المبادرة أو تنوسيت حتى أن فرحات عباس نفسه لم يتعرض لها في كتابه « ليل الاستعمار » ، ونبّه إلى ذلك حين أصدر كتابه « الشاب الجزائري » عام 1981 « بأن هذا العمل المتواضع (أي توجيه التقرير) بقي غير معروف لدى الجمهور في الجزائر ، وأيضاً في فرنسا » .

ما عدا هذه المحاولة السياسية التي قام بها فرحات عباس ، لا يوجد أي نشاط سياسي ، خاصة وأنه حلت بالبلاد عدّة نكبات من مجاعة ، وفقر ، وأمراض ، كما أن كل العناصر السياسية النشيطة بعيدة عن الميدان ، إما في السجون أو في المعتقلات .. إلى حين حلول شهر نوفمبر 1942 ، وهو الشهر الذي نزلت فيه قوات الحلفاء بالشمال الإفريقي ، وبنزولها ظهرت قيادة فرنسية جديدة باسم « فرنسا الحرة » .. وأطلق سراح الكثير من المناضلين في حزب الشعب الجزائري من السجون والمعتقلات مع فرض الإقامة الجبرية عليهم .. وتمّ العفو عن مناضلي الحزب الشيوعي .

استعادت الحياة بعض الأنفاس ، وأُتيحت الفرصة لتحرك بعض العناصر السياسية المسموح لها بالتحرك ، وعلى رأسها فرحات عباس ، فقام باتصالات .. وانتهى من هذه الاتصالات إلى تقديم عريضة باسم المنتخبين إلى ممثلي أنجلترا وأمريكا وفرنسا ، دون أن تحظى هذه العريضة بعناية ، لا من طرف ممثلي أمريكا وأنجلترا ، ولا من طرف الوالي العام ، لأن الشغل الشاغل لهؤلاء - كما يدعون - هو ملاحقة القوات النازية ، وتحقيق الانتصار عليها .

وبعد شهر من الانتظار .. اضطر بعض المسؤولين السياسيين إلى مراجعة الوضعية ، ودراسة الموقف ، فاجتمعوا من جديد بالعاصمة ، واتفقوا على بعض النقاط التي يُمكن أن تشكّل حدًّا أدنى للمطالب الجزائية في مثل هذه الظروف .. واشترك في هذا الاجتماع : فرحات عباس . بومنجل . الدكتور تامزالي . قاضي عبد القادر . الدكتور الامين دباغين . عسلة الحسين . الشيخ العربي التبسي . الشيخ خير الدين . أحمد توفيق المدني . غربي أحمد . الدكتور ابن جلول . الهادي جّام . الدكتور سعدان ..

ومن تأمل عناصر التشكيلة يبدو أنّها مثّلت كل التشكيلات . من النواب . وحزب الشعب الجزائري ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين .. وقد كلف الحاضرون فرحات عباس بتحرير « الميثاق الجديد » .. يحدثنا فرحات عباس عن مهمته التي كلف بها ، فيقول : « فعُدْتُ إلى مدينتي سطيف ، وهناك حرّرتُ بيان الشعب الجزائري ، إن هذا البيان كان بمثابة فذلكة لخصّت فيها بصفة موضوعية ونزيهة حصيلة 112 سنة من الاحتلال الاستعماري ، فاستقرّت فيه تاريخ الاستعمار ، وعبرّت فيه عن

مطامح شعبنا الوطنية ، وصُنِّعَ بلا حقد ولا عنف المشكل الجزائري في إطاره الحقيقي غداة نزول القوات الأمريكية والانجليزية في بلادنا .

ومن خلال صيغة البيان وفحواه يتطور موقف فرحات عباس ، وتتغير لهجته نحو التشدد .. فهو في مقدمة « البيان » ينتقد الاستعمار انتقادا شديدا ، وَيُنَدِّدُ بأنانيته التي « لا تقبل المساواة مع الجزائر المسلمة إلا في مخطط واحد ، وهو التضحيات في ميادين القتال ، وحتى هنا ، فإن الأهلي يسقط ويموت « بعنوان أهلي » (à titre d'indigène) بمرتبة ومنحة مرتزق ، حتى ولو كان صاحب شهادة واختصاص .

وفي البيان أيضا يبدو أنه بدأ يتخلص من الاتجاه الاندماجي ، ويعترف بأن المزج ، أو بأن امتزاج الشعبين في شعب واحد غير ممكن ، ويقول : « إن هوية وتكوين شعب واحد تحت حكومة واحدة أبوية ، أظهرت فشلها .. الكتلة الأوروبية والكتلة المسلمة تبقى متباينة ، الواحدة مع الأخرى بدون روح مشتركة ، من الآن فصاعدا ، المسلم الجزائري لا يطلب إلا شيئا واحدا هو أن يكون جزائريا مسلما » .

وتخلى فرحات عباس عن أشياء كثيرة ، دون أن يغير رغبته في الحوار ، وفي البحث عن وسائل للوفاق .

ولهذا يعتبر المؤرخون البيان الذي كتبه فرحات عباس ، ووقع عليه العديد من الشخصيات الاندماجية في ماضيها تحولا كبيرا ، ويعتبرون وثيقة « البيان » فاتحة عهد جديد في النشاط السياسي الذي مرَّ بأزمات أو بجمود منذ عام 1939 .

وصادف أن البيان ظهر على إثر الاتصالات المتعددة بممثلي الحلفاء في الجزائر ، اعتقادا من الجزائريين أن دول الحلفاء ستفي بوعدها في تحرير

الشعوب ، ومساعدتها على تقرير مصيرها بنفسها ، ولذلك جاء في البيان : « إن الرئيس روزفلت الذي أدلى به باسم الحلفاء عقد العهد بأن جميع حقوق الشعوب الكبيرة منها والصغيرة ، تكون محترمة في العهد الجديد ، وبناء على هذا التصريح وهذا التعهد ، فإن الشعب الجزائري يطالب من الآن ، وذلك تبريرا لكل سوء تفاهم ، وتداركا للمطامع والمطامح التي قد تكشّر أنيابها في المستقبل » .

ثم يذكر البيان المطالب التي تم الاتفاق عليها ، وهي :

1 (إدانة الاستعمار والقضاء عليه ، أي تحريم استغلال شعب من طرف شعب آخر ، وتحريم إدماجه وضمه عنوة ، إن هذا النوع من الاستعمار ما هو إلا نوع جماعي من الاستعباد الفردي الذي كان شائعا في التاريخ القديم ، وفي القرون الوسطى ، وهو علاوة على ذلك مصدر النزاع القائم بين الدول الكبرى ، ومن ثم مصدر الحروب الناشئة بينها .

2 (تطبيق تقرير المصير لجميع الشعوب الصغيرة منها والكبيرة .

3 (منح الجزائر دستورا خاصا بها يضمن لها :

أ « حرية جميع السكان والمساواة بينهم بدون ميز جنسي ولا ديني .

ب « إلغاء الإقطاعية الفلاحية وذلك بإصلاح زراعي واسع النطاق يضمن الرفاهية والرخاء لسواد الجماهير الفلاحية .

ج « الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية بجانب اللغة الفرنسية .

د « حرية الصحافة وحق الاجتماع .

هـ « التعليم المجاني والاجباري لجميع الاطفال ذكورا وإناثا .

و « حرية الدين لجميع السكان ، وتطبيق قانون فصل الدين عن الحكومة على الديانة الإسلامية .

ز « مشاركة المسلمين في حكم بلادهم مشاركة عاجلة وفعلية اقتداءً بما فعلته أنجلترا والجنرال كاترو في سوريا ، وتستطيع هذه الحكومة وحدها أن تحمل الشعب الجزائري على الكفاح المشترك ، وذلك في جو من الوئام والوفاق .

ن « إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من جميع الأحزاب .

وقد وقّع على هذا البيان كل من حزب الشعب الجزائري وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بدون صعوبة ، كما وقّع عليه المنتخبون بدون إقناع ومناقشة .

وفي 31 مارس 1943 تمّ تبليغ البيان وتسليمه إلى الوالي العام آنذاك مارسال بيروتون .. وسلمت نسخ منه إلى ممثلي الولايات المتحدة وأنجلترا ، وروسيا ، وإلى الجنرال دوغول في لندن ، وإلى الحكومة المصرية بالقاهرة .

في الحين شكّل الوالي العام لجنةً سميت « لجنة البحث الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي » ، واجتمعت عدة مرات ..

ولعل الترحيب الذي لقيه البيان هو الذي شجّع فرحات عباس على إضافة « ملحق » بعد الملاحظات والشروط التي تقدم بها حزب الشعب الجزائري .. ومهمة « الملحق » أنه يوضح بعض المطالب من ناحية ، ويدعم الاتجاه الوطني من ناحية ثانية ، كما أنه يسجّل رغبة مسؤولي حزب الشعب الجزائري في النص على دولة جزائرية ..

يقول فرحات عباس بخصوص « الملحق » :

« وكان هذا الملحق يتضمّن فصلين : الفصل الأول متعلق بإصلاحات آجلة لن يتمّ إنجازها إلا بعد نهاية الحرب ، وكان هذا الفصل يقول : « عند نهاية الحرب ، تُصبح الجزائر دولة جزائرية ، لها دستور خاص يضعه مجلس تأسيسي جزائري منتخب من طرف الجزائريين قاطبة » .

وتضمّن الفصل الثاني الإصلاحات العاجلة ، وهي :

أولا : تحويل الولاية العامة إلى حكومة جزائرية مكوّنة من وزراء مسلمين ووزراء فرنسيين - تحويل الإدارات الحالية إلى وزارات - تقليد الوالي العام رئاسة الحكومة ، ويكون بمثابة سفير فرنسا في الجزائر ومندوبها السامي .

ثانيا : تمثيل المسلمين والفرنسيين في الجمعيات المنتخبة ، وفي كل المجالس (المجلس الأعلى للحكومة . النيابة المالية . المجالس الإقليمية والبلدية . الغرف التجارية والفلاحية وجميع المصالح الإدارية ، واللجان ، والنقابات ، وهلم جرا) وهذه الغاية نطالب بمشاركة جميع النواب المسلمين ، وحتى القدماء منهم ، من النواب المالين إلى ممثلي النقابات .

ثالثا : الإدارة الذاتية للدواوير والقرى طبقا لقانون 1884 المتعلق بالبلديات ، وتصبح الجماعة مجلسا بلديا ، وشيخها هو رئيس الدوار .

رابعا : منح المسلمين جميع الوظائف ، وفي ضمنها وظائف السلطة ويطبق عليهم ما يطبق على الفرنسيين من شروط الانخراط في سلك الوظيفة العمومية والترقية والرواتب والتقاعد .. الخ ..

خامسا : إلغاء جميع القوانين والاجراءات الاستثنائية ، وتطبيق القانون العام في نطاق التشريع الجزائري .

سادسا : إلغاء التجنيد الأهلي (أنديجان) والخدمة العسكرية (الانديجانية) ، ونطالب بنفس وسائل التجنيد والمساواة في الرواتب والارتقاء والتقاعد والتعويضات العائلية والارتقاء إلى جميع الرتب .

سابعا : إعطاء الراية الجزائرية للجيش الجزائرية التي تحارب في جيش الحلفاء ، إن كانت الراية الجزائرية تحقق بجانب الراية الفرنسية ، فلا بد أن ترتفع معنوية جنودنا » .

وإذا لوحظ في « البيان » تطور سياسي ملموس ، فإن « الملحق » أضاف تطورا آخرأ بنصه وتأكيد على الدولة الجزائرية ، وعلى بعض مظاهر السيادة .. لكن ما هي النتيجة .. سواء حين تقديم « البيان » أو بعد إضافة « الملحق ؟ » .

إنه رغم ما أبداه رجال البيان وملحقه من مرونة ، ومن استعداد ، وما قاموا به من مساع ، ومن نشر لوثائقهم ، فإن جزءاً واحداً من المطالب أو من الوعود لم يكتب له أن يرى النور .. بل تعقد الوضع ، وتوترت القضايا السياسية حين تولّى الأمور الفرنسية الجنرال دوغول الذي رفض بشدة وبكل صراحة أي تعديل في دستور الجزائر القديم ، وأبدى ممثله الجنرال كاترو صلابة وتعنتاً ، لم يلمسهما الجزائريون في عهد سلفه بيروتون ، وأجاب رجال البيان بقوله : « إنه لا يرى نفسه متقيداً بتعهدات سلفه ولا بالتزاماته » .

وأدت صلابة الجنرالين ، وروح اليأس التي خيمت في الأجواء الجزائرية ، إلى دفع رجال البيان نحو تغيير التكتيك ، ومحاولة الظهور

بمظهر قويّ ، يُفهم المسؤولون الفرنسيين بأن البيان وملحقه ليس مجرد تحرير ، وكتابة قامت به فئة ، أو هو مجرد مطالب تقدمت بها جماعة محدودة ، بل هو رغبة جماهيرية ، ومطالب شعبية ، لا تتوقف أو تخفتُ بإلقاء القبض على فرحات عباس وعبد القادر السايح وسجنهما لبضعة أشهر ، بتهمة « استفزازات لعدم الطاعة في وقت الحرب » .

« أحباب الحرية والبيان » .

ولهذا وجد الجزائريون أنفسهم مضطرين لتكوين تشكيلة سياسية قوية تُدعّم المطالب التي قدّمها « البيان » و « ملحقه » في الميدان .. تمّ الوصول إلى إنشاء تجمع يُحدّثنا عنه فرحات عباس : « اتصلت بمختلف المنظمات .. جمعية العلماء لم تتأخر عن الانخراط فيها (أي أحباب الحرية والبيان) ، وجرّت بيني وبين زعيم حزب الشعب الجزائري مصالي الحاج اتصالات مشجعة ومثمرة أيضا ، وأما الشيوعيون فأبوا الانخراط في حركتنا ، وأخذوا عليّ سرعتي وعجلتي ، وأسّسوا حركة « أصحاب الديمقراطيات والحرريات » مناصرة لسياسة الاندماج « (فرحات عباس . ليل الاستعمار . ص 182) .

ورغم تباين اتجاهات أعضاء التجمع في الماضي ، فإنه تمّ التوفيق بين مختلف النزعات باتفاق حول مبادئ هامة ، إذ تقبل حزب الشعب الجزائري فكرة الجمهورية الفيدرالية .. وتخلّى دعاة الاندماج في السابق عن فكرتهم الاندماجية .. وألحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على مراعاة أهدافها ومبادئها .. لا سيما وأن التوفيق كان على أساس تجمع لا يمثّل حزبا سياسيا ، وقد حدّدت نوعية هذا التجمع صحيفة « المساواة » قائلة : « إن أحباب الحرية والبيان ليسوا حزبا سياسيا ،

وإنما تجتمع يضم أشخاصا من مختلف الاتجاهات ، وينتبون لأحزاب سياسية ، ولكنهم في نظرتهم للمشكل الاستعماري ، وفي نوع الحل لهذا المشكل متفقون ، كما أنهم يؤمنون بأنه يجب تطوير المستعمرات والشعوب المستعمرة نحو شخصيتهم .

وقد حدّد فرحات عباس في كتابه « ليل الاستعمار » ص 181 المهمة من إنشاء هذا التجمع والأهداف ، وهي :

- المهمة العاجلة والأكيدة لهذه الحركة هي الدفاع عن البيان .
- نشر الأفكار الجديدة التي هي روح حركتنا .
- استنكار الاستبداد والتنديد بالعنصرية وجبروتها . ووضع وسائل نشاط الحركة ل :
- إسعاف كل ضحايا القوانين الاستثنائية ، وضحايا القمع والاضطهاد .

- إقناع الجماهير بمشروعية حركتنا ، وخلق تيار مؤازر للبيان .
- ومن أهم المواد التي وردت في القانون الأساسي لحركة « أحباب الحرية والبيان » المادة الرابعة التي جاء فيها :

« ترويج فكرة إنشاء دولة جزائرية ، وتأسيس جمهورية مستقلة مترابطة بروابط فيديرالية مع جمهورية فرنسية جديدة ، مناوئة للاستعمار ، وخلق روح التضامن في الجزائريين الاسرائيليين والمسلمين والمسيحيين ، وبث شعور المساواة ، ورغبة التعايش في السراء والضراء ، تلك الروح التي هي حسب رأينا « أساس تكوين كل أمة » (فرحات عباس . ليل الاستعمار . ص 182) .

وبتأسيس هذه الحركة تركز موقف الزعماء الجزائريين ، بما أظهروه من حرص وإخلاص ، وبما أبدوه من استعداد للتنازل عن الاختلافات والنزعات الشخصية مراعين مصلحة البلاد قبل كل شيء ، ومقدرين الظروف التي كانت تمر بها البلاد ، وهي ظروف صعبة صعوبة المواقف الفرنسية المتشددة .

سجل إقبال الجماهير على الحركة الجديدة رقما قياسيا ، يدل على تحمسها ورغبتها الأكيدة في التحرر والاستقلال .. وللاقبال الجماهيري أسباب :

أولا : إنها حركة توحيد ، جمعت كل التيارات والأحزاب ، ما عدا الحزب الشيوعي الذي لم تكن مواقفه أثناء الأزمات متجاوبة مع المطامح الوطنية .

ثانيا : إن ظروف ذلك العهد كانت تفرض على الجزائريين وحدة متينة ، وتكتلا صلبا ، لا يسمح بأي تهاون أو تمزق .. فالحرب على وشك الانتهاء ، وبانتهائها ينتهي التواجد الدولي بالجزائر ، ويبقى المجال خاليا لفرنسا وحدها .

ثالثا : كان الجو مهيأ لنشر الفكرة الاستقلالية ، ولترسيخها ، إن لم نقل بأن الجو كان صالحا جدا لنشر الفكرة الثورية .. خاصة وأنه يوجد داخل الحركة حزب وطني مهيكّل منظم ، اكتسب خبرة في ميدان النضال ، واستغل خبرته ، وعناصره الشابة المتحمسة في العديد من المناسبات ، وأخيرا استفاد من وجوده ضمن الإطار الشرعي الذي يسمح له بحرية التحرك : عقد الاجتماعات . حرية التنقل . القيام بمظاهرات طبع المناشير . إلقاء الخطب ، تكثيف الاتصالات .

وصل الاعتقاد ببعض الناس أنه بمجرد انخراطهم في حركة « أحباب الحرية والبيان » وحصولهم على بطاقة الانخراط ، سيتحصلون على الاستقلال .

رابعا : يعود الفضل في تمتين روابط الوحدة الوطنية إلى الموقف الإداري الفرنسي غير القارّ ، لتعدد مراكز القوى في اتّخاذه .. فهناك موقف بيروتون الذي كان يتظاهر باستعداده للتعاون مع ممثلي البيان ، وهناك موقف كاترو الذي أصمّ أذنيه عن مطالب الجزائريين ، وواجهها بالتهديد وإلقاء القبض على فرحات والسايح .. وهناك فرنسا .. وفرنسا الحرة .. والجنرال دوغول ، والجنرال جيرو .. وإلى جانب كل هؤلاء هناك جيش فرنسي بضباطه ، ومعمرون فرنسيون بزعمائهم ، ولذلك كانت المواقف الفرنسية متناقضة مضطربة ..

إلا أن الحماس الجماهيري كانت تواجهه استفزازات من عدة جهات .. وقد كانت تزداد كلما اقتربت الحرب من النهاية .. لأن تخوف الفرنسيين - على اختلاف أنواعهم ومراكزهم - من تزايد الشعور الوطني جعلهم يعبّؤون النفسيات والقوات العسكرية ، ويحدّدون حتى مناطق الانفجار المتوقعة .. ولم تظهر نواياهم وتصرفاتهم إلا بعد أن حققوا النصر النهائي على النازية في شهر ماي 1945 .



حوادث مای 1945

حوادث ماي 1945

تحتل حوادث ماي مكانة في تاريخ الحركة الوطنية ، وتختلف بأسبابها وطبيعتها ونتائجها عن الحوادث التي عرفتها البلاد ، منذ الاحتلال الفرنسي لها .. وحوادث ماي هذه يعود الفضل في خلق جيل مؤمن بالعمل الثوري المسلح ، إذ بعد هذه الحوادث مباشرة تأكد الجزائريون :

- بأن الكفاح السياسي السلمي الذي مارسوه منذ عام 1919 لا يُجدي مع استعمار متعنت .

- أن الوعود الفرنسية منذ الاحتلال حتى عام 1945 لم يتحقق منها وعد ، ولا يمكن أن يتحقق في ظل استعمار استيطاني .

- أن الجزائري جزائري ، لا قيمة له ، سواء كان من دعاة الاندماج ، أو الإصلاح ، أو الاستقلال .. وسواء ارتدى البذلة العسكرية الفرنسية أو رفض ارتدائها ..

لذلك اعتبرت حوادث ماي تمهيدا لثورة نوفمبر 1954 ، والبعض من المؤرخين يكاد يحصر أسباب ثورة 1954 في حوادث ماي ، ومنهم روبرت أرون في كتابه « أصول حرب الجزائر » .

الوضع العام قبل ماي 1945 امتاز بتحرك سياسي واسع لجميع الفئات الجزائرية .. وأهم حركة علّقت عليها الآمال حينذاك هي

« حركة أحباب الحرية والبيان » التي تمكنت من خلق وحدة وطنية جعلت الإدارة الفرنسية تتخوف من عواقبها ، وجعلت المعمّرين والمتطرفين الفرنسيين يشتدون في التحامل عليها ، ومحاولة تحطيمها . إذن كان هناك حماس جماهيري عام ، وعداء متعصب يواجهه الحماس الوطني .. ومن الطبيعي أن ينفجر البركان بمجرد اشتعال الفتيلة .

البعض يتحدث عن حوادث الثامن ماي ، بينما شهر ماي كله حوادث ، منذ بدئه إلى نهايته ، فقد أصدر حزب الشعب الجزائري أوامره لمناضليه بالتظاهر في كل أنحاء القطر بمناسبة أول ماي عيد العمال ، فما هو القصد من هذه المظاهرات ؟ هل القصد هو التعرف على مدى ما يتمتع به الحزب من شعبية ونفوذ ؟ أم هو تعويد المناضلين على مجابهة القوات الاستعمارية والتغلب على عقدة الخوف ؟ أم هو حث الجماهير على انتفاضة عامة عارمة ، قبل أن تنتهي الحرب العالمية الثانية ؟

الأكد هو أن مظاهرات أول ماي تمت حسب الأوامر التي أصدرها حزب الشعب الجزائري ، وحسب الطريقة التي رسمها ، لأن المناضلين طبقوا كل التعليمات بصدق وإخلاص وتضحية .. استشهد اثنان بالعاصمة ، وجرح ما يزيد على 23 شخص .. وما أبداه هؤلاء المناضلون من بسالة واستعداد للتضحية دليل على نجاح الأوامر بالتظاهر .. وأهميتها في أنها شملت كل التراب الجزائري تقريبا .

وهذا هو الذي دعا « حركة أحباب الحرية والبيان » ، أو دعا أغلب أجنحتها إلى دعوة مناضلي الحركة بالقيام بمظاهرات أخرى في الثامن ماي ، بمناسبة انتصار الحلفاء على النازية الألمانية ، مع التأكيد على المناضلين بأن تم المظاهرات في جو سلمي ، وفي الإطار القانوني المسموح

به ، لكن هل يمكن تحديد الجو السلمي في نظر الجزائريين أولاً ، ثم في نظر الفرنسيين ثانياً ؟ وما هو الإطار القانوني المسموح به ؟

بالنسبة للجزائريين ، حانت ساعة التعبير عن المشاعر الوطنية ، وعن تعلقهم بالحرية كغيرهم من شعوب الدنيا .. وهذا النوع من التعبير كاف وحده في تفجير الموقف ، لأن الفرنسيين لا يتقبلونه ، خاصة وأن هؤلاء كانوا يتربصون بالجزائريين من مدة طويلة ، وكانوا ينتظرون بشوق ساعة انتقامهم من الجزائريين .. وها هي في نظرهم قد حانت ..

ولم تمر الساعات الأولى من الثامن ماي حتى حدث الاصطدام ، إثر اعتداء محافظ الشرطة الفرنسية في مدينة سطيف ، وإطلاقه الرصاص على الشاب شعال بوزيد الذي كان يحمل العلم الجزائري ، ويتقدم المظاهرة ، فأرداه قتيلاً .. أدى إلى انفجار الجماهير الجزائرية التي أقبلت متظاهرة مُعربةً عن فرحتها !. وانقلب الفرح إلى مأتم ، حين هاجمت الشرطة المتظاهرين ومعها الأوروبيون المديون .. ولم يجد الجزائريون من وسيلة للدفاع عن أنفسهم إلا اللجوء إلى العصي والمُدى وإلى أي سلاح عثروا عليه ..

فهل كان العلم الجزائري استفزازاً لمثل الإدارة الاستعمارية ؟ أم هي الرغبة في الانتقام وفي تفجير الوضع ؟ كي تجدد الشرطة والجندرمة والجيش الفرنسي ذريعة للتدخل ، وقُعم الحماس المتفجّر لدى الجماهير .

لأن المرء يتساءل : لماذا اختيرت مدينة سطيف من طرف الإدارة ؟ ولماذا اختير الشاب الكشاف الشجاع ؟ ولماذا تمسك محافظ الشرطة بطلبه إنزال العلم الجزائري ؟ إن أي جواب ، يحمل - بدون شك - في طياته خلفية تنم عن حقد دفين ، ومكيدة مدبرة ، يدل على هذا ما قاله أحد

المسؤولين الجزائريين من أن نائب عامل عمالة سطيف استدعاه في الصباح الباكر من الثامن ماي ، وقال له : « لا شك وأنه مرخص لكم بالذهاب إلى نصب الأموات ، لكنني أحذركم بأن السيادة الفرنسية لا يجب أن تُمسّر ، لقد أعطيتُ أوامري بإطلاق الرصاص » (جاك جيركي . الثورة الوطنية الجزائرية والحزب الشيوعي الفرنسي . ج 3 . ص 297) ، ومن الواضح أن نائب عامل العمالة اعتبر التظاهر بحمل العلم الوطني مساسا بالسيادة الفرنسية ، ولهذا أصدر أوامره بإطلاق الرصاص بعد محاولة لإنزال العلم وأفتكأكه من الشاب الذي كان محاطاً بمجموعة من الشبان أعدتُ نفسها للدفاع عن العلم .

لم تقتصر الاستفزازات على مدينة سطيف وحدها ، بل امتدّت إلى أكثر مدن وقرى ودواوير القطر ، خاصة في قالمة ونواحيها ، وخراطة ودواويرها ، كما أن الفرنسيين بدون استثناء اشتركوا في الاستفزازات وعمليات القمع ، بما في ذلك العناصر اليسارية التي تجنّد بعضها في مليشيات تقوم بإلقاء القبض ، واغتيال العناصر الوطنية بدون محاكمة ، ولا مراقبة .. كما اشتركت القوات العسكرية الفرنسية جميعها في عمليات الإبادة ، القوات البرية والجوية والبحرية ، فضلا عن الشرطة والجندرمة والمليشيات ، وأسفرت العمليات على استشهاد ما يزيد على 45000 من الجزائريين ، واقتياد عشرات الآلاف إلى السجون والمحتشدات ، وإعدام العشرات عن طريق المحاكم .

أورد شارل أندري جوليان في كتابه « إفريقيا الشمالية تسير » نقلا عن هـ . بينازي : « لقد كان القمع ضاريا لا يرحم ، وفي الحقيقة خاليا من الإنسانية ، لأنه فاقد للتمييز ، فكل عربي لا يحمل الساعة القانونية ، كان مقتولا بسطيف ، حيث أعلن القانون العرفي ، وفي

الريف كان الجنود السينغاليون وجنود اللفييف ينهبون ، ويحرقون ، ويغتصبون النساء ، وقصف الطراد « ديفو لاتروان » أرباض خراطة بدون أي فائدة ، ودمّرت الطائرات 44 مشق ، وهي مجموعة من المساكن تعد من 50 إلى 1000 ساكن ، ولما علم سكان قالة الأوروبيون بنهب القرى المجاورة انتابّتهم حمى المحاصرة ، فنظّموا حراسة مدنية لإعانة الجيش على الدفاع عن المدينة ضدّ جموع الآلاف العديدة من الأهالي المحيطين بها ، وأرسلوا بعثات انتقامية ، وصرعوا رميا بالرصاص ، وبدون محاکمة عشرات من الأهالي أخذوهم على غرّة ، وشاركت في القمع عناصر من أقصى « اليسار » ومن « الفاشية » على حدّ سواء .

وأورد صحافي آخر ما يلي : « أبدا .. في الحقيقة .. منذ عام 1842 ، ومنذ الماريشال سانت آرنو ، لم تعرف الجزائر حتى في أيامها السوداء في تاريخها قُعا أكثر ضراوة ضد شعب لا يملك وسائل الدفاع .. في الطرقات .. في الدروب .. في الحقول .. في الشعاب .. في الأودية ، ليس هناك إلا جثث مبقورة ، أمعت فيها الأفواه المدمّاة للكلاب الجائعة تحت التجمّع المَحْزِنِ للنسور التي كوّنَتْ دائرة .. هنا وهناك قرى بكاملها سَحِقَتْ ، مباديء الإنسانية انهارت تحت الرصاصات القاتلة من طرف المتمدنين .. آكام وأكداس من الموتى » (تقلاعن محفوظ قداش . مرّت ثلاثون سنة على 8 ماي 1945 . ص 30) .

نعم لقد بدأت الحوادث بمظاهرات سلمية ، أراد الجزائريون التعبير فيها عن فرحتهم بانتصار الديمقراطية على الفاشية والنازية ، وعن رغبتهم في الاستقلال ، إلا أن الإدارة الاستعمارية حوّلت هذه المظاهرات بتعسفها إلى لهيب أشعل في نفوس الجزائريين نوعا من الغضب ، تحوّل إلى ثورة غير منظمة ولا مهياة من قبل ، لأنهم وجدوا

أنفسهم في حالة دفاع عن النفس ، لم يعودوا يفرقون بين فرنسي وفرنسي ، لأن الاعتداء عليهم لم تقم به طائفة دون طائفة .. والعواطف عندما تهيج يعجز العقل والقانون عن التحكم فيها .

وأكثر ما أثار الجزائريين بصفة خاصة هو التكتأف المتين الذي ظهر به الفرنسيون عموما ، لا فرق بين يساري ويميني ، وجندي ومدني ، ومثقف ومعمّر ، وعامل ورأسالي .. حتى أنه بعد الحوادث مباشرة وجّه عميد المحامين فروزيلير إلى محامي محكمة الاستئناف الرسالة التالية : « زملائي الأعزاء .. في جلسة 9 جوان 1945 درس مجلس التنظيم (le conseil d'ordre) الوضعية الحالية للمحامين في القضايا الحالية الاستثنائية التي تهمّ المتهمين بمسّ أمن الدولة ، وإحداث الشغب والقتل بعد حوادث قسنطينة .

» التشريع الحالي يسمح للمتهمين باختيار محاميهم بكل حرية ، غير أنه بحكم طبيعة هذه القضايا ، وبالتأثيرات المعتبرة التي أحدثتها ، والحوادث التي يُمْكن أن تثيرها ، فإن المجلس يقدر غاية التقدير المرغوب ، بأن لا يقبل زملاء سلك المحاماة تعيينهم إلا بأمر من المحكمة » (روبيارون . أصول حرب الجزائر . ص 141) .

الخلاصة هي أن حوادث ماي كانت لها انعكاسات إيجابية على الحركة الوطنية بالجزائر ، وإن تباينت هذه الانعكاسات من تنظيم لآخر ، ومن شخصية لأخرى لأن آثار هذه الحوادث عدلت الكثير من المفاهيم والاتجاهات .. إلا أن الذي اتفق عليه المؤرخون والمحللون هو أن حوادث ماي 1945 نواة لتعبئة ثورية تفجرت عام 1954 ، كما قال شارل هانري فافرو : « ملف 8 ماي يبقى مفتوحا .. كل الرؤساء

الوطنيين (أي الجزائريين) متفقون حول هذا الموضوع ، وهو أن ثورة 1954 تقررت ساعة حوادث 1945 ، كل هؤلاء الذين التقيت بهم في القاهرة ، في تونس ، في بون ، في رومة ، في جنيف ، رَوَوْا لي القصة المربعة لأيام وليالي ماي « (شارل هانري فافرو . الثورة الجزائرية . ص 76) .

فعلا .. بقيت حوادث ماي راسخة في أذهان الأجيال التي عاشتها من بعد أو قرب .. وقد قال الشيخ البشير الابراهيمي بمناسبة ذكرى الثامن ماي :

« يا يوم .. لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى ، والذكرى التي لا تنسى ، فكُنْ من أيِّ سنةٍ شئتَ ، فأنتَ يوم 8 ماي وكفى ، وكلُّ مالك علينا من دَيْن أن نحْيِي ذكراك ، وكل ما علينا من واجب أن ندوّن تاريخك في الطروس ، لئلا يمسه النسيان من النفوس » .



من الانتخابات
إلى
العمل الثوري

من الانتخابات إلى العمل الثوري

خَلَفَتْ حوادث ماي 1945 جروحاً لا تَندِمِل في قلوب الجزائريين جميعاً ، وحطمتُ فيهم آمالاً كانتْ معلقةً على الحرب العالمية الثانية ، وعلى وعود الحلفاء السخية (في التصريحات فقط) بأن للشعوب المستعمرة الحق في تقرير مصيرها بعد الانتهاء من الحرب والانتصار على النازية .. وأقصى نكبة أصابت وجدان الشعب الجزائري كانت تصدُّع الوحدة الوطنية التي عرفتها البلاد متينة جبارة في تجمعه « حركة أحباب الحرية والبيان » .

ولهذا وجد الجزائريون أنفسهم في مرحلة جديدة تختلف عن المراحل السابقة .. وعليهم أن يواجهوا الأوضاع الجديدة بعد أن اجتازوا عننة ماي القاسية .. لا سيما وأنه جددتْ أوضاع على المستويين العالمي والداخلي :

ففي المستوى العالمي :

1 - بعد انتصار الحلفاء ، وانهزام ألمانيا وإيطاليا واليابان .. وبعد استتباب السلم ، ظهرت حرب تختلف عن الحروب التقليدية هي « الحرب الباردة » بين الكتلتين الشرقية والغربية .. وهي حرب بدأت تظهر بوادرها منذ مؤتمر يالطا الذي انعقد في الفترة 4 - 11 فبراير 1945 ، والذي ضم القوات الرئيسية في العالم وهي : الولايات المتحدة الأمريكية . الاتحاد السوفياتي . بريطانيا العظمى . ويؤكد

المحللون السياسيون بأن فكرة تقاسم النفوذ أو مناطق النفوذ في العالم ظهرت في مؤتمر يالطا ، وهي التي تطورت بعد الحرب إلى حرب باردة بين المعسكرين الشرقي والغربي ، رغم أن المؤتمر أوصى بعقد اجتماع في سان فرانسيسكو بغرض إنشاء هيئة للأمم تحافظ على السلام العالمي ، وتحل محل « عصبة الأمم » .

2 - خلال الحرب العالمية الثانية ، جرت اتصالات بين الدول العربية التي لم تكن في أغلبيتها مستقلة ، واتفقت بعد الاتصالات والمشاورات على إنشاء جامعة للدول العربية ، وقد قامت هذه الجامعة بعد إنشائها بنشاط عربي ودولي واسع بعد عام 1945 ، ساعد كثيرا على توضيح وتدعيم القضايا العربية المطروحة على الساحة الدولية .

3 - استفادت عدة أقطار مستعمرة من الحرب العالمية الثانية ، واستغلت الظروف ، واستطاعت الحصول على استقلالها بعد أن كانت خاضعة لأнгلترا أو هولندا ، مثل : الهند . الباكستان . سيلان . برمانيا . أندونيسيا .. وشجّع استقلالها بلدانا أخرى على الرغبة والسعي للتحرر والاستقلال .

4 - استلمت فرنسا من الولايات المتحدة إعانات مالية ومساعدات عسكرية ضخمة استغلّتها في تحديث جيشها ، وفي تطويره لمواجهة حرب الهند الصينية .

5 - مساعدات الولايات المتحدة ، ووقوف الدول الغربية إلى جانب فرنسا شجّعها على التصدي للحركات الوطنية في مستعمراتها بالقمع والزجر ، وخاصة في جزيرة مدغشقر ، حيث تم إعدام عدد كبير من الوطنيين .

6 - وقّعت 12 دولة على معاهدة الحلف الأطلسي ، وكان من بين هذه الدول فرنسا التي قامت بإقحام الجزائر في الحلف الأطلسي واعتبارها إحدى عمالات فرنسا .، الشيء الذي دفع « حزب الشعب الجزائري » إلى الاحتجاج ، وإلى الدفاع عن الذاتية الجزائرية التي لا تربطها بفرنسا علاقة التبعية المفروضة بالقوة .

أما على المستوى الداخلي :

أسفرت حوادث ماي على انهيار الوحدة الوطنية التي عاشتها البلاد في « حركة أحباب الحرية والبيان » :

1 - فحزب الشعب الجزائري بقادته ومناضليه تأكد بعد حوادث ماي بأن « الحرية تؤخذ ولا تعطى » وبأنه لا يمكن في أي حال من الأحوال الاعتماد على وعود الدولة الفرنسية المستعمرة ، أو على وعود الدول الأخرى التي تنافسها ، وتتنافس فيما بينها على استثمار واستعباد الشعوب الضعيفة .. وفرنسا غير مستعدة للتنازل عن الجزائر مهما كانت الظروف ، حتى ولو اقتضاها ذلك تجنيد وتجميع قواتها العسكرية الموزعة في المستعمرات الأخرى .. ولا تتورّع أيضا عن القيام بأي عمل ضد التحركات والمطالب الوطنية ، والدليل : أنها سخرت في ماي 1945 قواتها البرية والبحرية والجوية لقنبلة القرى والمداشر ، وإبادة السكان العزل .

ومع تأكيدات .. وجد الحزب نفسه مترددا .. يتأرجح بين مواصلة العمل السري الذي نشأ عليه ، وقرس فيه ، وبين النزول إلى الميدان علانية ، ككل الأحزاب الشرعية التي مكّنها غطاؤها الشرعي من التحرك على نطاق واسع .، وأخيرا قرّر في شهر نوفمبر 1946 إبقاء

« حزب الشعب الجزائري » المنحل من طرف الإدارة الفرنسية منذ عام 1939 يواصل عمله السري ، وإنشاء حزب شرعي يُعلن عنه لدى الإدارة الفرنسية ، فأسس « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » (M.T.L.D.) كغطاء شرعي يُسمح له بتحريك واسع ، ويخوّل له حق الترشح لختلف المجالس ، واستطاع بهذه الواجهة الجديدة أن يصدر صحافة معبرة عن مبادئه الاستقلالية وعن اختياراته الوطنية ، وأن يوسّع دائرة نضاله بالتوغّل في صفوف النساء والشبان والطلبة والعمّال ، وتنظيم هذه الفئات ضمن اتحادات وجمعيات قانونية .

2 - أما فرحات عباس وأنصاره ممّن لا يؤمنون بالعنف ، أو ممّن يعتبرون المطالبة بالاستقلال تطرفا أو « نوعا من التهور » فقد اعتبروا حوادث ماي مغامرة قامت بها عناصر من « حزب الشعب الجزائري » اتخذتها الإدارة الفرنسية ذريعة لضرب الحركة الوطنية ، ولحلّ « حركة أحباب الحرية والبيان » ، وعليه لا يمكن التادي في العمل جنبا إلى جنب مع مناضلي « حزب الشعب الجزائري » داخل حركة واحدة .. واستخلص عباس من حوادث ماي بأن التطرف لا يُجدي ، ولا يساعد الجزائريين في الحصول على حقوقهم .. والمجالس الشرعية الفرنسية أو المؤسسات الفرنسية هي أفضل وسيلة - في نظره - لعرض القضية الجزائرية ، وللدفاع عنها ، وتماشيا مع تفكيره وخطه الذي رسمه لنفسه بعد حوادث ماي ، وبعد خروجه من السجن كوّن حزبا جديدا في أبريل 1946 سماه « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » . (U.D.M.A.) وعن طريقه خاض المارك الانتخابية عام 1946 ، وتحصل حزبه على أغلبية المقاعد البرلمانية المخصصة للجزائريين ، وتبلغ 15 مقعدا .. وهي انتخابات قاطعها « حزب الشعب الجزائري » ، ودعا

الجمهير إلى مقاطعتها ، لأنها تتعارض وخطه في عدم الاعتراف بشرعية المؤسسات الفرنسية وقوانينها ، لكنه عدل عن رأيه ، وترشح بدوره للمجالس .. في حين أيدتها « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ووقفت بجانب مرشحي حزب « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » بدعوى أن رجال الاتحاد أفضل من مرشحي الإدارة الفرنسية من « بني وي .. وي .. » كما كان يطلق عليهم في ذلك العهد .

3 - بينما عادت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد حوادث ماي إلى نشاطها برئاسة جديدة تولاهها الشيخ البشير الابراهيمي ، وقد ركزت نشاطها على تأسيس شبكة واسعة من المدارس الحرة في المدن والقرى والمدامر .. وعلى بناء المساجد الحرة التي عرفت إقبالا شعبيا واسعا .. وتوجت نشاطها الثقافي والديني بتأسيس « معهد عبد الحميد بن باديس » بقسنطينة ، ويعتبر مفخرة ، وإنجازا هاما ، لأنه استعاد الازدهار الثقافي للمغرب الأوسط ، باستقباله للطلاب الجزائريين الذين كانوا في الماضي يهاجرون إلى تونس وإلى المغرب للدراسة بالزيتونة أو القرويين .. وقد قام بدور في تكوين أجيال ، وفي بعث حيوية أعادت للجمعية أمجادها التي غطت عليها ظروف الحرب .. وشرعت في إصدار السلسلة الثانية من صحيفة « البصائر » التي أوقفتها في بداية الحرب .. وعلى العموم اهتمت بالجانبيين الثقافي والديني وعن طريقها استطاعت أن تفرض نفسها على الساحة السياسية والشعبية .

4 - وهناك الحزب الشيوعي الجزائري ، وقد مر منذ تكوينه بمراحل :

الأولى : محاولة إيجاد أرضية جزائرية مع المحافظة على ارتباطه والتزامه بخط الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولم يتمكن من تحقيق غرضه إلا بعد اشتراكه في المؤتمر الإسلامي ، إذ استطاع من خلاله التسلّل والاتصال بالأوساط الشعبية ، وقد ساعدته ظروف تشكيل « الجبهة الشعبية » بفرنسا ، بعد أن كانت الأوساط الشعبية ترى فيه حزبا عدوّا للإسلام ، استنادا إلى المقولة الشيوعية الشهيرة « الدين أفيون الشعوب » .

الثانية : مرحلة ظروف الحرب العالمية الثانية : وتعرض الحزب الشيوعي في بدايتها للحل وللإيقافات في كل من فرنسا والجزائر ، لكنه استعاد مكائنه بالجزائر أولا بمناسبة نزول الحلفاء بها .. وخلالها لم يتجاوب مع المطالب الشعبية الجزائرية ، ولم ينسجم مع مواقف التنظيمات الوطنية ، ولم ينخرط في تجمع « حركة أحباب الحرية والبيان » ، بل أنشأ تجمعاً آخر دعا إليه ، لم تكتب له الحياة .. وانتهت به مواقفه خلال الحرب ، وخلال حوادث ماي إلى اعتبار الحركات الوطنية الجزائرية حركات فاشية ، يجب القضاء عليها وعلى زعمائها .. وبذلك ابتعد عن الساحة الشعبية .. واستنكر الجزائريون بصفة خاصة اشتراك بعض مسؤوليه الشيوعيين في حوادث القمع والإبادة في شهر ماي 1945 إلى جانب المعمرين والمتطرفين والإدارة الفرنسية .

الثالثة : تغيير التكتيك بعد عام 1947 : استمر النفوذ الشيوعي في فرنسا والجزائر فترة تقارب العامين ، مّني بعدها الحزب بتدهور على جميع الأصعدة ، حتى أنه فقد في الجزائر كل شعبية .. ودفعه ذلك لمراجعة سياسته ، وإلى محاولة التقرب من الجماهير باحترام مشاعرهما ، والنظر إلى مطالبها بروح جديدة وسياسة جديدة ، لا تستبعد فكرة

« الجمهورية الجزائرية » .. وسعى إلى تنقية الأجواء بإبعاد العناصر الشيوعية التي اتُهمتُ برفع الشعارات المعادية للحركات الوطنية ورجالها ، وفي هذا الإطار أبعد عمار وزقان الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري ، بقصد التقرب إلى الحركات الوطنية وال جماهير الشعبية ، ونشط تقابته « الكونفيدريالية العامة للعمال » (C.G.T.) التابعة له ، وقد تمكنت هذه من التغلغل في الأوساط العمالية بوضعها التنظيم النقابي المسموح به للدفاع عن حقوق العمال في كل من فرنسا والجزائر .

5 - الإدارة الفرنسية : ولهذه مخططات ومشاريع متناقضة ، تعبر عنها التصرفات الصادرة عن الإدارة من حين لآخر :

- فهي أولا غير مستعدة للاستماع إلى المطالب الجزائرية سواء كانت هذه المطالب هامة أو تافهة .

- وهي ثانيا : ترى بأن القمع الذي مارسه ضد الجزائريين في حوادث ماي وما بعد ماي هو وقع مشروع ، وضروري لإنقاذ سمعة فرنسا ، ولاستعادة مجدها وهيبتها كدولة عظيمة ، لا سيما وأن موضوع « المجد الفرنسي » لم يفارق ذهن الجنرال دوغول منذ انعقاد مؤتمر يالطا الذي لم تستدع لحضوره فرنسا ..

- وهي ثالثا تعتقد بأن القمع هو أحسن وسيلة لردع الوطنيين ولإثنائهم عن نشاطهم الوطني ، وعن أفكارهم الوطنية .

إلا أن الظروف والأحداث التي توالى فيما بعد ، أثبتت بأن التصامم على المطالب .. والغطرسة الاستعمارية .. والقمع الوحشي .. أسلحة مفلوكة ، لأنها ضاعفت من إرادة الجزائريين وتصميمهم على مواصلة

معركة التحرير .. وهنا وجدت الإدارة الفرنسية نفسها مضطرة لمحاولة تلطيف الأجواء ، واكتساب الجانب الجزائري ، فلوّحت بسياسة فتح باب الترشيح للبرلمان الفرنسي أمام الجزائريين .. في حين عارض المعمّرون والمتطرفون الفرنسيون فكرة السماح للجزائريين بالترشح للبرلمان الفرنسي ، لأن هؤلاء لم يبلغوا بعد درجة من الوعي والتطور ، تؤهلهم للجلوس في برلمان واحد مع الفرنسيين ..

سياسة فتح باب الترشيح .. وترشّح الجزائريين .. والحملات الانتخابية .. وإن أفادت في بعض الأمور ، فقد ساهمت إلى حد كبير في تغذية الخلافات ، واحتداد الصراعات بين الأحزاب ، لم تنفع في التخفيف منها الدعوات التي وجهتها عدة أطراف ، والتي تدعو إلى اتحاد وطني ، يضمّ جميع الأحزاب ، لأن كل حزب تصلّب في موقفه ، وتقدم بشروط لا تساعد على تحقيق الوحدة .. وكل ما هنالك ، أنه تمّ الوصول إلى صيغة توفيقية تدور حول الدفاع عن الحريات العامة بعد أن اشتدت حملات القمع الإدارية الاستعمارية ، تمثلت هذه الصيغة في إنشاء « جبهة الدفاع عن الحريات الديمقراطية » التي تأسست عام 1951 ، ولم تعمّر طويلا ، لعدة أسباب ، منها العوامل الشخصية ، والتباين في التفكير والاتجاه ، والتخوف من عواقب الاتحاد في ظل المنافسة العقائدية التي برزت بكيفية واضحة ما بين 1947 و 1954 ، وقد قال الشهيد قاسم رزيق عن هذه الجبهة : « ومن المؤسف جدا أن الجبهة ماتت قبل أن تحقق ولو بندا واحدا من بنودها الضيقة ، ذلك لأنها بُنيت على أساس مهلهل ، لا تثق به الأمة ولا أعضاء الجبهة أنفسهم » (من مقال لقاسم رزيق . صحيفة « المنار » العدد 43 .. يونيو 1953) .

الأحزاب وتجربة المجالس :

في البداية تمحّس « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » (U.D.M.A.) لفكرة الترشح الجزائري للبرلمان الفرنسي ، فرشح نخبة من خيرة عناصره المثقفة وتحصلت على 11 مقعدا من بين 13 مقعدا .. وقد عارض « حزب الشعب الجزائري » هذه الانتخابات ، ثم عدل عنها ، وخاض بدوره معركة الانتخابات بغطائه الشرعي الجديد « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ونجح خمسة من مرشحيه ..

إن تجربة البرلمان الفرنسي ، والخطب المتحمسة التي ألقاها ممثلو الحزبين تحت قبة البرلمان الفرنسي لم تأت بمجديد ، ولو أن الحزبين عبّرا بصوتين مختلفين .. فنواب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري حاولوا في إطار الشرعية والاعتدال التعبير عن مطالب الشعب الجزائري في لهجة معتدلة ، وخطب ذات قيمة تاريخية ، أملا في الوصول إلى تحقيق بعض المطالب ، وإلى تحسين أوضاع الجزائريين .. واعتمدوا في كل تصريحاتهم وخطبهم ونشاطهم على القوانين الفرنسية المسطرة ، واحتجوا بها دائما .. بينما نواب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سلكوا منهجا آخر ، إذ صرّحوا منذ البداية بأنهم لا يعترفون بالقوانين الفرنسية ، ورددوا داخل جدران البرلمان مطلب الاستقلال التام ، منددين في الوقت نفسه بالسياسة الفرنسية المتبعة بالجزائر منذ عام 1830 ، ومشهرين بالممارسات القمعية التي تقوم بها الإدارة الفرنسية بالجزائر .

لم تتوقف التجربة عند حدود البرلمان الفرنسي ، فقد شاركت الأحزاب في انتخابات المجالس البلدية عام 1947 ، وتحصلت فيها « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » تقريبا على جميع بلديات

القطر ، وكان نجاحها دليلا على مشاعر الجزائريين ورغبتهم في الحرية والاستقلال ، وكانت مؤشرا أيضا للفرنسيين لم يستفيدوا منها ، لأنهم واجهوا التيار الاستقلالي بالتشدد والزجر .. ولم تكن تجربة المجالس البلدية سهلة بالنسبة « لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ، لأنها وجدت نفسها في وضع مُحْرِج إذ واجهت صعوبة في التوفيق بين العمل السري الهادف للاستقلال ، والعمل الشرعي الذي يقتصر على تحسين وتسوية مشاكل المواطنين اليومية .

وفي عام 1948 جاء دور الترشح للمجلس الجزائري الذي تقرر تكوينه في الجزائر من 120 نائبا مناصفة بين الجزائريين والفرنسيين في الجزائر .. وفي هذه المرة لم تعد الإدارة الفرنسية تنظر بعين الارتياح إلى الانتخابات ، وصارت تتخوف من نتائجها ، ومن ارتفاع نسبة العناصر الوطنية على حساب العناصر المتواطئة مع الإدارة الفرنسية ، فشرعت بطريقة مكشوفة ووحشية أحيانا في عرقلة الترشيحات الوطنية ، بالإيقافات غير الشرعية ، والمحاكمات غير القانونية ، وسجن وتغريم المرشحين وأنصارهم ، وقامت بعمليات تزيف تاريخية على يد الوالي العام آنذاك إيدموند نيجلان الذي اشتهر بالتزوير ، وقد قام بحبس المرشحين قبل يوم الانتخاب ، ومنع المناضلين الوطنيين من الإشراف على مكاتب وصناديق الاقتراع ، وكلف رجاله من شرطة وجندرمة وأعوان بملء صناديق الانتخابات بأوراق مرشحي الإدارة من قياد وأغوات ، ومتقفين محسوبين عليها ، ولم يَفْزُ إلا عدد ضئيل من مرشحي « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » و « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » و « الحزب الشيوعي الجزائري » وكانت أصواتهم لا تكاد تذكر وسط أكترية فرنسية ، وذبول فرنسية .

إذا كان للانتخابات محاسنها في خلق جو من التنافس بين الأحزاب ، وفي توعية الرأي العام ، وتنشيط الحياة السياسية ، فإنها من ناحية أخرى عمّقت هوى الخلافات بين الأحزاب ، خاصة بين « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ، وبرز الخلاف إلى الوجود بصورة علانية ومكشوفة عندما هاجم مصالي الحاج مشروع فرحات عباس الذي يطالب « بجمهورية جزائرية فيدرالية ، في إطار الاتحاد الفرنسي » لا تمثل من وجهة نظر مصالي الرغبة الوطنية الجزائرية ، لأنها منقوصة السيادة ، ولا تتحكم في أمر الدفاع الوطني ، ولا في شؤون السياسة الخارجية ، بينما يرى فيها عباس وسيلة لتطوير القضية الجزائرية التي واجهت دائما تَعَنُّتاً من طرف الإدارة الفرنسية ، وتنحصر وجهة نظره في مبدأ « الحصول على القليل ، خير من لا شيء » و « وما لا يدرك كله ، لا يترك جله » .. أدى الاختلاف إلى صراعات حزبية ، وإلى تبادل التهم ، وإلى التراشق بالخianات ، مما دفع الغيورين على المصلحة الوطنية إلى السعي حثيثا في توحيد الصفوف ، ولكن مساعيهم كلها لم تجد الصدى المنتظر .. ودفع أيضا صحيفة « المنار » التابعة لحزب « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » إلى أن تفتح ملفا خاصا يتضمن إجابات الشخصيات الجزائرية المتحزبة وغير المتحزبة ، حول استفتاء موضوعه « الاتحاد » محدد في الأسئلة التالية :

1 - هل تعتقدون أن الاتحاد في الجزائر ممكن ؟

2 - على أي أساس ؟

3 - ما هي وسائل تحقيقه ؟

أجمعت الإجابات على هذه الأسئلة الثلاثة بأن الاتحاد ضروري وأكيد في مثل الظروف التي تجتازها البلاد .. ومن بين الإجابات القيمة ما كتبه الشيخ محمد بن العابد الجلاي ، وقد استهلّ جوابه بقوله : « أعتقد أن الاتحاد ممكن ، ويمكن جدا ، وواجب ، وليس بيننا وبينه إلا أن يتغلب العقل على العاطفة ، وإلا أن تخلص النفوس من شوائب الأنانية ، وإلا أن يظهر القادة والزعماء من الحنكة والرجولة والجدارة وبعد النظر أكثر مما أظهروه حتى الآن » .

لم يتغلب العقل على العاطفة .. ساءت العلاقات بين الأحزاب ، واحتدّ الصراع ، وكاد الوضع يتعفن ، وأصاب اليأس بعض النفوس . لولا أن الله أذخر لهذا الشعب جماعة مخلصّة كانت تُعدّ في سرية تامة ، وجدّية مثالية ، لثورة مسلّحة تتعدّى المخططات والحسابات السياسية ، وتتجاوز المهارات الحزبية .. كانت هاته الجماعة تعمل في إطار « المنظمة الخاصة » أو السرية التي توصّلت بعد الأزمات التي تعرضت لها إلى تفجير ثورة نوفمبر 1954 ، فأنقذت البلاد من تدهور أكيد .. فما هي قصة المنظمة الخاصة ؟

المنظمة الخاصة :

« المنظمة الخاصة » وليدة أزمة داخل « حزب الشعب الجزائري - حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » ظهرت في أواخر عام 1946 بعد أن زجّ مصالي الحاج بحزبه في الانتخابات .

حلّت الإدارة الفرنسية « حزب الشعب الجزائري » عام 1939 بعد أن ألقت القبض على أغلبية قادته ومناضليه .. وبعد الحرب العالمية

الثانية بدا لمصالي أن يشترك كبقية الأحزاب في الانتخابات ، وأن يترشح حزبه للمجالس ، وبما أن الإدارة الفرنسية لا تسمح لحزب منحل - قانونيا - بالترشح ، فقد اضطر الحزب أن يتقدم بعنوان جديد هو « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » كواجهة شرعية له ، وخاض بهذا العنوان المعارك الانتخابية في أواخر 1946 .. ولم يتقبل العديد من المناضلين المتحمسين المتمسكين بالسرية ، والعمل الثوري ، ترشح الحزب للانتخابات ، ورأوا في ذلك انحرافا وانزلاقا نحو الشرعية التي تُبعد الحزب عن النضال الحقيقي ، والهدف الحقيقي ، وتضطره إلى تنازلات ، وإلى قبول بعض التصرفات والقرارات التي لا تتجاوب والمناداة بالاستقلال .. وتلافيا للانتقادات التي تعرضت لها قيادة الحزب ، تقرر عقد مؤتمر يضم إطارات الحزب يومي 15 - 16 فبراير 1947 .. اجتمعت الإطارات يوم 15 ببوزريعة ، ويوم 16 ببيلكور لضرورات أمنية ، وقد هاجم التيار المتحمس قيادة الحزب واللجنة المركزية ، لإنشائها حزبا شرعيا بدون استشارة المناضلين ، وأخيرا انتهى المؤتمر بتوصيات تُوفق بين التيارات .

من بين الذين اشتركوا في المؤتمر : مصالي الحاج . الاحول حسين ، بن يوسف بن خدة . خيضر محمد . مزغنة أحمد . محمد الأمين دباغين . مسعود بوقادوم . حسين آيت أحمد . بلوزداد محمد . عمر أوصديق . سيد علي عبد الحميد . عبد الرحمن طالب . حمو بوتليليس . هوارى سويح . محمد يوسفى . مبارك فيلالي . والي بناي . إبراهيم معيزة . شوقي مصطفى . سعيد عمراني . أحمد بوده . حسين عسله . عبد المالك تمام . محمد مشاوي . حاج محمد شرشالي .

أما القرار التوفيقى فكان كما يلي :

(1) الإبقاء على « حزب الشعب الجزائري » في إطاره السري القديم ، للعمل على توسيع القاعدة الحزبية ، ونشر الفكرة النضالية الاستقلالية .

(2) متابعة « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » - بمظهرها الشرعي ، وإطارها القانوني - لمساعدتها ونشاطها في الأوساط الرسمية والشعبية لتوعية الجماهير بصفة عامة ، وللتخفيف من المشاكل اليومية التي تواجه المواطنين في حياتهم اليومية لدى الإدارة الفرنسية .

(3) إنشاء منظمة شبه عسكرية سرية ، عُرِفَتْ فيما بعد « بالمنظمة الخاصة » أو « المنظمة السرية » (O.S.) تتولَّى الإعداد والتعبئة للعمل الثوري .

وبدل أن ينهار الحزب من جراء الانتقادات التي وُجِّهَتْ إلى قيادته ، عادتْ إليه حيويّته بمجرد صدور قراره الخاص « بالمنظمة الخاصة » التي عيّن على رأسها محمد بلوزداد ، وهو شاب من خيرة المناضلين ذكاء ، وتكوينا ، وحيوية ، وإخلاصا ، تولَّى مسؤولية شبيبة الحزب ببيلكور ، ومسؤولية الحزب في عمالة قسنطينة ، وقد كان رغم صغر سنه عضوا في المكتب السياسي للحزب ، ونظرا لصفاته وأخلاقه العالية أولاه الحزب الثقة المطلقة ، وأسند إليه مهمة تشكيل التنظيم السري العسكري ، وتعهّد له بتقديم المساعدة الكاملة ، وترك الحرية له في اختيار العناصر الوطنية المؤهّلة للعمل الثوري .

باشر بلوزداد عمله ، بمقتضى مبدأين حدّدهما :

- اختيار أحسن المناضلين في الحزب لتجنيدهم في « المنظمة الخاصة » .

- الفصل التام بين « المنظمة الخاصة » والتنظيمات الأخرى التابعة للحزب ، محافظة على السرية التامة .

وبادر بتنصيب أركان حربه من :

- (1) حسين آيت أحمد - رئيس هيئة الأركان .
- (2) بلحاج الجيلالي عبد القادر - المدرب العام .
- (3) محمد بوضياف - مسؤول قسنطينة .
- (4) جيلالي رقيبي - مسؤول الجزائر .
- (5) محمد مروي - مسؤول الشلف والظهرة .
- (6) عمار ولد حموده - مسؤول منطقة القبائل .
- (7) أحمد بن بله - مسؤول وهران .
- (8) محمد يوسف - مسؤول شبكات الاستعلامات والاتصالات .

استطاعت المنظمة أن تحقق في فترة وجيزة خطوات هامة :

- اختارت من داخل الحزب العناصر الشجاعة المخلصة القادرة على التجنّد ، وفصلتها عن الحياة الحزبية السياسية ، وعن الحياة العامة للتفرّغ الكامل للعمل الثوري .

- تمّ تجنيد المناضلين وفق مقاييس متشدّدة ، وبعد امتحانات صعبة ، وبعد أداء القسم بأن يقدم المناضل في المنظمة جميع إمكانياته لخدمة القضية الوطنية التي ضحّى بحياته من أجلها .

- تدريب المناضلين المجندين ، وتزويدهم بمعلومات عسكرية نظرية وتطبيقية ، وخاصة في ميدان حرب العصابات ، وتوجيهات مكتوبة في الميادين العسكرية والعقائدية والسياسية .

- سعت للحصول على الأسلحة بجميع الوسائل .. بجمعها وشراؤها من داخل البلاد ، وإرسال فدائيين خارج الوطن للحصول عليها بأساليب متنوعة ، وأعدت لذلك مخايء ومراكز للتدريب ، وإخفاء الأسلحة والذخيرة .

- أنشئت مراكز لصنع الأسلحة والذخيرة الحربية ، والمتفجرات في عدة مراكز من أنحاء الوطن . وتمّ تدريب إطار خاص للإشراف على هذه المراكز وتسييرها .

- تحديد المناطق التي يقع فيها التدريب ، وقد شملت : الجبال . الغابات . الوديان . الشعاب . الصحاري . لأن حرب العصابات تتطلب معرفة طبيعة الأرض .

- غرس روح النظام في المناضلين بطريقة صارمة ، وساعد على ترسيخها ، ما يتمتع به المناضلون من استعداد نفسي ، ومن روح معنوية عالية لدى كل فرد منهم .

- إنشاء شبكات مدعّمة للمنظمة ، مثل : شبكة التواطؤ (Réseau de complicité) وشبكة الاتصالات (Réseau de transmission) ، ومهمّة الشبكة الأولى هي اختيار الملاجيء السرية التي يُمكن إخفاء المناضلين - الذين تبحث عنهم الشرطة - بها ، وإعداد مخايء للأسلحة والذخيرة .. ومهمّة الشبكة الثانية هي : شراء أجهزة الاتصالات ، والتدريب على استعمالها ، ويشرف عليها اختصاصيون في حدود الإمكان .

- قُسمت البلاد جغرافيا واستراتيجيا إلى مناطق ، ونواح ، كما تمّ تفويض المناضلين في خلايا وفرق على أساس السرية ، واحترام الفصل بين الأفواج ، وقد كانت المنظمة صارمة في مبدأ السرية إلى درجة أن

التدريبات يشرف عليها مدربون مقنَّعون ، لا تبدو إلا أعينهم ، ولا تعرفُ أسماؤهم الحقيقية ، وإنما يعرفون بأسماء مستعارة . وحتى القادة الذين يراقبون التدريبات ويتنقلون ، يؤدون مهامهم في سرية ، مستعملين الأقنعة .

- أولت المنظمة أهمية للاستعلامات ، ولتابعة الخونة .. فأنشأت أجهزة خاصة للتعرف وللإطلاع على تنظيمات وتحركات الأجهزة العسكرية والإدارية والبوليسية الفرنسية .. وأيضاً لتعقب الخونة . إيماناً بأن الخونة هم الأعين التي يعتمد عليها جهاز الشرطة الفرنسية في كل الأوقات .

وخلال عام ، حققت المنظمة في ميدان الإعداد والاستعداد تقدماً هائلاً ، وما كاد عام 1948 يوشك على الانتهاء ، حتى تقدم مسؤول المنظمة بتقرير إلى اللجنة المركزية لحزبه « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » وهو تقرير رائع يكتسي أهمية خاصة في ذلك العهد الذي اشتدت فيه وطأة القمع والزجر ، واشتد فيه الصراع الحزبي ، ولا تعلم أكثرية الشعب الجزائري بهذا التنظيم السري .. ويعتبر التقرير وثيقة أساسية من وثائق الثورة الجزائرية ، لأنه :

أولاً : يبرهن برهنة قاطعة - بمراجعة تاريخ كتابته - بأن الثورة الجزائرية التي اندلعت عام 1954 ليست بالثورة المستوردة من الخارج ، ولا هي بالثورة التي أوحَتْ بها عناصر أجنبية ، ولا هي مجرد مغامرة مرتجلة بعيدة عن كل تخطيط وإعداد .

ثانياً : يُجسِّم الجديّة التي كان رجال المنظمة الخاصة يتحلّون بها ، لا فرق في ذلك بين مسؤول ومناضل ، لأن كل مناضل يعتقد بأن

واجب تحرير الجزائر يقع عليه ، وهو بشعوره هذا يعتبر نفسه مسؤولا .

ثالثا : يتضمّن التقرير طريقة جديدة في تحليل القضايا الحزبية الداخلية ، ويجري فيه نقدا ذاتيا جريئا وصريحا ، ويحلّل الظواهر الثورية في العالم بإجراء مقارنة بينها ، ويختم المقارنة بأن الثورة الجزائرية لا يمكن أن تكون إلا جزائرية ، لأسباب استعرضها التقرير ، ويتعرض أيضا لتحديد آفاق الثورة في إطار المغرب العربي كله .

فالمنظمة في التقرير هي : « منظمة النخبة بعددها الذي يجب أن يكون محدودا بسبب طابعها السري جدا ، ويجب عليها بالدرجة الأولى تكوين إطارات معركة التحرير » .

ويُحدّد التقرير شكل الكفاح الذي تكون عليه معركة التحرير :

- 1 - كفاح التحرير لا يكون بانتفاضة جماهيرية .
- 2 - كفاح التحرير لا يكون بتعميم الإرهاب .
- 3 - كفاح التحرير لا يمكن اختصاره بتكوين منطقة محرّرة ، وإنما سيكون الكفاح التحريري حربا ثورية حقيقية » .

لكن هل الثورة ضرورية ؟ تقرير المنظمة يرى بأن الثورة ضرورية وأساسية ، لأن عهود « الاندماج » و « الإصلاح » و « الشرعية » و « الانتخابات » تجاوزها الزمن .

« إن طروحات الاندماج دُفنت نهائيا »

« الإصلاح انتهى بإفلاس فعلي ، وبالأهمية الخاصة التي أعطيت لورقة الانتخابات » .

« الشرعية ماتت من اللاشرعية الوراثية التي أوجدها الاستعمار »
ويتعرض التقرير إلى أهمية الجزائر بالنسبة لفرنسا ، وإلى استعداد هذه
لاستعمال كل الوسائل للاحتفاظ بها : « نحن نعلم ، ومنذ زمن قلنا بأن
بلدنا يشكّل حجر الزاوية للأمبريالية الفرنسية ، وفرنسا لا تتنازل
عنها دون أن تستعمل كل الوسائل الهامة التي في حوزتها » .

وما دام الوضع كذلك .. والتصميم الفرنسي واضحا .. فما هي
الإمكانيات الجزائرية لمواجهة القوات الفرنسية الجبارة ؟ يجب على هذا
السؤال : « إن قوتنا قوة معنوية تتمثل في روح المقاومة ، وفي الإيمان
الوطني ، وفي التفاني والتصميم الذي يجب أن يهز كل الجزائريين ، ومع
ذلك فإن الحرب التحريرية هي الشكل الوحيد للكفاح الملائم لأوضاع
بلدنا » .

ولا يخفي التقرير امتعاضه من وضع حزبه ، ويجري في ذلك نقدا
ذاتيا ، فينتقد وجود حزبين لجماعة واحدة « حزب الشعب الجزائري »
و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » بجناحيهما العسكري
« المنظمة السرية » التي تفتقر إلى الوسائل المادية ، والإمكانات الكافية
لمواجهة العمل الثوري في الوقت الذي طغت الانتخابات والتحمس لها
على كل نشاطات الحزب ، واستنفدت مالية الحزب « ثم يستعرض أقوال
المناضلين الذين ضجّوا من سياسة الانتخابات : « لا تستدعونا
لصناديق الانتخابات » « أعطونا سلاحا » « أنا لا أريد أن أجازف
بدون فائدة » « نريد أن نموت مرة واحدة » ، هذه هي التعابير التي
يرردها الجزائري العادي تشهد على تذمر الجماهير من هذا النوع من
الكفاح (كفاح الانتخابات) الذي يبدو لها بأنه بغير جدوى .. كما يدل
على متانة وهبوب تيار تاريخي عميق ، علينا أن نعمّق هذا التيار

التاريخي ، بالإضافة إلى هذا معنا بعض أعضاء المكتب السياسي الذين أوقفوا وسُجنوا بوصفهم مترشحين للمجلس الجزائري ، وقد صارحونا عند مغادرتهم لسجن بربروس بأنه « يجب إعادة النظر في سياستنا » . تحمل السّجن مقبول ، لكن على الأقل في قضية هامة .

ولم تتوقف المنظمة عند حدود أن تكون الرائدة أو الطليعة في الكفاح المسلح على مستوى الجزائر فقط ، بل سَعَتْ إلى حث كل من تونس والمغرب على الاتجاه الثوري ، والقيام بعمل موحد ، وأبدت استعدادها ومسؤوليتها لتوحيد المغرب ، وخوض معركة مشتركة « المسؤولية تعود إلينا للشروع في عملية التوحيد (أي توحيد المغرب العربي) لمساعدتها على تنظيم هياكل مشابهة لـهاكلنا » « الكفاح المشترك ليس فقط ضامنا للانتصار على القوات الاستعمارية ، بل هو كذلك ضمان لوحدة المغرب ، إذ في خضم الكفاح التحريري تنهار الحدود المصطنعة التي تُجزّئ هذه الوحدة » .

ولم ينس التقرير إشعار المسؤولين في اللجنة المركزية لحزبه بأن المناضلين قد استوعبوا مناهج التدريبات المقررة ، وهم في انتظار الأوامر للشروع في التنفيذ .. ولا ينبغي أن يطول انتظارهم حتى لا يتحول أملهم وحماهم إلى خيبة ويأس .

للتقرير أهميته ، لأن قيادة المنظمة تقدمت به لاجتماع اللجنة المركزية الذي انعقد في شهر ديسمبر 1948 بزّدين ناحية وادي الورينة أولا ، وانتهى الشطر الثاني منه بالبليدة .. وتعود أهميته إلى الظروف التي كتب فيها ، وإلى ما احتواه .. ورغم ذلك ، فإن اللجنة المركزية للحزب رأت بأن الوقت غير مناسب للقيام بعمل مسلح ، وإن قررت

من ناحية أخرى تدعم « المنظمة الخاصة » بالرجال والمال والسلاح ، رغم عجز الصندوق المالي للحزب عن تلبية حاجات المنظمة كلها .

ما بين عامي 1948 و 1950 قامت المنظمة ببعض العمليات ، نجحت في أغلبيتها ، وفشلت في بعضها ، من أشهر العمليات : بريد وهران . منجم الوانزة . محافظ الشرطة ببودواو . تمثال الأمير عبد القادر بباليكو .

وفي 18 مارس 1950 قام ديدوش مراد . مصطفى بن عودة . عبد الباقي بكوش . حسين بن زعيم . إبراهيم عجامي بعملية تأديبية ضد عبد القادر خياري في تبسة ، إلا أن هذا تمكن من النجاة ، والهروب وإخبار الشرطة بالعملية وبيع بعض الأسماء .. وتسببت هذه العملية في كارثة للمنظمة ، إذ اكتشف أمرها من قبل السلطة الفرنسية ، ولم تكن على علم بأمرها قبل ذلك ، وتعرفت الشرطة على أعضائها ، .. وألقت القبض على أكثر من ثلاثمائة مناضل موزعين في القطر ، وسبقوا إلى السجن ، وصدرت ضدهم أحكام قاسية .. أما بقية المناضلين فقد تفرقت ، واختفى بعضهم ، منهم من اعتصم بالجبال ، وهام بالبوادي ، ومنهم من اختار التنقل بين المدن والقرى وفرنسا بأوراق مزيفة ، وبذلك أصيبت المنظمة الخاصة بنكسة لم تكن تتوقعها ، وتأثر أعضاؤها المسجونون وغير المسجونين ، واتهموا إدارة الحزب بأنها تخلت عنهم ، وتبرأت منهم .. ومنذ ذلك الحين والحزب يعاني ويواجه الأزمات ..

وفي عام 1953 ، لم يبق الخلاف بين أعضاء « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » خافيا على أحد ، وتفجر بصفة خطيرة وحادة عام 1954 ، وأدى إلى انقسام الحزب إلى تيارين : تيار « اللجنة المركزية » أو « المركزيين » .. وكانت له وجهة نظره في سياسة الحزب ،

وفي زعامة مصالي الحاج للحزب .. وتيار « الحركة الوطنية » أو المصاليين .. وكانت له أيضا وجهة نظره في سياسة الحزب ، وفي أعضاء اللجنة المركزية إلى درجة اتهامهم بالانحراف والانتهازية .. لكن هناك تيار ثالث أنكر على الحزب انقسامه في مثل هذه الظروف ، وفضل الحياد الذي تحول على يد محمد بوضياف ومراد ديدوش إلى تنظيم « لجنة الثورة والوحدة والعمل » (C.R.U.A.) ، ولم يحد هذا التنظيم الصدى الذي كان يأمله ، لأن أغلبية المناضلين الحيايين تجنبّت توسيع شقة الخلاف ، وانضمامهم إلى « لجنة الثورة والوحدة والعمل » يخلق حزبا ثالثا ، رغم أن هذه اللجنة قامت بنشاط حثيث وأصدرت صحيفة ..

وبذلك كانت سنة 1954 سنة الصراعات الحادة والفاصلة بين أجنحة حزب « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » بحزّت آمال العناصر الوطنية المناضلة داخل الحزب ، وخاصة في أوساط الشبيبة .. وهذا ما حدا بنخبة من « المنظمة الخاصة » لأن تدعو إلى عقد اجتماع خاص سري ، لا يحضره إلا إطارات « المنظمة الخاصة » الموزعة داخل البلاد ، وتولى الدعوة للاجتماع مصطفى بن بولعيد ، وتولى الاعداد المادي من استقبال ، وإيواء ، وتعيين مقر الاجتماع مراد ديدوش ، وقام بإعداد التقرير العام محمد بوضياف .. وفعلا انعقد الاجتماع في أواخر شهر جوان 1954 ، وقد اشتهر باجتماع (22) مع أنه لم يشترك فيه إلا 21 مناضلا ، وتمّ في دار إلياس دريش بالمدينة بالعاصمة .. استمع الحاضرون في البداية للتقرير العام ، ثم تداولوا الآراء حول الأزمة التي يمرّ بها الحزب في هذه الظروف العويصة ، وأخيرا اتفقوا على النقاط التالية :

- الحياد أو عدم الدخول في الصراع بين « المركزيين »

و « المصاليين »

- الغمل على توحيد جناحي الحزب .
- تدعيم موقف « لجنة الثورة والوحدة والعمل » في أهدافها الثلاثة :
- الثورة والوحدة . والعمل .
- تفجير الثورة في تاريخ تحدده لجنة مصغرة .
- انتخاب مسؤول يتولى تكوين لجنة مصغرة .
- وقبل أن يتفرق الحاضرون انتخبوا مسؤولاً فوضوا إليه أمر تشكيل اللجنة التي تتولى الإعداد للثورة ، وقد تكونت اللجنة من :

- مصطفى بن بولعيد .

- مراد ديدوش .

- العربي بلهميدي .

- محمد بوضياف .

- رابح بيطاط .

والتحق بالخمسة فيما بعد - كريم بلقاسم .

وخلال فترة الإعداد ، ضمت اللجنة إليها لتمثيلها بالخارج ممثلي « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » بالقاهرة ، وهم :

محمد خيضر .

- حسين آيت أحمد .

- أحمد بن بله .

وهكذا نجد أنه منذ شهر جويلية 1954 وأعضاء لجنة الإعداد يسابقون الزمن ، ويكتفون من تحركاتهم واجتماعاتهم واتصالاتهم داخل البلاد وخارجها ، مستعينين بخبرتهم السابقة في « المنظمة الخاصة » ، ومستفيدين من تجارب المقاومة منذ 1830 .

وفي شهر سبتمبر من نفس السنة اجتمعت اللجنة لدراسة بعض القضايا :

- نتائج الاتصالات والتحركات .
- قضية التنظيم السياسي والعسكري .
- السلاح وكيفية الحصول عليه .
- الأموال الضرورية .
- مواصلة الاتصالات بالأحزاب والهيآت لجس نبضها ، والتعرف على مواقفها فيما إذا انفجرت الثورة .

أما في اجتماع أكتوبر ، فقد تقرر :

- 1 - تحديد تاريخ إعلان الثورة .
- 2 - الاتصال بمناضلي « المنظمة الخاصة » وإشعارهم بالاستعداد لساعة الصفر .
- 3 - إبقاء تاريخ تفجير الثورة سرا .
- 4 - ضبط ، وصيانة الأسلحة القديمة المختزنة في مخايء « المنظمة الخاصة » التي لم تكتشفها الشرطة الفرنسية عام 1950 .
- 5 - تقسيم البلاد إلى خمس مناطق ، وتوزيع المسؤولين عنها كما يلي :

- الأوراس : مصطفى بن بولعيد
- الشمال القسنطيني : مراد ديدوش
- القبائل : كريم بلقاسم
- الجزائر : رابح بيطاط
- وهران : العربي بلهيدي

6 - تعيين منسق بين المناطق ، وبين الداخل والخارج ، وقد كلف بهذه المهمة : محمد بوضياف .

7 - إعداد منشور يعلن الثورة ، ويوضح أهدافها .

وبسرعة فائقة توالت التحضيرات .. وما كاد أول نوفمبر 1954 يحل حتى كانت وكالات الأنباء العالمية تردد أصداء « الأحداث » التي وصفتها الجهات الفرنسية الرسمية وغير الرسمية آنذاك بأنها « مجرد حوادث معزولة » « لا أهمية لها » و « لا تشكل خطرا على أمن ووحدة العمال الفرنسية » « ويمكن إخمادها ، والقضاء عليها بسرعة » .. ولما تأكدت هذه الجهات بأن ما وقع في ليلة أول نوفمبر أقوى من « مجرد حوادث معزولة » سارعت إلى توجيه الاتهامات ، وإلى تحويل الأنظار خارج البلاد ، لإيهام الرأي العام بأن « هذه الحوادث إنما هي أحداث أوجت بها جهات أجنبية » و « بأنها عدوى انتقلت من الحدود التونسية » .

لقد فوجئت الجهات الفرنسية باندلاع الثورة - وهذا من عوامل نجاحها - فراحت تدلي بتصريحات غير موضوعية ، وتتصرف تصرفات تنوي القضاء بها على الثورة ، فدعمتها من حيث لا تدري ، وفوجئت من جديد بانتشار الوعي الثوري في البلاد بسرعة مذهلة ، وبالتفاف الجماهير الشعبية حول الثورة .. ومن الطبيعي أن يفاجأ الفرنسيون وأن يصابوا بالذهول ، لأنهم اطمأنوا إلى الجانب الجزائري من زمن بعيد ، ولم يتصوروا أن الجزائريين سيعودون إلى حمل السلاح الذي تركوه جانبا منذ الحرب العالمية الأولى .. وكانوا يعتقدون بأن حوادث ماي أدبت الوطنيين الجزائريين ، ومن المستحيل أن يفكروا - بعد الذي أصابهم - في ثورة مسلحة .. وها هم حين عادوا إلى تنظيم عمل مسلح عن طريق « المنظمة الخاصة » يكتشف أمرهم ، وتحل المنظمة ، ويتم القضاء

عليها .. المهم هو أن الفرنسيين كانوا متأكدين بأنه لا يمكن أن يحدث أمر خطير بالجزائر ، لا سيما بعد أن انقسم حزب « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » على نفسه ، وتفتتت قوته ، وحدثت الاصطدامات الدموية بين أجنحته المتصارعة .

حتى أن وزير الداخلية الفرنسي آنذاك فرانسوا ميتران الذي كان في جولة بالجزائر ، وفي الأسبوع الذي سبق تفجير ثورة نوفمبر أدلى بتصريح قبل مغادرته الجزائر إلى فرنسا ، قال فيه :

« إنني حريص على أن أقول إنني وجدت العائلات الفرنسية الثلاث في حالة من الهدوء والازدهار ، وإني أسافر وأنا مفعم أملا » .

أمّا مانديس فرانس رئيس الحكومة الفرنسية في ذلك العهد ، فقد ألقى خطابا في البرلمان الفرنسي بمناسبة اندلاع الثورة ، وقد جاء في خطابه قوله :

« كان الجو هادئاً .. وكل الشر جاء فجأة من إذاعتي بودايبست والقاهرة ، وهذا الوضع مشارقلق دائم لنا .. فين هذين العالمين أيضا يفد المهرجون والمشاعبون ، ومنها أيضا تتسرب الأسلحة التي بها تجد الحرب الكلامية امتدادها في الحرب الدموية » .

المفاجأة .. والإرادة .. والصمود هي الدعائم التي اعتمد عليها رواد الثورة .. الذين بفضلهم تجاوزت الحركة حدود المقاومة الشكلية التي لا تتعدى حدود الدفاع .. وتجاوزت نطاق الانتفاضات الضيقة مساحة وعددا .. وتحولت إلى ثورة حقيقية جبارة ، بما سطرته لنفسها من أبعاد وغايات ، في بيان واضح .. هادف .. وهذا نصه :

« أيها الشعب الجزائري .

أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية .

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا - نعي الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة - نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل ، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية ، التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي ، ورغبتنا أيضا هو أن نجنبكم الالتهاب الذي يمكن أن توقعكم فيه الامبريالية وعملائها الإداريون ، وبعض محترفي السياسة الانتهازية .

فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية - بعد مراحل الكفاح - قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية ، فإذا كان هدف أي حركة ثورية - في الواقع - هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية ، فإننا نعتبر أن الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحد حول قضية الاستقلال والعمل ، أما في الأوضاع الخارجية فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الدبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين .

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد ، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحريري في شمال إفريقيا ، وما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل ، هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبداً بين الأقطار الثلاثة .

إن كل واحد منها قد اندفع اليوم في هذا السبيل ، أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث ،

وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين ، توجيهها سيء محرومة من سند الرأي العام الضروري ، قد تجاوزتها الأحداث ، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحاً ظناً منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية .

إن المرحلة خطيرة !

أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح علاجها مستحيلاً ، رأت مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصمة ، إن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين .

وبهذا الصدد ، فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة ، إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة ، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية .

ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التحريرية تظهر تحت اسم « جبهة التحرير الوطني » .

وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة ، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية ، وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر .

ولكي نبين بوضوح هدفنا فإننا نسطر في ما يلي الخطوط العريضة
لبرنامجنا السياسي :

الهدف : الاستقلال الوطني بواسطة :

(1) إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن
إطار المبادئ الإسلامية .

(2) احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني .

الأهداف الداخلية :

(1) التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي
والقضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الإصلاح التي كانت عاملا هاما
في تخلفنا الحالي .

(2) تجميع وتنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري
لتصفية النظام الاستعماري .

الأهداف الخارجية :

- تدويل القضية الجزائرية .

- تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي
والإسلامي .

- في إطار ميثاق الأمم المتحدة نوّكّد عطفنا الفعّال تجاه جميع الأمم
التي تساند قضيتنا التحريرية .

وسائل الكفاح :

انسجاما مع المبادئ الثورية ، واعتبارا للأوضاع الداخلية
والخارجية ، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا .

إن جبهة التحرير الوطني لكي تحقّق هدفها يجب عليها أن تُنجز مهمتين أساسيتين في وقت واحد ، وهما : العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي ، أو في ميدان العمل المحض ، والعمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله ، وذلك بمساندة كل حُفّائنا الطبيعيين .

إن هذه مهمة شاقة ثقيلة العبء ، وتتطلب كل القوى وتعبئة الموارد الوطنية ، وحقيقة إن الكفاح سيكون طويلا ، ولكن النصر محقّق .

وفي الأخير ، وتحاشيا للتأويلات الخاطئة ، وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم ، وتحديدًا للخسائر البشرية وإراقة الدماء فقد أعدنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة ، إذا كانت هذه السلطات تحذوها النية الطيبة ، وتعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقوقها في تقرير مصيرها بنفسها .

1 (الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ، ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري .

2 (فتح مفاوضات مع الممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ .

3 (خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفع كل الإجراءات الخاصة ، وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة .

وفي المقابل :

(1) فإن المصالح الفرنسية ، ثقافية كانت أو اقتصادية والمتحصل عليها بنزاهة ، ستحترم ، وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات .

(2) جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية ، ويعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية ، أو يختارون الجنسية الجزائرية ، وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات .

(3) تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر ، وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل .

أيها الجزائري ، إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة ، وواجبك هو أن تنضم إليها لإنقاذ بلادنا والعمل على أن نسترجع لها حريتها ، إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك ، وانتصارها هو انتصارك .

أما نحن العازمون على مواصلة الكفاح ، الواثقون من مشاعرك ، المناهضة للأمبرياليين ، فإننا نقدم للوطن أنفسنا ما نملك »

انتهى نص أول بيان ، تعلن به جبهة التحرير الوطني الشروع في العمل الثوري المسلح .

إن الذي يتأمل هذا النص فقرة فقرة يستطيع أن يرد بكل بساطة على من ادّعوا - بقصد أو بغير قصد - بأن الثورة قد انحرفت .. على أساس أن الانحراف في مثل هذه المواقف والحالات هو التخلي عن المبادئ والأهداف لأغراض غير شريفة .. فالثورة قد خططت استراتيجية عملها . وحددت معالم التعامل مع الدولة المستعمرة . وأكدت

بأن المعركة المسلحة وسيلة لا هدف .. ولكن أهم ما احتواه النص هو
تسطير المبادئ التي بدونها وبدون تحقيقها ، لا تضع الثورة سلاحها ،
وحصرتها في ثلاثة :

(1) الاستقلال الكامل .

(2) السيادة الوطنية الحقيقية .

(3) وحدة التراب الوطني .

فهل تخلت الثورة عن هذه المبادئ ؟ نترك الحديث عن ثورة أول
نوفمبر إلى فرصة أخرى - إن أطال الله الأعمار - مكتفين الآن بالقليل
الذي استعرضناه ، واستقيناه من المصادر الصحيحة ، مع الاعتراف في
الوقت نفسه بأن ما أوردناه لا يكفي ، لأننا قدمناه في مناسبة خاصة ،
وفي أحاديث خاصة بالإذاعة .. لا نستطيع أن تحيط بكل موضوع من
جميع الجوانب ، لا سيما وأنها مواضيع هامة .. وحساسة .. قد يكون لها
مجال آخر ..) - إن شاء الله -



المراجع الهامة

(1) المكتوبة باللغة العربية :

- د. أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ج3
- » » : أبحاث وأثار في تاريخ الجزائر
- عبد الحميد زوزو : دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية بين الحربين (1919 - 1939)
- » » : ثورة بوعمامة
- اسماعيل العربي : المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر
- د. محمد ناصر : المقالة الصحفية في الجزائر ج2
- د. محمد العربي الزبيري : مذكرات أحمد باي
- » » : الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر
- الأمير محمد : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر
- عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج4
- محمد مبارك الميللي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج3
- أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر
- » » : هذه هي الجزائر
- حمدان عثمان خوجة : المرأة ترجمة د. محمد العربي الزبيري
- محمد عبد الكريم : حمدان عثمان خوجة
- علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب
- أحمد الخطيب : الثورة الجزائرية
- مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن
- فرحات عباس : ليل الاستعمار ترجمة أبو بكر رحال
- د. يحيى بوعزيز : ثورة 1871
- » » : ثورات الجزائر

(2) باللغة الفرنسية :

- شارل أندري جوليان : تاريخ الجزائر المعاصرة ج2
- وشارل روبير أجرون : إفريقيا الشمالية تسير
- شارل أندري جوليان : الجزائريون المسلمون وفرنسا (1871 - 1919)
- شارل روبير أجرون : الحياة السياسية في الجزائر 1919 - 1939
- محفوظ قداش : تاريخ الوطنية الجزائرية ج2
- » » : الحركة الثورية في الجزائر
- أحمد محصاص :

- محمد حربي : وثائق الثورة الجزائرية
- « » : إلى أصول جبهة التحرير الوطني
- فرحات عباس : الشاب الجزائري
- أندري نوشي : ميلاد الوطنية الجزائرية
- جاك بيرك : المغرب بين حريين
- شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر . ت. د. أبو القاسم سعد الله
- كلود كولو و روبير هانري : الحركة الوطنية الجزائرية . وثائق
- إيف لاکوست وأندري نوشي : الجزائر ماض وحاضر
- كلود مارتان : تاريخ الجزائر الفرنسية 2 ج
- روبير أرون : الجذور لحرب الجزائر
- أوكتاف ديبون : جزائر القرن

(3) المجلات والنشرات :

- مجلة الشهاب
- « تاريخ وحضارة المغرب
- المجلة التاريخية المغربية
- سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني
- صحيفة البصائر
- « المنار
- « الأمة
- « البرلمان
- « المغرب العربي
- « المساواة
- « النصر - قسنطينة -
- مطبوعات ومناشير « حزب الشعب الجزائري » و « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية »

محتويات الكتاب

7	الاهداء
9	المقدمة
17	أ) المقاومة
18	المقاومة الايجابية
18	المقاومة السلبية
19	مراحل المقاومة
23	ب) الاحتلال
23	الدوافع والاسباب
31	ج) المرحلة الأولى من المقاومة :
33	- الأمير عبد القادر
34	بيعة الأمير
35	نشاطه وانجازاته
38	معاهدة ديميشال
41	معركة المقطع
44	سقوط معسكر
44	معاهدة تافنا
46	نهاية الأمير
47	- أحمد باي
51	شخصية أحمد باي
55	هزيمة كلوزيل بقسنطينة
56	احتلال قسنطينة
58	انتقال أحمد باي إلى الجنوب
63	د) المرحلة الثانية : الانتفاضات :
65	أسباب فشل الانتفاضات
66	الانتفاضات في كامل البلاد
67	انتفاضة الزعاطشة
69	انتفاضة المقراني والحداد
73	ه) المرحلة الثالثة : النضال السياسي :
75	فكرة النضال السياسي

85	1 (الأمير خالد
87	ردود الأمير على الأوروبيين
89	برنامج الأمير خالد
90	رسالته إلى ويلسون
93	2 (نجم شمال افريقيا
97	أهمية تنظيم النجم
100	مطالب النجم في بروكسل
105	3 (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
107	تأسيس الجمعية
110	برنامج الجمعية
117	4 (حوادث أوت 1934 بقسنطينة
119	ظروف الحوادث
121	السبب الحقيقي
125	ردود الفعل
129	موقف النجم
131	5 (المؤتمر الإسلامي:
133	الوضع السياسي الفرنسي
135	فكرة المؤتمر
137	انعقاد المؤتمر
138	أهميته
141	مطالبه
145	الاجتماع الثاني بالملعب البلدي
146	خطاب ابن باديس
147	خطاب مصالي
153	اغتيال كحول
158	موقف النجم من سياسات الاندماج
159	6 (جمعية العلماء قبل الحرب العالمية الثانية
161	بعض الأحداث
	مواقف ابن باديس من :
164	- اعتقال العقبي
166	- محاولة اغتيال الحبيباتني
168	- ابن جللول
173	- احتداد لهجة ابن باديس

175	7	من النجم الى « حزب الشعب الجزائري »
177		خطاب مصالي في مؤتمر بروكسل
178		مطالب النجم
182		تأسيس « حزب الشعب الجزائري »
183		بين النجم والحزب
184		مضايقة الادارة الاستعمارية للحزب
187		محاكمات مناضلي الحزب
191	8	الجزائريون والحرب العالمية الثانية
193		ظروف الحرب والنشاط الوطني
195		موقف الجزائريين
197		محاولات ثورية
201	9	في طريق البيان
203		رسالة الى بيتان من عباس
204		صدور « البيان »
208		« ملحق البيان »
211		« أحباب الحرية والبيان »
215	10	حوادث ماي 1945
217		الوضع العام
218		حوادث ماي
222		انعكاسات أحداث أول ماي على الوطنية الجزائرية
225	11	من الانتخابات الى الثورة :
227		الوضع العالمي بعد حوادث ماي
229		الوضع الداخلي بعد حوادث ماي
234		سياسة الترشح للبرلمان الفرنسي
235		الأحزاب وتجربة المجالس
237		الصراعات الحزبية
238		« المنظمة الخاصة » عام 1947
241		التنظيم العسكري للمنظمة
242		إنجازات المنظمة
243		تقرير المنظمة عام 1948
246		انكشاف المنظمة
		انقسام « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية »
247		وظهور « لجنة الثورة والوحدة والعمل »
248		اجتماع 21
249		بدء الاستعداد للثورة
253		بيان أول نوفمبر 1954
259	12	قائمة المراجع

طبع بمطابع
« دار البحث »
قسنطينة - الجزائر
٥ : ٥٥ ٥٥ ٥٥

● هذا الكتاب ●

المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي .. ملحمة .. بطولية .. رائعة .. أصيلة أصالة الشعب الجزائري العريق الذي أثبت وجوده .. ودافع عن شخصيته وكيانه مدة قرن واثنين وثلاثين عاما ، عرف خلالها أساليب من المقاومة .. لم تحرر هذه الأساليب الأرض الجزائرية من الظلم والطغيان والجبروت ، ولكنها أقرت حقيقة خالدة وهي أن الشعب الجزائري غير قابل للذوبان وللابتلاع ..

والكتاب يغطي فترة 1830 - 1954 .. ويركز فيها على الأحداث لا على الأشخاص .. لأن الأشخاص ليسوا بالمقياس الوحيد في ميدان المقاومة والصمود .. ويقود القارئ الى التعرف بموضوعية ونزاهة على تطور الوطنية الجزائرية ، وعلى التضحيات الجسام التي بذلتها في سبيل الحرية والاستقلال .

« الناشر »